التفسير الوعظي لسورة يوسف

التفسير الوعظي لسورة يوسف

الدكتور محمد محمود الطرايرة

- **رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:** (٢٠٢١/٣/١٧٥٢)
- **رقم التصنيف:** (٢٢١/٦٣)
- **المواصفات:** / تفسير القرآن // سور القرآن // العلوم القرآنية // القرآن الكريم // الوعظ والإرشاد /
- **الطبعة الأولى:** ١٤٤٢هـ-٢٠٢١م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

للتواصل مع المؤلف

+962 79 617 69 69

m-tarira@hotmail.com

د-محمد الطرايرة

عمان - الأردن

التفسير الوعظي لسورة يوسف

تأليف:

د. محمد محمود الطرايرة

راجع آياته ودققها:

فضيلة الشيخ عبد الكريم يونس

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

المقدمة

الحَمْدُ لله الذي أكْرمَنا بالإسلام، وشَرحَ صدورَنا لتلاوة القرآنِ وفهمه، وأَعَدَّ لمنْ صَدَقه في ذلك الدرجاتِ العُلا في الجِنان.

أَحْمدُه على نِعَمِه التي لا تنْقطع، وآلائه التي لا تنقضي. سُبْحانه؛ ما يفتحُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسك لَها. وَأُصَلِّي وأُسَلِّمُ على الرَّحْمةِ المهداةِ، سيدِ الأوَّلينَ والآخرين، البشيرِ النذيرِ، الذي اصْطفاهُ رَبُّنا مِن بَيْن خَلْقه، وجَعلَه رسولًا للناس أجمعين، صَلواتُ رَبِّي علَيه وعلى آلهِ الطِّيبين الطاهرين، وعلى أصْحَابِه حمَلةِ الشرع ومصابيحِ الهُدى، وقُدواتِ المؤمنين الصالحين، وبعدُ:

فَهذا تفسيرٌ لسورة يوسف، قَصَدْتُ مِنْهُ تقْريب عباراتِ أهل العلم في معاني الآيات وأحكامها مِنْ عُمومِ النَّاسِ، لا سِيّما أنَّ عددًا من كُتب التّفسير فيها لغةٌ عاليةٌ وصعبةٌ على أهل الزمان، فكانت طريقة التصنيف قائمةً على انتقاءِ العباراتِ القريبةِ من الأفهامِ، والاهتمامِ ببيانِ المَعنى بأكثرَ من مُفردةٍ وعبارةٍ.

وَهذا التفسيرُ يَنْتفعُ به كذلك صِنفٌ من طلبةِ العِلمِ والدُّعاةِ إلى اللهِ تعالى، مِمَّن تصدّرَ لمجالسِ الوعْظِ والإرشادِ في مُختلفِ مُؤسَّساتِهِ.

وفِكْرته كذلك تقْتصرُ على تقديمِ آياتِ كتاب اللهِ تعالى على هَيْئةِ مواعظَ، تَنْفعُ قارِئها وحافِظَها، عن طريق توضيحِ المقصودِ منها وبيانِ السياق الذي جاءت فيه، وذِكْرِ سببِ نُزولها إن وُجدَ، ثمَّ محاولةِ ربْطها بالواقعِ الذي نعيشهُ دونَ تكلُّفٍ أو إسْهابٍ.

وَقد أَسْمَيتهُ وَوَسَمْتُهُ بِ «التَّفسيرُ الوَعْظِيُّ»، مُسْتمِدًّا ذلكَ من عددٍ من آياتِ القرآن العظيمِ الَّتِي بيَّنتْ أنَّ اللهَ تعالى أنزلَ كتابَه، وذكَر فيه ما ذَكَرَ، ليكونَ موعظةً للنَّاسِ وتذكرةً لعلَّهُم يَهْتدون، وذلك كقولِ الله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: ٦٦]، وقولِه: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقولِه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، وقولِه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤]، وقولِه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه: ١-٣]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس: ١١-١٦]، وَغيْرِ ذلكَ من الآياتِ الدّالة على أنَّ القرآنَ موْعظةٌ وتذكرةٌ لمَنْ كانَ له قلبٌ، أوْ ألْقى السمْعَ وهوَشهيدٌ.

وَمنْ تأمَّلَ حالَ كثيرٍ منْ أهلِ الشَّهواتِ والذُّنوبِ، مِمَّنْ غَفلتْ قلوبُهم، ولم تستقِمْ جوارحُهم، وَجدَ أنَّ وصولَ مواعظِ القرآنِ لهُم مِفتاحٌ من مفاتيحِ هدايتِهم ورجوعِهم إلى طريقِ الاستقامةِ والهُدى، ذلك أنَّ كثيرًا منهُم يُحبُّ اللهَ تعالى ويُحِبُّ سماعَ كلامِه، وعندَهُ شَغَفٌ وشوقٌ عجيبٌ للعيشِ معَ معانِي الآياتِ وظلالِها، بأسلوب يكونُ قريبًا منهُ ومنْ فُؤادِه، وقد كانَ هذا سببًا من أسبابِ الخوضِ في هذا العِلم، فإنِّي لا أعلمُ واعظًا للنَّفْس أجْودَ وأقربَ وأحْلى منْ كلامِ اللهِ جلَّ في عُلاه.

وقد حرَصْتُ على تَفْسيرِ القُرآن بالقرآن، وذِكْرِ الأحاديثِ الخادمةِ لفهْمِ الآيةِ، وأخْذِ المَوعظةِ منْها، والمرورِ على مُجملِ أقوالِ أهلِ التَّفسير والفقهِ إنْ لزمَ.

وكانَ منْ منْهجِي في ذِكْرِ الأحاديثِ ألّا أذْكرَ حديثًا إلَّا راجعتُ كلامَ أهلِ التَّخصُّصِ فيهِ تصحيحًا وتضْعيفًا، ثمَّ حَرَصْتُ على ذكرِ الصَّحيحِ منْها غالبًا، مُشيرًا إلى الأحاديثِ التي حصلَ فيها خلافٌ أو كانتْ ضعيفةً، حالَ ذِكْرِها.

وَجُلُّ هذا التَّفسيرِ قائمٌ على مراجعَ ثابتةٍ لا أخرجُ عنها إلَّا إذا احْتجْتُ، وهيَ: كتابُ «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للإمام أبي جعفر الطبري، وكتابُ «تفسيرِ القرآنِ العظيمِ» للإمام ابنِ كثيرٍ، وتفسيرُ «المَنَارِ» للشيخ محمد رشيد رضا، وتفسيرُ «تيسير الكريم الرحمن في تفسيرِ كلام المنان» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، وتفسيرُ «التَّحريرِ والتَّنويرِ» للشيخ محمد الطاهر ابنِ عاشورٍ، وتفسيرُ «أضواءِ البيانِ» للشيخ محمد الأمين الشَّنقيطيِّ، وتفسير «سورة يوسف دراسة تحليلية» للدكتور أحمد نوفل حفظه الله ورحم الله علماءنا السابقين جميعًا.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن فكرة التفسير الوَعْظي ليست بدعًا من القول، فإنَّ استنباطَ المواعظ وذِكرَها دأبُ غالب المفسرين في تفسيرهم، وهو جزءٌ من التفسير الموضوعي للمتخصصين في هذا الشأن. بل إنَّ عددًا من أئمة التفسير قد خصُّوا مواعظ القرآن بتفسير مستقل، فكانت فكرة هذا الكتاب وهذا العنوان مسبوقة بجهد هؤلاء الأعلام.

وَلا يفوتُني قبلَ أنْ أترُكَكم ومواعظ آياتِ سورة يوسف، أنْ أشْكرَ كُلَّ منْ أعانَ على إخراجِ هذا الكتابِ، سائلًا اللهَ تعالى أنْ يتقبَّلَ منهُم ويكرمَهم بمَا هوَ أهْلُه، حريصًا على عدمِ ذِكْرِ أسمائِهم؛ فإنَّ ذِكْرَ اللهِ تعالى لهُمْ في المَلأِ الأعْلى يكفيهِم.

سورة يوسف

سورة يوسف من السور المكية، أي: نزلت قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد كانت الآيات تتنزَّلُ في مكة قبل الهجرة لتربطَ على قلوب المؤمنين، وتعينَهم في غربتهم بين أهل الكفر، وتسليَهم وتسليَ نبيَّهم عليه الصلاة والسلام على ما يجدونه من مَكْر أهل الكفر وعدائهم وإيذائهم وحَسَدهم، وكانت الآيات تنزل بتربيتهم على العقيدة والأخلاق الكريمة، وتُسدِّدُهم في طرائق تفكيرهم ليفهموا الحياة الدنيا على حقيقتها، ويتعاملوا معها بحجمها الذي تستحقُّ.

أخرج البخاري عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، في قصة طعن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنه كان في الركعة الأولى من صلاة الفجر، والتي كان سيدنا عمر يقرأ فيها غالبًا بسورة يوسف أو النحل.

وفي صحيح البخاري: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ، «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ (أي: بكاءه الشديد)، وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]».

ذكرَ القرآن الكريم اسمَ سيِّدِنا يوسفَ عليه السلام مَرَّتين، وكانتا في سورتَيْ الأنعام وغافر، ثم أفاضت آيات كتاب ربنا فيما يَقْرُبُ من مائة آية متتابعة في سورة يوسف ببيان حال هذا النبيِّ الذي كان بلاؤه مختلفًا عن غيره من إخوانه الأنبياء، فهو لم يواجه عدوًا يهدده باستئصال دعوته والقضاء على الدين وأهله، ولكنه عايش أنواعًا أخرى من الآلام التي قطف ثمرة الصبر عليها مع شدتها وصعوبتها، كما سيأتي بيانه في السورة الكريمة.

ولقد جاء ذكر قَصص إخوانه من الأنبياء في القرآن متفرقًا على الغالب، ليخدم كلُّ جُزْء منها السياقَ الذي جاءت فيه، بخلاف قصة هذا النبي الذي ذُكرت كاملة بتفاصيلها وظلالها وعُقدها، وذكرت كاملة بأحداثها وشخصياتها وزمانها ومكانها، ولا يكاد من يعيش معها بجوارحه وجوانحه إلا وينتقل إلى صفاء الروح وحلاوة الحياة، وتهتزُّ معها المشاعر والعواطف وتتحرك الضمائر، بل وتعطيه بَصيرةً في حل العُقد من حوله مسترشدة بحل جميع عُقَد قصة سيدنا يوسف، عليه وعلى جميع إخوانه من الأنبياء والرسل الصلاة والسلام.

والسورة التي سنعيش مع قصتها وآياتها بشيء من الاستغراق في الفهم والعلم، لا تكاد عِبَرُها تنقضي أو تنقطع، ففيها إثباتٌ لحصول الرؤيا ومكانتها وتفسيرها في حياة الأنبياء والصالحين، وفيها حديث مؤلم عن تحاسد القرابة وما قد يفعله بأهله، وعن السجن وآلامه، ثم الأُنْسُ بلطف الله بأهل الدعوة والقلوب السليمة الذين يحفظ الله بهم الخلق، وفيها النظرُ في عاقبة من يصبرُ على الظلم ويعفو، ويكونُ أمينًا ويَصْدقُ.

وفي سورة يوسف رفعٌ لشعار الطُّهر والعفة في أرقى الصور وأجمَلِها، وفيها الصبرُ عن معصية الله التي اقتربت كثيرًا، وفيها تسلية لكل من أصابه همٌّ أو أذى بسبب قرابة أو غيرها، وفيها وَصْف لما كانت عليه الأمم قديمًا، وغير ذلك مما يلزمنا في طريق عبوديتنا ودعوتنا واستخلافنا في هذه الأرض.

أَكْثرُ من رُبْع آيات القرآن جاءت قَصَصًا، فالله الذي خلق الإنسان هو الذي يعلم ما الذي يحيي فيه كثيرًا من المعاني والقيم، وهو الذي يعطيه من القول ما يُحْدث بين جنباته لذَّةً لا يعرف سِرَّها، وهو الذي يعلم مقدار الأنس الذي يحوي القلب بِعَيْشه بين الصالحين في سِيَرهم وقَصصهم، فكيف لو كان هؤلاء الصالحون هم الأنبياء؟

جعل الله تعالى فيما أوحى لنبيه عليه الصلاة والسلام قَصصًا لعلمه أنها تستولي على مشاعر المستمع وخيالاته وإحساسه، وأنها تغذي الروح والعقل بأسلوب يروق للعالمين.

القِصَّةُ القرآنية امتازت عن غيرها بصدقها، فلا خيال فيها ولا كذب، وامتازت بحرصها على ترسيخ العقيدة في قلوب من يتفيؤون ظلالها، ولكم أن تتأملوا في كل كلمة فيها كيف تطير بكم في معاني الربوبية والألوهية وأسماء الرب جل وعلا وصفاته، وكيف تَفْقه بها سنن الله تعالى في خلقه، وكيف يكون التغيير، وكيف تكون مدافعة الباطل وأهله وأنصاره.

القِصَّةُ القرآنية تعلمنا أسباب قوتنا وارتقائنا، وتسمو بنا عن سفاسف الأحوال والأقوال والأفعال، وتعطينا معالم حقيقة الصراع بين أهل الخير وأهل الشر وما في ذلك من عبر وعظات، وتعطينا ما تريد بعبارات بديعة، وصور جميلة تبعث في النفس طمأنينة لا نظير لها، كما هو القرآن كله.

نزلت هذه السورة في أهل مكة الذين كان يعجبهم سماع عدوِّ الله النضرِ بنِ الحارث، وهو يقرأ لهم من أساطير الأولين من حكايات الفرس واليونان والرومان وغيرهم، فقد كان يفعل ذلك للتشويش على الوحي وهُدَاه.

نزلت في مكة بأسلوب يغلب عليه اللطف والرقة والأنس والرأفة، بخلاف أكثر الآيات المكية التي يغلب عليها التهديد والوعيد وذِكرُ أهوال اليوم الآخر.

نزلت في مكة قبل أن يختلط نبينا عليه الصلاة والسلام باليهود الذين كان عندهم علم بقصة نبي الله يوسف عليه السلام، فكان في بيانها قبل الهجرة إلى المدينة زيادة حُجةٍ على كل من سمع وعلم، فمن أين له صلى الله عليه وسلم أن يُحدِّث بتاريخ الأمم والأنبياء من قبله إلا إذا أُوحي إليه العزيز الخبير؟

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ١﴾

الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ الَّتِي فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ مِمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ معانيَها ودلالاتِها بِعِلْمِهِ، وهذا مرويٌ عنِ الخلفاءِ الأربعةِ وغيرِهم.

ويرى العُلماءُ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَها مَعْنى، ولكنّا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا، وَقُلْنَا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٧]؛ لأنَّه لَمْ يَصِحَّ فيها عن النبيِّ ﷺ شيءٌ.

ومن أهل العلم من قال: إنما ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، ووجه ذلك أن القرآن تركَّب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطب الناس بها، وقد أنزله الله تعالى على أهل العربية والفصاحة والبلاغة، وقد تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سُوَر أو بسورة واحدة، ولكنهم عجزوا عن ذلك ولا زالوا عاجزين، فكان في ذكر هذه الحروف في أوائل السورة إشارةً إلى عظمةِ كلامِ الله وإعجازِهِ، وأنَّه ليس من كلامِ البَشَرِ، وكأنها تقول: هذه نفس حروفكم أيها العرب فلماذا تعجزون عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بسورة منه؟

وَلِهَذَا نجدُ السُّور التي افْتُتِحَتْ بِالْحُرُوفِ المُقطَّعةِ قَدْ جَاءَ فيها الِانْتِصَارُ لِلْقُرْآنِ وَبَيَانُ إِعْجَازِهِ وَعَظَمَتِهِ، وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالِاسْتِقْرَاءِ، وَهُوَ الْوَاقِعُ فِي تِسْعٍ وَعِشْرِينَ سُورَةً.

ومن أمثلة مجيء الانتصار للقرآن بعد الحروف المقطعة قولُ الله تَعَالَى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البَقَرَة: ١-٢]، وقولُ اللهِ: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١-٣]، وقولُ الله: ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾ [الأَعْرَاف: ١-٢] وقولُ اللهِ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إِبْرَاهِيمَ: ١] وقولُه سبحانه: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فُصِّلَتْ: ١-٣]، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ مِن حِكمتِها بيانُ وقوعِ التحدي بها.

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ إليكم أيها الناس آياتٌ نزلت من عند الحكيم الخبير، وهي آياتُ القرآن التي لا يملك المتأمل فيها والمتدبر إلا أنْ يتبيَّن إعجازَها وعظمتَها، ويدرك أنَّ عظمتها من عظمة منزلها.

جاءت آيات كتاب الله واضحةً جليَّةً، وجاءت تبيِّن قصصًا لم يعرفها العرب من قبلُ، ولم يعرفوا تفاصيلها، وجاءت توضح لمن عَقَلها وفهِمَها ما تريده، وتُفسِّره وتُبيِّنه على الوجه الذي ترتاح له الأذن ويطمئن له القلب.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢﴾

اصطفى الله تعالى نبيَّ آخرِ الزمان محمدًا صلى الله عليه وسلم من العرب، وأرسله إلى العالمين جميعًا، وأنزل عليه القرآن الكريم باللغة العربية ليخاطب به كل الناس لعلهم يعقلون حقيقة خلقهم وغايتَه، ولعلهم يعقلون طريق سعادتهم وفلاحِهم في الدنيا والآخرة فتنقادُ جوارحهم إليه، ويطيعوه فيما أمر ونهى، ولعلهم يعقلون أن هذا الكلام لا يقوله إلا نبي أرسله الله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ولقائل أن يقول: ولماذا كان النبي عربيًّا ولم يكن من غيرهم من الأقوام؟ والجواب على ذلك يقع في ثلاثة أوجه أَذْكرها، ثم أذكر بعدها فائدةً نافعةً:

أولها: أن نقول: هذا أَمْرُ الله وقَدَرُه، ومن صدق في إيمانه بعِلْم الله وحِكْمته وَعَظمته أدرك أنه يُقَدِّر للخلق ما فيه نفعهم وسعادتهم، ولم يبق لسؤاله هذا وزن ولا ضرورة. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ **[الأنعام: ١٢٤]**.

وثانيها: أن الله تعالى أرسل في جميع الأمم أنبياء ورسلًا، أرسلهم بلغة أقوامهم ليتقبلوا ما جاء به النبي ويفهموه، ولمَّا أرادَ ربنا سبحانه أن يكون منطلق هذه الرسالة في العرب أرسل إليهم نبيًّا عربيًّا. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ **[سورة إبراهيم: ٤]**.

وقد كان أكثر الرسل والأنبياء في بني إسرائيل ومنهم، وهذه منة من الله وفضل عظيم عليهم كما بين القرآن بأن الله تعالى جَعَل فيهم أنبياء، وجعلهم ملوكًا، وفَضَّلهم على أهل زمانهم. وأهل التفسير استفرغوا جهدهم في معرفة الأنبياء من العرب، فكانوا خمسة على خلاف بينهم، والجمهور منهم على أنهم: هود وصالح وشعيب وإسماعيل ومحمد عليهم صلوات ربي وسلامه.

وثالث هذه الأجوبة: أنَّ الله تعالى قدَّر أن تكون النبوة في العرب ليكون أمرها أوضحَ وأكثر إعجازًا، فالعرب لم يكونوا وقتها أصحاب حضارات ولا علم ولا قوة، وكانت عندهم مكارم أخلاق وشهامة ومروءة افتقدتها كثير من الأمم حولهم، وكانت بيئتهم نقية صافية هادئة، فيها البيت الحرام والكعبة المشرفة التي كانوا يعظمونها، والتي تقع في الوسط بين تلك الحضارات، ولعلك تلمسُ في ذلك نداءً خفيًّا للعرب يقول لهم: أنتم أيها العرب نواة الأمة وطليعة الخير للبشرية، وقد اختاركم الله ليبدأ نور هداية الناس جميعًا من عندكم، فلا تتوقفوا يومًا عن نصرة الدين ونشره في العالمين، وإياكم والركونَ إلى الدينا وأهل الكفر والظلم فيها، واعلموا أن شعوب الإسلام تنظر إليكم نظرة المترقب لِعِزِّكم، وانتصاركم لدينكم وشريعتكم، واعتصامكم بالله العظيم.

أما الفائدة التي تزيد البيان بيانًا، فأقول فيها: تأملوا كيف أرسل الله تعالى نبيًّا معروفًا في نسبه معرفةً لا تجعل لطاعن مدخلًا في الانتقاص من قَدْره وقَدْر ما جاء به من العلم والفهم، إنه رسول الله إلى العرب والعجم، والإنس والجن، ﷺ. أخرج مسلم عن وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ رضي الله عنه، قالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ».

ومعلوم لديكم كيف أقام الإسلام للأنساب والأعراق وزنًا في الشريعة، وكيف بنى على ذلك عددًا من أحكامه وإرشاداته، وقليل من الأمم من يهتم بعلم النسب اهتمامَ العرب فيه.

انظروا كيف جاء اللعن في الشريعة لمن غَيَّر نسبه وادعى إلى غير أبيه، وانظروا كيف أقام لصلة الأرحام وزنًا عظيمًا في الشريعة، ومعلوم لديكم أن معرفة الأرحام إنما تكون عن طريق معرفة أصْلِ الرَّجُل وفَصْله، ثم انظروا كيف جعل لقرابة النسب أثرًا في دفع الدية، وفي النفقة، وأحكام الميراث، والولاية، واختيار الزوج، وغير ذلك من الأحكام.

صحيح أن الشريعة اقامت للأنساب وزنًا في منظومتها التشريعية الراقية، ولكنها جعلت الميزان في التفاضل بين الأمم قائمًا على الإيمان وتحقيق التقوى، ولم تجعل ميزان التفاضل بينهم قائمًا على اللون أو الجنس أو النسب والحسب، وهذه قاعدة عظيمة عليها مدار الفهم عن الله، فمن حصَّلَ التقوى رفع الله قدره على العالمين جميعًا، وكان أقرب لعون الله تعالى وحفظه، ومن فقدها كان عاقبةُ أمره خسرًا.

ولذلك رأينا المماليك في التاريخ الإسلامي يسودون وينتصرون، ويُجْري الله على أيديهم خيرًا كثيرًا، وكذا الحال مع العثمانيين الذي هم من غير العرب، وكذا الحال مع من رفع الله ذِكْره وقَدْره بيننا، وجعله قامة من قامات الإسلام التي قام الدين عليها كالإمام البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود وغيرهم من علماء المسلمين.

والمقصود: أَقْبِل على الدين يُقْبل عليك ويرفعك، وإلا كنت في أرذل القوم وإن كان نسبك ما كان، وقد أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ». أي: لا تتكلوا على شرف النسب وفضل الآباء ولكن اعملوا فإنه لا ينفع نسب بدون عمل.

ولقائل أن يقول: ولماذا كان القرآن عربيًّا ولم يكن بغيرها من اللغات؟ والجواب أن هذا السؤال سيبقى وإن نزل القرآن بأي لغة أخرى غيرِ العربية، كما أشار إلى ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤].

والناظر في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام يجدها نزلت على نبي عربي يعيش في بيئة عربية، فكان المقام موافقًا لنزوله بلغتهم، ولا يُعرف كتاب سماوي آخر نزل بلغة العرب.

ثم إن عَقْدَ مقارنة بين اللغة العربية وبين غيرها من اللغات التي لها كل التقدير والاحترام في شريعتنا، ولها دلالة على عظمة الخالق، أقول: إن هذه المقارنة تقودك إلى أن لغة القرآن تحوي ما لا يحوي غيرها من سَعَةٍ في جذورها اللغوية، ومن مرونتها وقدرتها على التصوير والتمثيل والإيجاز والإيضاح.

ولا تنسوا أن أوجه عظمة هذا القرآن لا تقتصر على نزوله بأشرف اللغات وعلى أشرف الرسل، ولكنه كذلك نزل به أشرف الملائكة، في أشرف بقاع الأرض مكةَ والمدينة، وابتدأ نزولُه في أشرف شهور السنة، فاكتملت في نزوله أوجه التعظيم والتكريم والرفعة.

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾

لفظة ﴿نَحْنُ﴾ تُستعمل في لغة العرب للتعظيم والتفخيم والإجلال، والله أحقُّ بذلك، وهذا كقول الله تعالى في الآية السابقة ﴿إِنَّآ﴾.

وصفت الآية ما جاء في الكتاب العزيز بأن فيه أحسنَ القصص في البيان والموعظة والتذكرة، فإنها أنزلت من عند خالقِ السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، العالمِ بما يصلح الناس ويجعل حياتهم على خير حال.

وهذا فيه إيذان بأن السورة تحوي قِصةً لا تجد مثلها في الكتب الأخرى، سواء أكانت مما أوحاه الله في الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل أم كانت من صنع البشر، وهي قصة أوحاها الله إلى نبيه بتفاصيلها ليعيش الناس معها ويتعلموا منها، وليعلموا أن النبي الأمِّيَّ الذي لا يقرأ ولا يكتب إنما هو عبدٌ لله أرسله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

يا أيها الناس: هذا كلام الله يقصُّ عليكم أخبار الأمم السالفة والقرون الماضية، فلا تظنوه من كلام البشر ومن أساطير الأولين، وعيشوا مع كلماته وحروفه وتدَبَّروه، واعْرِضوه على كل القصص من حولكم، هل تجدون له مثيلًا؟ قال الله تعالى: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

يا أهل القرآن: قد تجدون راحة في قِصَص أهل الدنيا ورواياتهم وحكاياتهم مما لا يخفى عليكم، وقد تجدون فيها بلاغة وحكمة، ولكنها ليست كراحة القرآن وأثره على النفس والبدن، ولا كبلاغة القرآن وإعجازه ونظْمِه وحكمته.

أخرج ابن حبان وأبو يعلى عن مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، قَالَ: «أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَتَلَا عَلَيْهِمْ زَمَانًا، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ قَصَصْتَ عَلَيْنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ فَتَلَاهَا عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَمَانًا» [الحديث].

﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ أي: كنت قبل نزول القرآن عليك لا تدري شيئًا من هذه القصص، ولا تعلم تفاصيلها ولا تفقه ما فيها حتى أكرمك الله وأُمَّتَك وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

لم يكن نبيُّنا ﷺ قارئًا ولا كاتبًا ولا شاعرًا، ولم يكن مؤرخًا أو راويًا، ولم يكن حافظًا لغير ما جاءه من الوحي، بل كان غافلًا عن كل ذلك، ولم يمتلئ قلبُه إلا بما نزل عليه من الوحي قرآنًا وسنة.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾

هنا بدأت قصتنا مع نبي الله يوسف عليه السلام، وهو النبيُّ ابنُ النبيِّ ابنِ النبيِّ ابنِ النبيِّ، فأبوه سيدنا يعقوب، وجده سيدنا إسحق، ووالدُ جدِّه هو أبو الأنبياء سيدنا إبراهيمُ عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه. أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ».

وهو نبي الله تعالى ورسوله إلى أهل مِصْرَ، كما دل على ذلك كلام مؤمن آل فرعون في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ۝٣٤﴾ [غافر: ٣٤].

يرى يوسف عليه السلام فيما يراه النائم أحدَ عشرَ كوكبًا من كواكب السماء يسجدون له السجود المعروف، ورأى معهم قمرين يفعلان ذلك، فقصَّ هذه الرؤيا على أبيه يعقوب عليه السلام لعله يجد عنده تعبيرًا لها.

كان يوسف وقت الرؤيا غلامًا، ولم يكن نبيًّا قد أُوحي إليه بالدعوة والبلاغ، وكان له أحد عشر أخًا، عشرة منهم أكبرُ منه كما قال المفسرون.

وانظروا في صراحة الابن مع أبيه وكيف يستنصحه في أمره وسِرِّه، وهذا يدلك على قوة العلاقة والثقة بينهما، وعلى المحبة الذي نسعى إلى إيجادها في بيوتنا جميعًا.

وسيأتي معنا تأويل هذه الرؤيا في دخول أبويه وجميع إخوته عليه، وسجودهم بين يديه بعد أن أصبح وزيرًا في مصر وبيده الأمر والنهي، وسنذكر هناك معنى السجود وما يتعلق به من أحكام، وذلك عند تفسير قول الله تعالى في السورة:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ﴾ [يُوسُف: ١٠٠].

هذه الرؤيا فيها مبشرات تخص سيدنا يوسف عليه السلام، فالشمس والقمر يدلان على موجودات شريفة، وسجودهما علامة على بلوغه شأنًا كبيرًا ودرجةً رفيعةً يحترمه الناس لأجلها ويعظمونه، وهذا ما جعل نبي الله يعقوب يرشده إلى إخفاء هذه الرؤيا كما في الآية الآتية.

وهذه الرؤيا فَهِم منها أهل العلم أن الله تعالى هيأ يوسف عليه السلام للنبوة من صغره، فإن من أسباب تهيئة العبد ليكون رسولًا ونبيًّا أن يرى الرؤيا فتقع كما رأى، وذلك كما حصل مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه البخاري ومسلم عن عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ورضي الله عنها، قَالَتْ: «كَانَ أَوَّلَ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ». ولقائل أن يقول: وهل للرؤيا مكانة في شريعتنا، وهل تُبنى عليها الأحكام والأفعال.

والجواب في نقاط سريعة مختصرة:

١- الأحلام والرؤى أمر واقع في حياة الناس ولا ينفك عنهم، وقد تعامل الشرع معها بواقعية وأعطاها أحكامها اللازمة، وجاءت فيه الآيات والأحاديث، وهذا ما فهمه كثير من أهل العلم الذين أفردوا في كتبهم أبوابًا كاملة تتكلم عن الرؤى والأحلام، كما فعل الإمام مالك في الموطأ، والإمام البخاري في صحيحه في كتاب التعبير، والإمام مسلم في صحيحه في باب الرؤيا، وغيرهم من الأئمة الكثير.

أخرج البخاري ومسلم عن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لِأَصْحَابِهِ: «هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤْيَا» قَالَ: فَيَقُصُّ عَلَيْهِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُصَّ».

ولكم أن تستحضروا ثمرة رؤية المشركين قليلين في غزوة بدر كما حصل في رؤيا النبيَ ﷺ في المنام كما ذَكَرَتْ سورة الأنفال، وكذلك رؤية سيدنا إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده التي ذَكَرَتْها سورة الصافات، ورؤية نبينا ﷺ أنه يدخل الكعبة التي ذَكَرَتْها سورة الفتح، بل إن سورة يوسف أبرزت الرؤيا في مواطن متعددة، فقد بدأت السورة برؤيا، وتوسطت برؤيا المَلِك، وانتهت بتحقيق رؤيا نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام.

٢- الفرق بين الرؤيا والحلم جاء فيما أخرجه البخاري عن أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ مِنَ اللَّهِ، وَالحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ». وهذا التفريق بينهما إنما هو من الشرع، وإلا ففي لغة العرب ما يدل على أنهما واحد في غالب أحوالهما.

٣- الذي يراه النائم في منامه قد يكون مُفرحًا وباعثًا للطمأنينة في النفس، وقد يكون مفزعًا ويُدْخل الحُزْن على النفس، والشرع في الحالين أعطى توجيهًا نفيسًا في ذلك لا أتجاوزه، وأنقله إليكم كما هو، فقد أخرج مسلم عَنْ أَبِي سَلَمَةَ رضي الله عنه، قَالَ: إِنْ كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا تُمْرِضُنِي (أي: تتعبني من شدة التفكير بها)، قَالَ: فَلَقِيتُ أَبَا قَتَادَةَ، فَقَالَ رضي الله عنه: وَأَنَا كُنْتُ لَأَرَى الرُّؤْيَا فَتُمْرِضُنِي، حَتَّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ، فَلَا يُحَدِّثْ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ». وفي روايةٍ لمسلم عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه: «وَلْيَتَحَوَّلْ عَنْ جَنْبِهِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ». وفي رواية أخرى عند مسلم: « فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ».

والحديث فيه فائدة مهمة لمن يخاف من الأحلام إذا رأى فيها ما يكره، فقد أَرْجَعه الشرع إلى ضرورة اليقين بالله والتوكل عليه، وليعلم أنها لن تضره إذا أخذ بسبب ذلك، وهو امتناعُه عن التحديث بها والحرصُ على كتمانها، فالغالب في هذه الحال نسيانها.

٤- ما أجمل استشعار الرائي بأن الرؤيا التي رآها في منامه جاءته من الله، وأنها علامة على خيريته عند الله وصدقِه في حديثه مع الناس، وأنها من بقايا النبوة التي جاء فيها ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الرُّؤْيَا الحَسَنَةُ مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ» (أي: لأن الأنبياء يُخْبِرون بما سيكون، وكذلك الرؤيا تدل على ما سيكون).

وأخرج البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يَقُولُ: «لَمْ يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إِلَّا المُبَشِّرَاتُ» قَالُوا: وَمَا المُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: «الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ».

وأخرج البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ تَكْذِبُ رُؤْيَا المُؤْمِنِ»[الحديث]، وعند أحمد وغير واحد من أصحاب السنن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ، لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ، وَأَصْدَقُهُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُهُمْ حَدِيثًا» [الحديث].

فالرؤيا يكرم الله تعالى بها فريقًا من الناس، ويُطْلعهم على أحوالٍ قبل اطِّلاع الناس عليها، ولذلك كان دوامُ تحقق الرؤيا في حياة أهل الصلاح علامة على طهارة نفوسهم وارتقائها عن سفاسف الأمور، وفيها من الأنس ما يعلمه القاصي والداني، فلا يمر بصاحب الرؤيا الصادقة ضائقة ولا أمر صعب إلا تذكر فضل الله عليه بذلك، وجدَّ في الاستعانة به والصبر.

٥- قال أهل العلم: الرؤيا تكون للأنبياء، وتكون للصالحين، وتكون كذلك للمستور حالهم.

قلت: وقد يهب الله الرؤيا لمن فسد حاله، ويريه في منامه ما يُسبب له فزعًا لعله يرجع إلى الاستقامة، ويتوب إلى الله من طريق أهل السوء ومما اقترفته جوارحه، وهذا أمر معلوم ومشهود، وهو ما عناه أهل العلم لما ذكروا أن الرؤيا قد تكون بشارة، وقد تكون معاتبة، وقد تكون نذارة.

ونصيحة أخص بها من اصطفاه الله بذلك، نصيحة أشار إليها الإمام أحمد بقوله: الرؤيا تَسُرُّ المؤمن ولا تغرُّه. أي: من علامات الإيمان الصادق ألا يغتر صاحبه بصدق رؤياه في منامه، فإن الحيَّ لا يُؤمن عليه من الفتن، واسألوا الله من فضله، واسألوه الثبات حتى الممات.

٦- هنا تنبيه أوجهه إلى الذين يعطون الرؤى والأحلام حجمًا يكبرها بكثير، أقول فيه: إن الرؤى والأحلام ليست مدارَ حياتنا، ولا تُبْنى عليها الأحكام الشرعية والعقائد، ولكنها علامة من علامات التبشير بالخير والتحذير من الشر، أو علامة على لعب الشيطان بالعبد، وقد يكون حديث نفس أشغل صاحبه طوال يومه فرآه في منامه، فلا ينطلق المرء الموفق في قراراته المصيرية منها، ولا يعوِّل عليها في تدبيره لأمره، ولا يربطها بركعتَي الاستخارة كما يظن البعض.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ» **[الحديث]**.

وأخرج مسلم عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ جَاءَهُ فَقَالَ: إِنِّي حَلَمْتُ أَنَّ رَأْسِي قُطِعَ فَأَنَا أَتَّبِعُهُ، فَزَجَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ: «لَا تُخْبِرْ بِتَلَعُّبِ الشَّيْطَانِ بِكَ فِي الْمَنَامِ».

وكذلك، لا تغتروا بصنف من الناس يتخذ الرؤيا طريقًا ليتربَّع في قلوب الآخرين، فيعمدُ إلى الكذب فيها، وإلى اختلاق ما لم يره في المنام ليَظْهرَ أمام مستمعيه بمظهر الصلاح، وليظفرَ بثنائهم عليه وقيامهم على حاجاته. أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بَيْنَ شَعِيرَتَيْنِ، وَلَنْ يَفْعَلَ». وفي رواية: «مَنْ تَحَلَّمَ كَاذِبًا دُفِعَ إِلَيْهِ شَعِيرَةٌ وَعُذِّبَ حَتَّى يَعْقِدَ بَيْنَ طَرَفَيْهَا». [الحديث]. أي: سيبقى العذاب عليه يوم القيامة حتى يعقد بين الشعيرتين ولن يقدر على ذلك، ولعل شدة عقوبته وطولَها إنما كان لافترائه في الرؤيا على الله، والرؤيا جزء من أجزاء النبوة، فكيف بمن يفتري على النبوة كلها.

٧- لقد أصبحت الأحلام والرؤى في حياة صنف من الناس شغلهم الشاغل، فلا يرون شيئًا في المنام إلا ويبحثون له عن تأويل عند من يعرفون ومن ينكرون.

أخرج أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم عن أَبِي رَزِينٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ، مَا لَمْ تُعَبَّرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ». وفي رواية: «لَا يَقُصُّهَا إِلَّا عَلَى وَادٍّ (أي: مُحبٍّ)، أَوْ ذِي رَأْيٍ». وفي رواية: «وَلاَ يُحَدِّثُ بِهَا إِلاَّ لَبِيبًا أَوْ حَبِيبًا». وهذا الحديث فيه تحذير لمن يريد تأويل رؤياه بأن يتحرى في ذلك لئلا يقع مع جاهل أو قليل دين فيُعَبِّرَها له على نحوٍ يسوؤه ويضرُّه.

والقاعدة الصحيحة في ذلك أن الحلم المزعج من الشيطان وإن تكرر، وقد تقدم معنا إرشاد نبينا عليه الصلاة والسلام في ذلك، وأن الرؤيا يغلب عليها أنها تسرُّ الرائي، فإذا رآها حدَّثَ بها من يثقُ بدينه وعِلْمِه، فإنه إما أن يُعَبِّرها بما يحبه الرائي، أو يسكت عن تعبيرها وتفسيرها لمكروه يظنه في الرؤيا.

واحذروا من المسارعة في تفسير الحلم والرؤيا بحسب ما هو موجود في كتب تفسير الأحلام، فإن تعبيرهما له تَعَلُّقٌ بالزمان وبالمكان وبالأشخاص وأحوالهم، وغير ذلك مما يؤثر في تفسيرها، وقد تصدَّرَ لذلك أقوام ضعف إيمانهم وبحثوا عن الشهرة فقط مع قلة علمهم بالتأويل، والله المستعان.

والذي يُعبر الرؤى لا بد أن يتسلح بالعلم في ذلك، مع ملكةٍ راسخة يجدها في نفسه وبصيرةٍ بأحوال الناس وطبائعهم، مع ضرورة أن يكون مؤتمنًا على ما يقولون، وينوي نية طيبة تقوم على نفعهم.

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾

فَهِم سيدنا يعقوب عليه السلام من الرؤيا أن هذا الغلام سيكون له شأنٌ عظيمٌ، وأنه سيرتقي في مرتبة يتمناها الناس، وسيرتفع في الدنيا في المنازل العليا بتوفيق من الله تعالى وحفظ.

يعقوب عليه السلام نبي يُوحَى إليه من الله تعالى، وعنده من العلم الكثير، وهو صاحب دراية بأحوال الناس وطرائق تفكيرهم، ويعلم حال القلوب التي يراقب أصحابها غيرَهم ممن يتقدم في حياته ويرتقي، كما قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]

وهذا الخطاب الذي قاله سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام له ظلاله التي لا تخفى على من تدبَّر، فمن ظلاله أنهم أهل فهم وعلم بالرؤى، وأن الغَيْرة كانت موجودة عند إخوة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام وأن أباهم كان يعلمها فيهم، وأن هذه الغَيْرة ليست وليدة اللحظة بل هي قديمة، وأن أولاده لو سمعوا الرؤيا التي فيها رفعة أخيهم عليهم فإن هذه الغَيْرة ربما تشتعلُ في قلوبهم، ويكونُ لها عواقب غير محمودة.

خشيَ سيدنا يعقوب على يوسف عليهما السلام من أن يكيد له إخوته، ويدبروا له في الخفاء ما يشفي صدورهم منه، فأراد أن يحتاط له.

والعجيب في هذه الخشية أنها كانت من أقرب الناس إلى يوسف عليه السلام، فقد كانت من إخوته الذين دخل إلى قلوبهم ما دخل مما رأوه من حال هذا الولد، مع أن رابطة الأخوة إنما هي رابطة التناصر والتعاضد والتكاثف، والأصل في الأخ أن يفرح لأخيه ويأنس بنجاحاته، ولكن عداوة الشيطان للإنسان تأبى ذلك، وقد نجحت في مواطن متعددة في التحريش بين الإخوة والإيقاع بينهم.

والكيد الذي قد يقع من إخوانه يقوم على تدبير أمر يُسقطه فلا يقوم، وتدبير حيلة تُتْعبه فلا يرتاح، وتُفْقره فلا يغنى.

والمتأمل للنصح والإرشاد هنا يلمس كمال حب الوالد لولده وشفقته عليه، فهو يخاطبه بصيغة التصغير بقوله ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، وهي لفظة تدل على كمال عنايته بنُصْحه وتوجيهه والحرص عليه.

طَلَبَ من ولده أن يكتم رؤياه ولا يقصها على إخوته، مُعَلِّلًا ذلك بأن الشيطان له مدخل عظيم في هذا الباب، وأنه يكيد بألوان من الكيد حتى يُوقع الشحناء والبغضاء والعداوة، وحتى يُحدث في قلب من يستطرد معه غَيْرة مَرَضَيَّةً تقوده إلى الحقد، ثم إلى داء الحسد، ثم إلى الرغبة في الانتقام، فكان إرشادُ سيدنا يعقوب عليه السلام لإغلاق باب الوقوع في التحاسد بين الإخوة الذي لا ندري إلى أين ينتهي.

وظاهر القصة أن يوسف عليه السلام استجاب لأمر والده فلم يخبر إخوانه بالرؤيا؛ فهو غلام صالح لا يتجاوز أمر أبيه، وإن كانت هذه الأمور في البيوت والعوائل قد تصل بطريقة أو بأخرى إلى من حولهم.

والناظر في سيرة أبناء سيدنا يعقوبَ عليه السلام هنا في السورة يجد أنهم لم يكونوا على قدر عظيم من الشَّرِّ والسوء، حتى إن بعض العلماء ذهب إلى أنهم هم الأسباط الذين ذَكَرهم القرآن وأمرنا بأن نؤمن بنبوتهم وبما أُنْزل عليهم، وخالفهم في ذلك جمهور أهل العلم فذهبوا إلى أن النبوة لم تكن فيهم وإنما كانت في ذريتهم التي هي ذرية سيدنا يعقوب عليه السلام.

ولعل توجيه نبي الله يعقوب هنا لولده يعطينا تفسيرًا لما أرشدنا إليه نبينا صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالرؤيا الصالحة، فقد عَلَّمنا أن نحتاط لها، ولا نقصَّها إلا على من نثق بعلمه ودينه.

وهذا التوجيه يعطينا تفسيرًا كذلك لما جاء في الحديث الذي أخرجه الطبراني بسند ضَعَّفه كثير من أهل العلم، ووصفه آخرون بأنه موضوع، ومنهم من جوَّد إسناده، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان فإن كل ذي نعمة محسود».

ولقائل أن يقول: كيف أكتم أمرًا من أموري التي أُحبُّها وربنا يقول في محكم التنزيل: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١]؟

والجواب أن الكتمان يكون حال إعدادِك للأمر وتخطيطِك له، ويبقى ذلك معك حتى تنجزَه على الوجه الذي تُحب، فإذا حصل النجاح تَحَدَّثت بنعمة الله عليك بعد شكره عليها، وتَذَكَّرت فضله عليك وذَكَرْته إلا إذا خشيت على إنجازك هذا من حاسد، أو خشيت حصول العُجْب، ونسيانَ فضل الله عليك ونسبتَه إلى نفسك.

ولا تظنوا أن التحديث بنعمة الله يكون عن طريق ذِكْر تفاصيل نعم الله الدينية والدنيوية، وإشاعة ما عنده على الملأ، ولكنه تحديث بقَدْره ومراعاته للحال والمآل، ويكون فيه نفعٌ للقائل والمستمع، فالنفع للقائل يكون بإعانة نفسه على البذل والعطاء ودوام العمل، بخلاف أهل البخل والشح الذين يحرصون على كثرة التَّذَمُّر والشكوى وكتمان كل شيء ليعذرهم الناس على عدم عطائهم.

أما النفع الذي يلحق المستمع فهو تذكيره بكثرة نعم الله التي يتحَبَّبُ فيها إلى عباده، وليبعث التفاؤل والرغبة في العمل والعطاء، ولينشر التيسير والتبشير في المجتمع الذي يكثر فيه المُخَذِّلون والمُحْبطون.

ولقائل أن يقول: أليس في تحذير الأخ من إخوته إيقاعٌ للعداوة بينهم وزيادةٌ للشحناء والبغضاء والكراهية؟ والجواب أن هذا إنما يكون حال ظهور المحبة والتواد والتقدير بين الجميع، ولكن إذا ظهرت نزعة الشر من أحدهم وغلب على الظن حصول الشر منه فإنه يلزم التحذير والتوجيه، ثم إن هذا التوجيه إنما هو للولد الطيب الصالح، صاحب العقل الكبير والسريرة الطيبة والخلق الرفيع، ومثله لا يُخشى منه ولكن يُخشى عليه.

وهذه الصفات في سيدنا يوسف عرفها النبي الأب عليه الصلاة والسلام، وظهرت في حياة ابنه في مواقف متعددة، وستظهر معه في مواقف أخرى قادمةٍ كما سيأتي معنا في قوله لإخوته بعد زمن: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [سُورَة يُوسُف: ٩٠]، وقوله: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [سُورَة يُوسُف:٩٢].

والتحاسد الذي خشيه نبيُّ الله يعقوب عليه السلام أمر جاءت الشريعة بإثباته وبيانه، وأرشدت إلى فقه التعامل معه، وهو ما سأبينه في النقاط الآتية:

١- الحاسد هو من يتمنى زوال النعمة عن غيره ولحوقَ الشَّرِّ به، وقد لا يتوقف أمره عند التمني، بل يعمل على إيقاع الضُّرِّ بالمحسود، والافتراء عليه وإيذائه.

والحاسد يعيش ألوانًا من المشاعر والأحاسيس المُتْعِبة له ولمن حوله، فهو يتطلع دومًا إلى إنعام الله تعالى على الآخرين، ويراقب تفاصيل حياتهم، ويديم التفكير في زوال هذه النعمة عنهم وإن لم يحصل عليها، ومنهم من يريدها لنفسه لا لغيره.

ومن عجائب الحسد أن الحاسد يكره راحةَ غيره وسعادتَه، مع أنه لا ضرر عليه بذلك، ولكنه قبحُ النفس وسوءُ ما تضمره وتخبئُه.

وزيادة في البيان أقول: ليست المشكلة في الحاسد أنه يتمنى أن يؤتيَه الله تعالى مثلما أعطى غيره من المال والزوج والولد والصحة، فحبُّنا لذلك مِمَّا فطرنا عليه وغلب علينا، وهو ما يسميه أهل العلم الغبطة، ولكن المشكلة أن تَمَنِّيَه قائم على رغبته في زوال النعمة عمن يراقبهم أو في الإساءة إليهم، وبهذا تفترق الغبطة عن الحسد.

والغبطة درجة من درجات الحسد التي لا تدخل في التحريم؛ لأنها تقتصر على تمني نعم الله تعالى التي رآها على غيره، والتي قد تكون في أمور الآخرة وفي باب الخيرات والصالحات، كما أشار إلى ذلك الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «لاَ حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وانتبهوا إلى أن ثمة صنفًا من أهل الغبطة يُمضي وقتَه فيها، ولا يسعى في تحصيل الخير لنفسه، ولا يأخذ بالأسباب ليكون مِثْل أولئك الذين يغبطهم، وهذا النوع من الغبطة علامة على العجز والكسل إن كان صاحبُها قادرًا على تحصيل ما يتمنى، ولعل ذلك يقع في دائرة الذَّمِّ واللَّومِ فتأملوا.

وانتبهوا إلى أن حصول المنافسة في أمور الدنيا والآخرة لا يلزم منه الحسد، بل هو مندوب إليه فيما يُرْضي الله إن كانت بنية صالحة، وهو مشروع في أمور الدنيا مع الحذر من دخول الحسد وأمراض النفوس في هذه المنافسة.

٢- حَسَدُ الناس على ما آتاهم الله من فضله يحرم شرعًا، وصاحبه واقع في الإثم والمعصية، ولا يخفى عليكم أن فعله هذا فيه سوء أدب مع الله تعالى، فكأنه لم يرضَ بقسمة الله له في هذه الحياة الدنيا، وكأنه يعترض على حكم الله فيه وله، وكأنه يَزْدري نعمة الله عليه ويعتقد أنها لا تليق به. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا».

٣- الحسد له أسبابه التي لا تخفى عليكم، منها: العداوة للغير وشدةُ الكُرْه له، وكذلك الشعور بأنه الأفضل والأجدر بالنعمة، ومنها حب التسلط والثناء ورغبته بألا يكونا إلا له، وغيرُ ذلك.

والحاسد يقلل من إبداعك، وينظر دومًا إلى جانب النقص فيك وفي كلامك وفعلك، ولا يهنئك بنجاح إلا استثناءً، وقد يصدر منه سلوكيات غريبة لا تفسير لها.

٤- الحسد داء عظيم يفتك بقلب صاحبه، ويُحدث السوء في الأهل والقرابة والمجتمع، وقد بلغ من شدة فتكه بالقلوب أنه منع إبليس من السجود لآدم عليه السلام، وصرف اليهود عن الإيمان بنبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حسدًا له على مَا رَزَقَهُ اللَّهُ مِنَ النُّبُوَّةِ، وحسدًا للعرب الذين جعل الله خاتمة النبوة فيهم ولم يجعلها في بني إسرائيل، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾﴾ **[البقرة: ١٠٩].**

والحسد هو الذي جعل الأخ يقتل أخاه ويفتح على البشرية بابَ شرٍّ بذلك، كما في قصة ولدَي آدم عليه السلام في سورة المائدة، وهو الذي دفع إخوة يوسف عليه السلام للتفكير بقتله ثم رميه في الجُبِّ.

ولذلك جاء التحذير منه في الحديث الذي أخرجه أحمد والترمذي بسند حسَّنه غير واحد من أهل العلم، عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ: الْحَسَدُ، وَالْبَغْضَاءُ، وَالْبَغْضَاءُ هِيَ: الْحَالِقَةُ، حَالِقَةُ الدِّينِ لَا حَالِقَةُ الشَّعَرِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَفَلا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ، أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ».

٥- الحسد قد يقع بين القرابة، وبين الأقران في العمل والشهادة، فإذا رأى الحاسد واحدًا منهم قد أعطاه الله مالًا أو ولدًا أو منصِبًا، أو أعطاه جمالًا، أو زينة من زينة الدنيا، تحرك ما في نفسه، ووجد في قلبه ألمًا يجعله يعيش حياة الشقاء التي يملؤها الهم والغم.

٦- والتحاسد موجود كذلك بين أهل العلم وبين أهل القرآن وبين الدعاة أنفسهم، وقد ترى داعية إلى الله تعالى أو طالب علم يبرز نَجْمُه فيتحرك في قلوب الآخرين شيء لا يملكونه، ولكنه يظهر على فلتات لسانهم وفي حركاتهم. وكم أسقط دعاةٌ دعاةً، وعلماءُ علماءَ، وخاض كثير من المسلمين في أعراض إخوانهم ودمائهم بسبب الحسد.

ونوصي الداعية أن يدفع ما نفوسهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا، وذلك بالإحسان إليهم وإشراكهم في شيء من نجاحه، وألا يتكلم كثيرًا عن نعم الله عليه أمامهم ولا يتفاخر بشيء، وليمض في طريقه لأنه يتعامل مع خالق ولا يرجو من دعوته إلى أن يرضى الله عنه، ونوصيه كذلك بألا يراقب أقوالهم وأفعالهم في ذلك فهذه علامة من علامات اختلاط نيته عليه.

٧- الحسد بالعين نوع من أنواع الحسد، وهو أخص منه وربما يكون أكثرَ ضررًا، وهو الذي جاء فيه ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «العَيْنُ حَقٌّ». أي: الإصابة بالعين ثابتة موجودة ولها تأثير على الغير بإذن الله وقَدَره ومشيئته، فالعين قد تكون سببًا في وفاة أحدهم، أو قعوده عن الحركة، أو هدم سور، أو موت حيوان أو شجرة، أو غير ذلك من الضرر، كما هو الحال في أثر الحسد عمومًا.

والعائـن يحمـل خُبثًـا فـي نفسـه وطَبْعـه، وتتوجـه هـذه النفـس بـإرادة السـوء عنـد رؤيـة العيـن لشـيء مـا، فتقدح بالشـر، سـواء أكان الـذي رآه إنسـانًا أم حيوانًـا أم زرْعًـا أم مـالًا، بـل قـد يـؤذي بعَيْنـه نفسـه وولـده ومالـه، فالعائـن لا يـؤذي إلا مـا رآه بخـلاف الحاسـد الـذي قـد يحسـد مـن هـو أمامـه ويـراه، وقـد يحسـد مـا لـم يـره ولا يكـون موجـودًا أمامـه.

وملخـص مـا يحصـل مـع العائـن أنـه يـرى شـيئًا يستحسـنه ويسـتعظمه ويعجبـه كثيـرًا، ثـم يُحـدِّقُ بـه ولا يدعـو بالبركـة، ولا يذكـر اسـم الله تعالـى.

وهـذا بخـلاف الحاسـد الـذي يكـون سـبب حسـده أنـه يبغـض المحسـود، ويسـتكثر النعمـة عليـه، ويتحـرق قلبـه لذلـك، ويـرى أنـه أحـق بهـا، ويتمنـى زوالهـا.

وقـد قـال أهـل العلـم: مـن تعمـد إصابـة النـاس بعينـه، وسـار فيهـم وخوَّفهـم فينبغـي التَّحَـرُّز منـه واجتنابُـه، ووجـب علـى الإمـام أن يصرفَـه عـن مخالطـة غيـره، وأن يُبْقِيَـه فـي بيتـه ويعطيَـه مـا يحتاجـه فـي معاشـه إن كان فقيـرًا حتـى يتـوب إلـى الله تعالـى توبـة صادقـة يظهـر أثرهـا.

وقـال غيـر واحـد مـن أهـل العلـم: إذا ثبـت أن العائـن تعمـد أن يوقـع الضـرر بغيـره فإنـه يجـب عليـه أن يضمـن أي ضـرر أوقعـه علـى غيـره.

واختلـف أهـل العلـم فـي مسـألة القصـاص منـه إذا قتـل غيـره بالعيـن مختـارًا واعتـرف بذلـك، فمنهـم مـن ذهـب إلـى القصـاص كبعـض المالكيـة والحنابلـة، ومنهـم مـن منعـه كالشـافعية.

٨- ولقائـل أن يقـول: وكيـف يؤثـر الحاسـد والعائـن فـي غيرهمـا مـع أن النفـع والضـر لا يكـون إلا بيـد الله تعالـى وحـده؟ والجـواب أن كل نفـع أو ضـر فـي هـذه الدينـا إنمـا هـو بأمـر الله ومشـيئته، وقـد جعـل الله تعالـى لذلـك أسـبابًا، والحسـد واحـد مـن أسـباب الضـر كمـا جعـل النـار تحـرق والرصاصـة تقتـل، وكمـا جعـل الكائنـات البكتيريـة التـي لا تُـرى بالمجهـر سـببًا مـن أسـباب المـرض، والأمثلـة علـى ذلـك لا حصـر لهـا.

فتأثيـر الحسـد والعيـن ثابـت شـرعًا، ولا يخـرج عـن علـم الله وقَدَره، وقـد جعلهمـا الله تعالـى سـببًا مـن أسـباب البـلاء كمـا جعـل غيرهمـا.

قال الله تعالى عن أهل السحر: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]. وقال سبحانه عن سابق علمه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

وأخرج مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجه أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ عُمَيْسٍ رضي الله عنها، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ وَلَدَ جَعْفَرٍ تُسْرِعُ إِلَيْهِمُ الْعَيْنُ أَفَأَسْتَرْقِي لَهُمْ؟ (يعني: هل أطلب من يقرأ عليهم الرقية الشرعية) فَقَالَ: «نَعَمْ، فَإِنَّهُ لَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ».

والمقصود من ذلك بيان قوة ضرر الإصابة بالعين، بحيث لو كان هناك ما يكون على خلاف قَدَر الله لكان العين، ويدل كذلك على أن الإصابة بالعين إنما تكون بقدر الله وعلمه، وأنها نوع بلاء يحتاج إلى صبر ومدافعة كما هو حال كُلِّ خَيْر وشرٍّ في هذه الدنيا.

ولا تظنوا أن الحاسد يملك أن يصيب بالعين في كل وقت يريده، بل قد يسعى في ذلك ولا يقدر، لأن المقصود بالحسد يكون قد حصَّن نفسه بالذِّكْر والقرآن والدعاء، أو لأن الله تعالى أراد أن يرد كيده، ومنهم من لا يتعمد الإصابة بعينه ولكنها تقع منه بغير قصد الضرر.

٩- إليكم قواعد في التعامل مع الحاسد والعائن، سواء عرفناهما أم لم نعرفهما، أسوقها بأدلتها وفقهها، وأبدأها بضرورة تحصين النفس بالاستعاذة بالله تعالى من شر حاسد إذا حسد، ومن شر كيده إذا فعل، وكذلك تحصين النفس بذكر الله تعالى في الصباح والمساء وعند النوم، وهذا من الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى.

أخرج البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكُمَا (يقصد سيدنا إبراهيم) كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ (ما يؤذي من دواب الأرض)، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لاَمَّةٍ». والعين اللامَّة هي التي تصيب المعيون بالسوء والشر.

وأخرج الترمذي والنسائي وابن ماجه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجَانِّ وَعَيْنِ الإِنْسَانِ حَتَّى نَزَلَتِ المُعَوِّذَتَانِ، فَلَمَّا نَزَلَتَا أَخَذَ بِهِمَا وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا».

١٠- ومن القواعد المهمة في ذلك أن تملأ قلبك باليقين والتوكل على الله، وألا تعيش الأوهام كثيرًا وتكثر الخوف من المجهول، فهذه عادة لا تليق بأهل الله الذين عرفوه وعظَّموه وعبدوه، وحَرَصوا على مرضاته، واشتاقوا للقائه والفوز بجنته.

أهل الله يعلمون أنه سبحانه حافظُهم ومتوكلٌ بأمرهم، وأنه إذا أصابهم شيء من هذا البلاء فإنما أصابهم ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، ويعلمون أن هذا النوع من البلاء كفارة لهم ورفعة لدرجاتهم عند الله تعالى إذا رَضُوا بما قدَّرَ خالقهم، وصبروا واحتسبوا، وإذا راقبوا أقوالهم وأفعالهم.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة: ٥١]، وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، أَنَّهُ رَكِبَ خَلْفَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا غُلَامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ».

١١- فإذا حصل البلاء بشيء من هذا فلا نستعجل بتوجيه التهمة لمن حولنا، ولنحرص على التأكد من حصوله بالطرائق المعتبرة، فإن الحسد والعين لهما أمارات وعلامات يعرفها أهل التخصص والدُّربة في ذلك.

وهنا يُحْذَرُ من عمل الشياطين الذين يوقعون الشحناء والبغضاء بالكذب والتخييل، واتهام البريء وتبرئة الحاسد.

أقول ذلك لأن عددًا ممن أصابهم بلاء في أبدانهم، أو ضُيِّق عليهم في أمر رزقهم أو زواجهم أو عيالهم أو غير ذلك، يسارع في نسبة ذلك للحسد، وتدخل الوسوسة إلى قلبه ويبالغ في ذلك حتى يصبحَ هذا حديثَه في مجالسه صباحه ومساءه، ويربطَ كل ما يجري حوله بالحسد، ويتسللَ الوهم والقلق والضعف إلى عقله وقلبه. بل تجد قومًا ممن حولنا يُعَلقون سقوطهم وكسلهم وقلة حيلتهم بالحسد والعين، بل قد يستدرجهم الشيطان فيمرضُهُم وما بهم مرض، ويُقْعدهم عن نفع أنفسهم وأهليهم ودينهم وما بهم من شيء.

١٢- وفي فقه التعامل مع هذا البلاء أقول: إذا عُرف الحاسد أو العائن بإقراره أو باشتهار أمره، فإننا نطلب منه أن يغتسل أو أن يتوضأ ويغسلَ أطراف يديه ورجليه وركبتيه، ونطلبُ منه كذلك غسل شيء من ثيابه التي يلبسها، ثم نأتي بالماء الذي استعمله ونجمعَه ونصبَّه على رأس الشخص المَعِين من خلفه.

أخرج أحمد وابن ماجه والنسائي وغيرهم، واللفظ لأحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ بْنِ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ، أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَسَلَّمَ خَرَجَ، وَسَارُوا مَعَهُ نَحْوَ مَكَّةَ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِشِعْبِ الْخَزَّارِ مِنَ الْجُحْفَةِ (مكان فيه ماء يغتسلون فيه)، اغْتَسَلَ سَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ وَكَانَ رَجُلًا أَبْيَضَ، حَسَنَ الْجِسْمِ وَالْجِلْدِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ وَهُوَ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ، وَلَا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ (أي: لم أر من قبل جلد بنت عذراء مخفية لا يراها أحد)، فَلُبِطَ بِسَهْلٍ (أي: صُرع ومَرض وارتمى مكانه. وفي رواية: فَوعِكَ سَهْلٌ مَكَانَهُ فَاشْتَدَّ وَعْكُهُ)، فَأُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لَكَ فِي سَهْلٍ؟ وَاللهِ مَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ، وَمَا يُفِيقُ، قَالَ: «هَلْ تَتَّهِمُونَ فِيهِ مِنْ أَحَدٍ؟ « قَالُوا: نَظَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ، فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَامِرًا، فَتَغَيَّظَ عَلَيْهِ وَقَالَ: «عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ؟ هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ (أي: دعوت بالبركة)؟» ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اغْتَسِلْ لَهُ» فَغَسَلَ وَجْهَهُ، وَيَدَيْهِ، وَمِرْفَقَيْهِ، وَرُكْبَتَيْهِ، وَأَطْرَافَ رِجْلَيْهِ، وَدَاخِلَةَ إِزَارِهِ فِي قَدَحٍ (أي: شيئًا من ملابسه ووضع جميع الماء في قدح)، ثُمَّ صُبَّ ذَلِكَ الْمَاءُ عَلَيْهِ، يَصُبُّهُ رَجُلٌ عَلَى رَأْسِهِ، وَظَهْرِهِ مِنْ خَلْفِهِ، يُكْفِئُ الْقَدَحَ وَرَاءَهُ، فَفَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، فَرَاحَ سَهْلٌ مَعَ النَّاسِ لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ». وأخرج أبو داود والبيهقي عَنْ عَائِشَةَ ﵂، قَالَتْ: «كَانَ يُؤْمَرُ الْعَائِنُ فَيَتَوَضَّأُ، ثُمَّ يَغْتَسِلُ مِنْهُ الْمَعِينُ».

ولقائل أن يقول: وهل كانت الإصابة بالعين موجودةً زمن النبي ﷺ ؟ وهل يمكن أن تصدر من صحابي؟

والجواب أن الإصابة بالعين أمر قَدَرِيٌّ موجود في كل الأمم والحضارات، وتجدون في كل أمة من يُحذِّر منها ويُرْشد فيها، وصدورها من صحابي أمر متوقع وإن كان ممن شارك في غزوة بدر كالصحابي الجليل عامر بن ربيعة رضي الله عنه، وتعليل ذلك أنه ليس كل من يصيب بالعين يُحِبُّ ذلك ويفرحُ به، ولكنْ هناك صنفٌ من الناس يُبتلى بهذا الأمر ويعيش معه، ويصبح جزءًا منه ولا يستطيع أن ينفك عنه مع دوام محاولته، فنجد عينه تؤذي في لحظة ما مع أنه لا يحب أن يفعل، وهذا بالنسبة لهم بلاء ويتأذون منه، ويحتاج منهم إلى مجاهدة واستعانة بالله وسعي في العلاج كما هو البلاء بالمال والصحة والولد، ويحتاج إلى عناية منهم بدوام التبريك والدعاء لمن يرونه، نسأل الله العافية.

١٣- وقد نطلب الرقية ممن وثقنا بعلمه ودينه، كما دل على ذلك ما تقدم معنا من قصة ولد جعفر رضي الله عنهم، وما أخرجه أحمد وأصحاب السنن عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لاَ رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ» (وهو سُمُّ العقرب).

وأخرج البخاري عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﵂، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى فِي بَيْتِهَا جَارِيَةً فِي وَجْهِهَا سَفْعَةٌ (أي: تغير لون وجهها إلى الصفار أو الشحوب)، فَقَالَ: «اسْتَرْقُوا لَهَا، فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ». أي: أصابتها نظرة عين وحاسد.

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه، أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيْتَ؟ فَقَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: «بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ».

والرقية الشرعية تكون بقراءة القرآن والأدعية المعروفة بلغة واضحة، واعتماد وتوكل على الله، مع استحضار الراقي والمرقي بأن الشفاء بيد الله وحده.

وقد جاء في قصة سهل بن حنيف رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم ضَرَبَ صَدْرَهُ وَقَالَ: «بِاسْمِ اللهِ، اللهُمَّ أَذْهِبْ حَرَّهَا وَبَرْدَهَا وَوَصَبَهَا، قُمْ بِإِذْنِ اللهِ» كما في رواية عند أحمد والنسائي.

ولا يفوتكم أن كثيرًا من أهل الكذب والافتراء زعموا أنهم يرقون من الحسد والعين، وأن رُقْيتهم مبنيةٌ على الشرع، وتراهم يستغلون حاجة المحسود وحالته النفسية ويُلَبِّسون عليه فيما يقولون ويفعلون، ولمثلهم: وجب الاحتياط في ذلك والتحقق من علمهم وتقواهم.

١٤- وهنا وصية للعائن والحاسد يحسن ذكرها في المقام،أقول فيها:احرص على استحضار فضل الله عليك وكثرة نعمه، واحرص على أن تحب الخير لمن حولك، ولا تراقب الناس في تفاصيل حياتهم وأحوالهم، واسمع إلى نداء الله للعالمين الذي قال فيه سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢].

وداوم على قول ما شاء الله لا قوة إلا بالله، والدعاء بالبركة للغير كلما رأيت ما يعجبك من جمال أو مال أو صحة أو قوة، كما علمنا صلى الله عليه وسلم في قصة سهل وعامر رضي الله عنهما.

ثم إذا طُلب منك أيها العائن أن تتوضأ فتوضأ ولا تأخذك العزة بالإثم، لعل ماء وضوئك يكون سببًا في شفاء من أصَبْتَه بالعين، وذلك امتثالًا لأمر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس الذي مرَّ معنا: «الْعَيْنُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابَقَ الْقَدَرَ سَبَقَتْهُ الْعَيْنُ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا».

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. هذا ختام الآية هنا، وكأن سيدنا يعقوب عليه الصلاة والسلام يريد أن يُعلِّم ولده أن ما يدور في نفوس إخوانه إنما هو من عمل الشيطان وَنَزْغه، وأن هذا العدوَّ لا يفتر ليلًا ولا نهارًا عن التحريش بين الناس عمومًا وبين القرابة خصوصاً، وأن عداوته الظاهرة لآدم وذريته تحتاج إلى صاحب بصيرة ليدفعها عن نفسه وعمن حوله، وتحتاج إلى إغلاق أبوابها ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وهو ما فعله بهذا التوجيه ليغلق باب الكيد بينهم.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يُعَلِّم أصحابه ذلك، يُعلمهم درء مفسدة وسوسة الشيطان ولَعِبه بالعقول وتسلُّطه على أوليائه، فكان يوصيهم بالاستعاذة منه حال الغضب، وحال تلبيسه عليهم في صلاتهم وعقائدهم.

بل فعل ذلك صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الذي أخرجه البخاري في قصة مجيء أم المؤمنين صفية لتتكلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معتكف ليلًا في المسجد، فلما أرادت أن ترجع إلى بيتها سار معها صلى الله عليه وسلم ليوصلها، فمرَّ رجلان من الأنصار بهما، فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا، فأراد أن يُعَرِّفهما أن التي تمشي معه هي زوجَتُه وليست امرأةً غريبةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ» فَقَالَا: سُبْحَانَ اللهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا ذَلِكَ، فقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الْإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَرًّا».

﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦﴾

يقول نبي الله يعقوب عليه السلام لولده يوسف عليه السلام: كما أن الله تعالى اجتباك بهذه الرؤيا التي تدل على الخير الذي ينتظرك، فكذلك سيصطفيك الله تعالى من بين إخوتك بالنبوة، وسيختارك من بين الناس لتكون من الصالحين ومن خيرة عباده المخلَصين، وهذه البشرى التي قالها الوالد إنما هي بوحي من الله.

ما أجملها من بشرى لهذا النبي، وما أجمل أن يستشعر أهل الصلاح مِنّا اجتباء الله لهم وحفظَهم من الوقوع في كثير من الزلات التي كانت قريبة منهم يومًا ما.

أقول هذا ليعلم القابضون على دينهم بأن الخِيرة التي أرادها الله لعباده لم تقتصر على الأنبياء والرسل، وأنها امتدت في غيرهم من الصحابة والتابعين، وفيمن سار على هداهم وهديهم إلى يوم الدين.

صحيح أنهم أنبياء وأن الله تعالى اختصهم بالوحي من عنده، وصحيح أن النبوة انقطعت بنبينا صلى الله عليه وسلم، ولكن الله تعالى اصطفى من الناس أولياء وشهداء ودعاة إليه، واصطفى من الناس من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، واصطفى من يقرأ القرآن ويتعلمه ويبلغه، واصطفى من يجعل الشريعة حاكمة في جميع حاله، وقد وعد هؤلاء جميعًا بأن يكونوا مع النبيين في أعلى الدرجات في الجنات.

وتذكروا هنا أن الاجتباء يتطلب من المرء أن يحمل قلبًا أكبرَ وأوسعَ من غيره، وأن يسموَ بخلقه عن سفاسف الأمور، وأن يديمَ استحضار عظمة الرب وكرمه وجوده، وأن يتذكر أنه لا حول له ولا قوة إلا بالله، وأن الفضل فيما وصل إليه إنما هو لله وحده، وهذا ما نلمسه في جميع سيرة هذا النبي الصالح مع إخوته وقومه، ولعلها ثمرة الحكمة النبوية في التربية والتعليم والتوجيه.

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾. يقول سيدنا يعقوب لابنه الغلام عليهما السلام: ومن إكرام الله لك أنه سيلهمك مفاتيح تأويل الرؤيا وتعبيرها للسائلين، أي: تفسيرِها والإخبارِ بما ستؤول إليه، وسيقصدك الناس في ذلك، وسيكون لهذا الأمر أثر في حياتك، وهو ما انتفع به في سجنه وكان سببًا لخروجه كما سيأتي.

وهذا المعنى هو الذي أشار إليه نبي الله يوسف عليه السلام في سجنه لما قال لمن سأله تأويل رؤياه: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف: ٣٧].

ومن أهل العلم من أشار إلى أن التأويل هنا لا يقتصر على الأحلام والرؤى، ولكنه يتعدى إلى تأويل جميع الأحاديث والحوادث مما يقوله الناس ويتكلمون به ويحصل معهم، والتأويل لها يكون بفهم عللها وأسبابها، وإدراك حقيقتها على التمام، وإعطائها الرأي السديد، وتوجيهها فيما تنفع، وهو ما يُعرف بالحكمة.

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾
اختار الله عز وجل آباءك للدعوة إلى دين الإسلام في الأرض، فأوحى إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام، وأنعم عليهم بنعمة النبوة والرسالة، ومن تمام نعمته في ذلك أن الله تعالى سَيَخْتارُك في هذه السلسلة الذهبية، وسَيُوحِي إليك لتكون نبيًّا ورسولًا، وسيتم نعمته عليك كذلك بالمُلك والرفعة بين الناس.

وقد تقدم معنا أن إسحاق هو جد يوسف، وأن إبراهيم هو والد جده، عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، ومعلوم لديكم أن الجد والد، وأن له أحكامًا تخصه من البر والولاية ووجوب النفقة وغير ذلك. أخرج البخاري ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم غزوة حنين: «أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ». وعبد المطلب هو جده. أما آل يعقوب فهم أهله الذين هم زوجته وأولاده وأحفاده، ولقائل أن يقول: كيف يكون إتمام النعمة على أبناء سيدنا يعقوب الذين فعلوا ما فعلوه مع أخيهم يوسف؟ وأين أم سيدنا يوسف في القصة وهي من آل يعقوب؟

والجواب أن يعقوب عليه السلام علم من دلالة رؤيا سيدنا يوسف بسجود الكواكب والشمس والقمر أن خاتمة الحكاية بين الإخوة إلى خير، وأن الله تعالى سيحفظهم جميعًا ويعاملهم بإحسانه وكرمه، ولذلك كان من تمام النعمة عليهم أنْ جعل النبوة في ذريَّاتهم.

ولذلك أشار أهل العلم إلى أن دلالة هذه الرؤيا وما علمه يعقوب عليه السلام من تأويلها بالمجمل، هو الذي أعانه على فقد ولده الأول ثم الثاني، وهو الذي جعل الأمل معقودًا برجوعهما والتمام الشمل بهما، وهو الذي جعله يدرك ما أراده الإخوة بأخيهم وإن لم يعلم تفاصيل كل ذلك.

وأما بالنسبة لأمه فلعلكم تلاحظون أنه لا ذكر لها هنا إلا بالإشارة كما في هذه الآية لأنها من آل يعقوب، وكما في قول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فأين أمه من كل هذه الأحداث؟

والجواب أن أهل التفسير نقلوا عن بني إسرائيل روايات تقول إنها ماتت وهو صغير، وأن زوجة أبيه هي التي قامت مقام أمه فكانت أحد أبويه، وأنها كانت خالة سيدنا يوسف، أي: أخت والدته المتوفاة، وأن سيدنا يعقوب كان يحرص على يوسف وأخيه الصغير لتعويضهما عن فقد أمهما ولأنهما لا زالا صغارًا.

وجاء كذلك عن بني إسرائيل أن يعقوب عليه السلام تزوج من أختين وأنجب منهما أولادًا، كما أنجب كذلك أولادًا من جاريتين، فكان مجموع الإخوة أحد عشر أخًا من أمهات أربع، وأن يوسف وأخاه الصغير كانا من أم واحدة بخلاف الباقي.

أما في الكتاب والسنة فليس عندنا تصديق لهذا الكلام وليس عندنا تكذيب، وعلى جميع الأحوال فإن التي أشرفت على تربية هذا الغلام وأخيه هي زوجة نبيٍّ وعاشت في بيت النبوة والصلاح، فكان ذلك من تمام النعمة على الآل.

﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الله أعلم أين يجعل رسالته، ومن الذي يصلح لها، وهو حكيم في ذلك. الله يعلم النفوس التي تصلح لهذا الكرم فإنه خالقها سبحانه، واصطفاؤه لها كان عن تمام حكمته القائمة على جَعْلِ الأمر فيمن هو أهله، وفي موضعه اللائق به.

ما أرقاه من خطاب يربط على قلب هذا الغلام، ويجعله أكثر اطمئنانًا لقادم أيامه، ويربي فيه عقيدةً هي مفتاح السعادة لكل العالمين.

﴿ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ٧ ﴾

السائلون هنا هم الذين سألوا نبينا أن تنزل عليهم آيات فيها قصص، وهم كذلك من سأل عن نبي الله يوسف لينتفع بقصته ويعلمها ويعلم أن محمدًا عليه الصلاة والسلام نبيٌّ، وهم الذين نفترض أن ينتفعوا بآيات الله حق الانتفاع، ويتربوا في فوائدها ومُلَحها على أحسن وجه وأتم حال.

إليكم يا من سألتم نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقص عليكم من قصص الأولين، ويا من تأنس آذانكم وقلوبكم إلى ما فيه نفع لكم وإرشاد، إليكم قصة يوسف عليه السلام مع إخوته.

واعلموا أن القصة هنا مختلفة عما تعودتم عليه من حكايات البشر وأقاويلهم، فهذه قصة تحوي آياتٍ ودلائلَ لكم لتعقلوها، ولتقودكم إلى عِزِّكم وسعادتكم، وتحوي عِبَرًا ومواعظ لا تجدونها في غيرها، وتطير بكم في فضاءٍ يُسْعدكم كثيرًا وينفعكم، وترون في تفاصيلها عظيم صنع الله تعالى وتقديره، وترون فيها عظيم حكمته ولطفه وتوفيقه وعنايته بالصالحين، يكفيكم أن القصة هنا من قول الله الرب العظيم.

هنا بدأت قصة يوسف عليه السلام بعد مقدمتين، أولاهما بينت مكانة القرآن وعظمته، والثانية كانت في الرؤيا التي حصلت له، وهاتان مقدمتان تصنعان الرغبة في الوقوف على أحداث القصة، والشوق إلى معانيها وظلالها، وهذا ما أرادته الآيات لينتفع بها جميع من عاش معها وتأمَّلها وأدام النظر فيها، وهذا ما يُسمى عند أهل الأدب ببراعة المَطْلع، أي: براعة مقدمة القصة.

والآيات هذه لا ينتفع بها إلا من فتح قلبه لها، واستسلمت جوارحه لرقيِّها وعظمتها، فإن فيها صبرًا عظيمًا على البلاء الذي تنوع وتعدد، وفيها قطفٌ لثمرة هذا الصبر في الدينا، فضْلًا عما ينتظر أهله في الآخرة.

والآيات العظيمة والدلائل النفيسة في قصة يوسف لا تكاد تنقطع، فمنها على سبيل التمثيل لا الحصر أنها تُثْبت رسالة محمد صلى الله عليه وسلم النبي الأميِّ الذي قصَّ عليهم ما لا يعلمه إلا أحْبَار اليهود، والذي جاءهم بتفاصيلَ لا يَسَعُ المستمع إليها إلا أن يوقن أن القرآن وحيٌ من عند الله.

وفي القصة بيانٌ نافعٌ للحسد وعواقبه وفقه التعامل معه، وفيها بيان كرم الله الذي يأتي بعد الثبات أمام البلاء، فلقد كان حسد إخوانه له وإلقائه في الجب سببًا لأن يتبوأ الغلام مكانة عزيز مصر، وكان دخوله إلى السجن سببًا في معرفة علمه وأمانته وقوته، وكانت مراودة زوجة العزيز له سببًا لإظهار عفته التي لم يساوم عليها لحظة، وكان دوام اعتصامه بالله ولجوئه إليه ونسبة الفضل له وحده سبحانه مفتاح ثباته وَفَلاحِه، وكانت رياسته لمصر فرجًا على إخوانه وعونًا لهم على صعوبة الحياة، وقيسوا على ذلك لتفقهوا حياتكم على الوجه الصحيح والمعقول.

وكما قال أهل العلم: فَمَا مِنْ حَلَقَةٍ مِنْ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ إِلَّا وَكَانَ ظَاهِرُهَا مُحْرِقًا، وَبَاطِنُهَا مُشْرِقًا، وَبِدَايَتُهَا شَرًّا وَخُسْرًا، وَعَاقِبَتُهَا خَيْرًا وَفَوْزًا، وَصَدَقَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].

ومن الآيات العظيمة في السورة كذلك تلك العاطفة التي يطير قلبك معها ويكاد ينخلع، والتي سنعيشها مع مشهد استقبال الوالد لخبر أكل الذئب لولده، ثم فقده للثاني بسبب السرقة، ثم بلائه في عمى عينيه من حزنه وبكائه، ثم شمِّه لريح يوسف التي كانت بمثابة ميلاد جديد، وغيرِ ذلك.

ولكم أن تعيشوا مع فصاحة هذا الكلام، وجمال نَظْمه، وإعجازه البياني الذي يقف المرء مدهوشًا أمامه، والذي نرى ثمرته في حبِّ هذه السورة ودوام سماعها عند جماهير المسلمين كما هو حالهم مع القرآن جميعًا.

﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾

بدأ الحوار بين إخوة يوسف بتوافقهم على ما يجول في خواطرهم من مكانة يوسف وأخيه الصغير في قلب أبيهم.وأخوه هذا لم يثبت في شريعتنا اسمه، ولكن مصادر أهل الكتاب ذكرت أن اسمه هو بنيامين.

هنا حوارٌ تقرأ فيه تسابقهم إلى هذا القلب كما هو حال الأبناء مع أبيهم وأمهم، وتقرأ فيه غَيْرَة شديدة من هذا الحب بين الأب وصغار أولاده، وتقرأ فيه مراقبتهم لتلك العلاقة عبر سنين مضت.

يقولـون: والله إن أبانـا يحـب يوسـف وأخانـا الصغيـر أكثـرَ منـا ونحـن عصبـة، أي: جماعـة وأكثـر عـددًا، وينتفـع منـا أكثـر منهمـا فـي تحصيـل الـرزق والحمايـة والعمـل، فلمـاذا يفعـل ذلـك؟!

وكأنَّ مقيـاس نفـع الأولاد لـلأب إنمـا هـو القـوة والكثـرة، وهـذا أمـر ليـس صحيحًـا فـإن العقـلاء يدركـون أن مـدار النفـع إنمـا هـو على الصـلاح والقيام علـى الحاجات ولين الجانب.

لقد أثـاروا بكلماتهـم هـذه حفيظـة جميـع الإخـوة، وعمـل القائلـون منهـم علـى اسـتعطاف الجميـع ليصلـوا إلـى رأيٍ يحسم الأمـر بالإجمـاع دون مخالفـة أحـد، ويمتثلـوا سـريعًا.

ولنـا أن نتوقـف مـع صحـة كلام الإخـوة عـن أبيهـم، ومـع صـواب تفكيرهـم أو خطئـه، يعنـي: هـل كان أبوهـم حقًّـا يميـل فـي المعاملـة والمحبـة إلـى يوسـف وأخيـه دونهـم؟ وهـل وصـل الأمـر إلـى أن يجتمعـوا ويتوافقـوا علـى مـا ينقذهـم مـن ظلـم أبيهـم علـى حَـدِّ زعمهـم؟

والجـواب أن الميـل القلبـي أمـر لا يملكـه غالـب النـاس، ونجـد كثيـرًا مـن الآبـاء والأمهـات يميلـون فـي قلوبهـم إلـى أحـد أولادهـم أو أكثـر، وقـد يكـون لهـذا الميـل أسـباب ومسـوغات، والشـرع لا يحاسـب علـى ذلـك، ولكنـه يطلـب مـن الأبويـن أن يكـون عندهـم العـدل بيـن الأبنـاء فـي المعاملـة والعطـاء والتربيـة.

والعـدل فـي ذلـك يقـوم علـى أن تعطـي كل ذي حـق منهـم حقَّـه، ولـك أن تُفضِّـل أحدهـم علـى الآخـر فـي العطـاء أو المعاملـة إذا كان هنـاك سـبب معتبـر، فالولـد الطائـع ليـس كالعـاق، والـذي معـه مـرض مزمـن ليـس كالصحيـح، والصغيـر ليـس كالكبيـر، والفقيـر منهـم ليـس كالغنـي، والتـي تزوجـت ليسـت كغيرهـا، وهكـذا.

أقـول هـذا لأصـل معكـم إلـى أن كثيـرًا ممـا يـدور فـي ذهـن الأولاد مـن نسـبتهم الظلـم لآبائهـم فـي المعاملـة والنفقـة ليـس صحيحًـا، وأن جهلهـم بالحقـوق والواجبـات هـو الـذي أوقعهم فيمـا أوقعهـم فيـه، وأن غفلتهـم عـن جـواز التفضيـل بينهـم فـي حالات يعـود تقديرهـا للوالدين جعلـت للشـيطان حظًّـا مـن تفكيرهـم، وأن عـددًا مـن أمـراض القلـوب التـي تسـللت إليهـم سـبَبُها رغبتهـم فـي الحصـول علـى كل شـيء، وهـو مـا يجعل إرضاءهـم صعبًـا علـى الوالديـن، ويجعل تحسُّسَـهم حاضـرًا مـن أي ثنـاء أو انبسـاط أو معاملـة طيبـة.

وأقول هذا لأصل معكم إلى أن ما يقوله إخوة يوسف عن أبيهم ليس صحيحًا، وأن الحسَد الذي عمَّر قلوبهم هو الذي قادهم لقولهم هذا ولما بعده، وهو ما يصعب علاجه والتعامل معه.

لقد استخفوا برأي أبيهم ونسبوا إليه الوقوع في الضلال المبين، وبدأت روح التآمر تدخل إلى عقولهم وقلوبهم، واقتنعوا بأن الشعور الذي غلب عليهم صحيح، وأنه يلزمهم معالجة الخطأ.

أقول هذا ولا يفوتني ما نبَّه إليه أهل العلم من ضرورة عناية الوالدين بتربية أبنائهم على التسامح والمحبة والرحمة، وضرورة مداراتهم في مشاعرهم وأحاسيسهم وعدم التهاون بها، والحرص على عدم تفضيل بعضهم على بعض في ظاهر الحال إلا استثناءً، وليضبطوا عواطفهم في ذلك ويسددوها كما أمر الشرع.

أخرج البخاري ومسلم عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما، قَالَ: تَصَدَّقَ عَلَيَّ أَبِي بِبَعْضِ مَالِهِ (وفي رواية أنه أعطى ولده النعمان أرضًا)، فَقَالَتْ أُمِّي عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَةَ: لَا أَرْضَى حَتَّى تُشْهِدَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْطَلَقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُشْهِدَهُ عَلَى صَدَقَتِي (يعني ليكون شاهدًا على هبته لولده)، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «اتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ»، فَرَجَعَ أَبِي، فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يقولون عن أبيهم: إنه ضل ضلالًا مبينًا بفَرْط محبته لهما، وتقديمِهِ لولدين صغيرين ضعيفين على عشرة من الإخوة أولي القوة والكسب. وقَصْدهم بضلاله في ذلك أنه أخطأ طريق العدل والمساواة وجَهِله، وخطؤه واضح وبَيِّنٌ لا يخفى، وما كان له أن يفعل ذلك.

﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾

هذا النص القرآني يمثل حلقة عجيبة من حلقات قصة هذا النبي العظيم، فالقتل الذي نادى به أحدهم أو بعضهم ليس معتادًا في الخصومة بين الإخوة والأخوات، وليس معتادًا في التفكير وإن بلغت الغَيْرَة مبلغها.

كان القتلُ أحدَ خيارين ذكرهما الإخوة هنا وناقشوهما وفكروا فيهما بصوت مرتفع، أما الخيار الثاني فكان بأن يطرحوه أرضًا، أي: أن يلقوه في أرض بعيدة ويُوْدِعوه فيها لعله يموت هناك أو يفترسه سَبُعٌ، ولفظة الطرح هذه تلمس فيها أنه بالنسبة لهم لا شيء. والمطلوب: أن يُبعدوه عن وجه أبيهم ليخلوَ لهم، وأن يفرقوا بينهما على التأبيد لعلهم يظفرون بخالص محبة والدهم وشفقته واشتغال قلبه.

والظاهر من كلامهم أن محبة أبيهم ليوسف كانت أكبر من أخيه الآخر، وأن تأثيرها عليهم كان أشدَّ، أو ربما أدركتهم شفقة على أصغرهم فلم يذكروه بالقتل أو غيره، واقتصر مكرهم على يوسف عليه السلام.

ومن عجيب حالهم كذلك أنهم أضمروا التوبة وخططوا لها قبل أن يفعلوا ذلك، بل صَرَّحوا بها بقولهم: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ﴾، أي: تتوبون إلى الله وتستغفرونه من بعد قتله أو إلقائه بعيدًا، وتأتون بالأعمال المكفرة لهذا الإثم العظيم، فتجمعون بين رضا الله ورضا الأب، وهذا يدل على أن فيهم صلاحًا، وأنهم يعلمون أن ما يقومون به يُسخط الرب عليهم، ولكن الغيرة قد تقتل أصحابها وتصرف تفكيرهم إلى ما يُشقيهم ويُتعبهم.

سبحان الله كيف أوصل الحسد أهل بيت طيب صالح إلى هذا التفكير، وكيف جعل الأولاد الذين نشؤوا في بيت نبوَّةٍ يتجاوزون ما تربُّوا عليه إلى انتهاك ما أمر الله تعالى بحفظه ورعايته.

وتوبتهم هذه التي عزموا أن يُقبلوا عليها بعد التخلص من يوسف ربما ذكروها لتسهيل جريمتهم وإزالة شناعتها، وتنشيط من قد يتكاسل عنها أو يخاف.

ولقائل أن يقول: وهل يصلح أن أقبل على ذنب ناويًا التوبة بعد أن أفعله؟ وهل هذا النوع من الذنوب تُكفره التوبة؟ والجواب في نقاط أقول فيها:

١- هناك فرق بين من غفل عن مراقبة الله تعالى واستجمعت عنده قوى المعصية فأوقعته في الذنب، وبين من يتجرأ على محارم الله مستخفًّا بنظر الله مغترًّا بسعة رحمته، فالأول لا يريد أن يفعل الحرام ولكنه قد يقع في الذنب، وكلُّ بني آدم خطَّاء، والثاني يتهاون في الذنب ويخطط له ويتفنن فيه، ويَسْهل عليه فعل الكبائر والصغائر قائلًا في نفسه أتوب بعدها.

٢- التوبة إلى الله تعالى شعار من شعارات الصالحين، لا تنفك عنهم ولا تَقِرُّ لهم عينٌ إلا بها، ولا يستطيع أحد أن يغلق باب التوبة على أحد، وهي مقبولة عند الله تعالى إذا كانت بشروطها حتى تطلع الشمس من مغربها أو تخرج الروح من بدن صاحبها.

ولا يستطيع أحد أن يتألَّى على الله فيمنع التوبة عن أحد وإن كان حاله كحال إخوة يوسف، بل نَحْذرُ من طريقتهم في التفكير، وننصحُ بآداب النصيحة وفقهها، ونَكِلُ الأمر إلى الله تعالى؛ فإن شاء عذَّب وإن شاء غفر سبحانه.

ولكن هنا فائدة: الآيات والأحاديث التي جاءت في قَبُول توبة التائبين وَسَعَة رحمه الله لهم، تفتح أبواب الرجوع إليه ولا تفتح أبواب التجرُّؤِ على المعاصي، يعني: من الغرور بالله أن تتفنن في المعاصي تحت شعار: لي رب يغفر، ومن الغرور أن تستخف بسخط الله وعقوبته حال إقبالك على المعصية، فالمؤمن يجري حاله بين الخوف من العقوبة وبين رجاء الرحمة والمغفرة.

٣- الذي يقبل على الذنب ناويًا التوبة لا يدري متى يموت، ولا يعلم متى يحين أجَلُه، وقد يُقبض على معصيته ويُبعث عليها، والأصل في عبوديته أن يراقبَ الله في جميع أحواله، ويجاهدَ نفسه في عمل الصالحات.

وليست الخشية فقط على صاحب هذه الطريقة في التفكير من الموت، ولكن يُخشى عليه كذلك من أن يُحالَ بينه وبين التوبة ولا ينشرحَ صَدْرُه لها ولا يُوفَّق، وقد تَجُرُّه المعصية إلى أخرى حتى يصبحَ القلبُ أسودًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا. قال الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

٤- التوبة التي يقبلها الله تعالى هي التي وصفت الآياتُ فاعلَها بأنه فعلها بجهالة، كما في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء: ١٧]. ، أي: دون رَوِيَّة وتفكير صحيح، فالجهالة هنا لا تعني عدم علمه بحرمة ما فعل، وإنما هي وصف لازم لكل من أكبَّ على الذنوب وأسرف فيها، فهو جاهل ما دام مصرًّا عليها، وجاهل حال تلذذه بها غافلًا عما ينتظره بعدها، وأحيانًا يأتي جهله من حيث ظن النفع بفعل المعصية، يعني أقبل على الحرام ليرتاح ويطمئن، ولكنه الشقاءُ وربي.

وتذكروا أن من علامات الإيمان الحرصَ على اجتناب الذنوب، والابتعادَ عن مواطن الفتن، والمسارعةَ إلى التوبة إذا حصل البلاء بشيء مما يسخط الرب ويغضبه.

٥- أخطأ إخوة يوسف بما قالوه وما فعلوه، وأخطأوا في طريقة تفكيرهم التي بنوا عليها جرائمهم، وهو ما دل عليه اعترافهم في قولِ الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾ [يوسف: ٩١]، وقولِ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ٩٧﴾ [يوسف: ٩٧]، فالحذر الحذر من السير على خطاهم في تفكيرهم هنا، والبدار البدار إلى صفاء القلب وصلاح السريرة.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ١٠﴾

هذا خطاب واحد منهم، وقد حاول أن يتظاهر بالاعتدال في الرأي، وكأنَّ لفظة القتل وقعت موقعها في قلبه، وكأن تركه في أرض بعيدة ليهلك بسبب من الأسباب كان صعبًا عليه، فأراد صرفهم عن رأيهم إلى إلقائه في بئر من الآبار التي هي في طريق السيَّارة من الناس، أي: الذين يسيرون ويسافرون من بلد إلى آخر.

يظهر من خطابه أن شدة العداوة في قلوب الإخوة لم تكن على درجة واحدة، ولذلك طلب منهم أن يلقوه في غيابة الجُبِّ إن كانوا عازمين على إبعاده عن أبيه، وغيابة الجبِّ أي: أسفل البئر الذي يغيب فيه عن النظر وعن قدرته على الخروج منه، فقدَّر صاحب هذا الرأي أنَّ أخاهم يوسف سينادي على من يُنقذه من البئر، وأنَّه لا بد أنْ تسمعه إحدى قوافل التجارة التي تمر بالطريق بين الشام وغيرها من الأمصار والبلاد، فيُخرجوه، ويَأْخذوه، ويُبْعدوه دون أن تتلطَّخَ الأيدي بقتله.

ويظهر كذلك من اقتراحه ورغبته بأن يلتقطه بعض السيارة أن البئر الذي اقترحه ليس مُهلكًا ولا مُميتًا، ولا يغرق فيه أخوه، ويَسْهُل إنقاذه لأن قعْره ليس بعيدًا، ولسان حاله: بعض الشَّرِّ أهون من بعض.

حفظ الله عبده يوسف بكلمات أخيه ورأيه، ودبَّر له أمره ونجَّاه من القتل، وهذا الأمر نافع لنا ونحن نعيش مع تفاصيل قصة هذا النبي، فانظروا وتأملوا في كثير من الأحداث كيف يحفظنا الله فيها، وكيف يُبعد عنا الشرور العظيمة، وانظروا كيف يأتي البلاء في ظاهره صعبًا، وكيف يشتد في وقت ما، ولكنه بلاءٌ يحمل تربية لنا، واختبارًا لصبرنا، ويكون معه تكفير الخطايا ورفعة الدرجات، ولا يكاد الواحد يقف مع خفيِّ لطف الله به إلا ويستحضر أن مع العسر يُسْرًا، وأنه بعد المِحَن تأتي المِنَح، وأنَّ قضاء الله في العبد عَدْلٌ وإن كان في ظاهر الحال على غير مراده، وأنه لو كُشِفَ له الغطاء لما اختار الواحد منَّا غير ما أراده الله له ويسَّره.

وتعالوا نتعلم كيف أنهم نظروا إلى فعلتهم من جهة واحدة، وهي أنهم سيتخلصون ممن ينافسهم في محبة أبيهم وسيظفرون وحدهم بالاهتمام دون غيرهم، ولكنهم لم ينظروا في الجهة الأخرى، وهي أن حرمان الوالد من ولده الحبيب سيُدخل عليه حزنًا لا ينقطع، وسيؤلم قلبه حتى يحول بينه وبين قدرته على العطاء الذي يريدون، وسيدخلهم في جريمة إيذاء النبي، وعقوق الأب، وقطيعة الأرحام، وإيذاء طفل بريء لا ذنب له، بل ربما تلحقهم عقوبة الدنيا إذا افتُضح أمرهم، فضلًا عن عقوبة الآخرة، بل قد يدخل عليهم أو على أحدهم حزنًا وندمًا لا ينقطع عنهم، فَيَشْقون في حياتهم من حيث أرادوا الراحة، ويا ليتهم نظروا في فضل هذا الأخ الذي ستكون رفعتُه رفعةً لهم، وهوانُه هوانًا لهم.

وهكذا غالب من يبطنون الشر ويعزمون على إيصال أذاهم للغير، تراهم يضيق تفكيرهم ولا يتسع، وتراهم يتخبطون ولا يهنؤون أو يهدؤون، وتراهم يفتحون على أنفسهم أبواب شرور للتخلص من باب شرٍّ واحد.

والقرآن كغالب عادته لم يذكر أسماءَهم أو أعمارَهم أو صفاتِهم لأنها لا تؤثر في الغاية التي تريد آيات الله تعالى أن توصلها إلينا هنا، كما هو الحال مع الرجل المؤمن من آل فرعون الذي دعاهم إلى الله، وكما في قصة أهل الكهف، وزوجَتَي نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام، وغير ذلك. وذلك بخلاف ذكر أسماء أنبياء الله تعالى وبعض الملائكة وسيدتنا مريم عليها السلام، فلقد كان في ذكرهم نفع عظيم لا يخفى عليكم.

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ ﴾

يدل السياق القرآني على أنهم توافقوا على واحد من الآراء، وهو أن يلقوه في غيابة الجب، ثم بدأ كيدهم مع أبيهم فجاؤوا إليه كخطوة أولى ليَقْبل خروج أخيهم معهم وانفرادَهم به.

جاء أبناء يعقوب عليه السلام إليه فأخبروه بوجهتهم التي يريدون، وطلبوا منه أن يكون معهم أخوهم يوسف عليه السلام، وكأنهم طلبوا منه أخذه فأبى ابتداءً أن يكون معهم لخوفه عليه، أو أنهم حاولوا من قبلُ أن يأخذوه للرعي معهم أو لِلَّعب والسباق فكان الأمر عسيرًا، فقالوا كلماتهم هذه وزعموا أنهم مؤتمنون عليه جدًّا ليعطوا أباهم رسالة أمان وطمأنينة تدفع الريبة التي في قلبه، وتجعلهم يتمكنون من أخيهم، وهو ما حصل.

﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ ﴾ قالوا: نحن مشفقون عليه فهو أخونا، ونحن نعلم ما ينفعه وكيف يسعد فلا تخف عليه.

﴿ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢ ﴾

أظهروا وجهتهم التي يريدون، واستعملوا ألفاظًا أثاروا بها عاطفة الأب، فالوالد بطبعه يحب أن يَلْعبَ ولدُه الصغير ويلهوَ ويركضَ وينشطَ، ويحب أن يرتع، أي: يأكلَ من أصناف الطعام والفاكهة ويفرحَ بذلك.

طلبوا منه أن يبعث يوسف عليه السلام معهم في ذهابهم إلى الرعي غدًا في البَرِّيَّةِ، فيرعى معهم ويتنزَّه ويُروِّح عن نفسه، ووعدوه بأن يحفظوه من كل سوء وأذى، وأعطَوْه المواثيق على أن يزداد حرصهم عليه حتى يرجع إلى أبيه.

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يظهر في هذه الكلمات فَرْطُ محبة يعقوب عليه السلام للغلام الصالح يوسف عليه السلام، فهو صاحب الرؤيا التي دلت على مقامه الرفيع في الدنيا، والمكانة العالية عند الله سبحانه وتعالى.

أظهر يعقوب عليه السلام ذلك الحزنَ الذي سيعتصر قلبه خوفًا وألمًا على فراق حبيبه وإن قصرت المُدَّة، وأخبرهم بتلك المشقة التي ستلحقه وهو ينتظر رجوعه إليه.

وكأنه يقول لهم: لا تكثروا عليَّ في الطلب، ولا تُرْهقوا قلب أبيكم الكبير فإنه لا يحتمل، بل وكأنه يشعر أنهم يكيدون شيئًا.

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴾ هذا هو المانع الثاني لإرساله معهم بعد حزنه على الفراق، وقد أخذ أبناء يعقوب عليه السلام من فمه هذه الكلمة، وحفظوها وجعلوها عذرهم فيما فعلوه بيوسف عليه السلام كما سيأتي، فإنهم لما ألقوه في الجب وسألهم أبوهم عنه قالوا: أكله الذئب.

وفي الآية هنا إتمام لتلك المشاعر التي اختلجت صدره عليه السلام، فالحزن والخوف إذا اجتمعا على العبد أتعباه كثيرًا، واحتاج إلى صبر عظيم لينتصر.

خاف الوالد على ولده من أن يأتيَ ذئب ويأكلَه وهم لا يشعرون بذلك لانشغالهم عنه بالرعي واللهو والصيد والمسابقة، وهو صغير لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

زيادة تطمين لقلبه، ومزيد حجة يحاصرونه بها ليقبل طلبهم، وتتحقق أمنيتهم بالذهاب به بعيدًا عن عين الأب المشفق. يراجعونه في طلبهم ويقولون له: كيف يأكله الذئب أو يقتربُ منه ونحن مجموعة من الشباب الفتي القوي الحريص، إنه إذا حصل ذلك كُنَّا من أهل الخسران والعجز والهلاك، ولا خير فينا ولا يُرجى نفعنا ولا يُعتمد علينا، وحقيقتهم أنهم يُظهرون الصلاح والحرص ويبطنون الضُّرَّ والشَّرَّ.

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥ ﴾

ثلاثة محاور تدور عليها الآية الكريمة هنا:

أولها: أن سيدنا يعقوبَ رضيَ أن يخرج سيدنا يوسف عليهما السلام مع إخوته بعد إلحاحهم في الطلب، وتفننهم في الخطاب، وحرصهم على الإقناع، وقد عبَّرت الآية عن ذلك بذهابه معهم إلى مرتعهم وملعبهم.

وثانيها: أنهم اتفقوا جميعًا على إلقائه في غيابة الجب، واختاروا هذه الطريقة للتخلص منه، وذلك بعد أن وعدوا أباهم أن يأخذوه معهم للهو واللعب والترويح عن النفس، وبعد أن اختلفوا أول الأمر في قتله أو عدمه، فكان تقدير الآية هنا: فلما ذهبوا به وأجمعوا على أن يجعلوه في أسفل البئر فَعَلوا ذلك، وتخلصوا منه على طريقة إبعاده لا قتله.

غاب الولد عن ناظر أبيه ورعايته وحضنه، وغاب عن أخيه الصغير الذي هو أقرب إخوانه إليه، غاب وسيطول اجتماعهم جميعًا به.

غاب الولد وكان غلامًا عقل عن والده معنى التوحيد والعبودية، وتربى في سنوات عمره الذهبية على المبادئ الصحيحة والمعاني الكريمة، فكانت بيئته الطيبةُ سببًا عظيمًا من أسباب ثباته وصبره، ووفور حكمته وعلمه كما سيأتي.

وثالثها: لطف الله تعالى بعبده، ورحمته التي تنزل مع كل بلاء، واليسر الذي يغلب العسر إذا كان معه الصبر والثقة بالله جل وعلا، وهو الظاهر في قول الله هنا: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، وأمرهم هو صنيعهم السيء.

أوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام عند إلقائه أن عاقبة أمره إلى خير، وأن البلاء العظيم الذي سينزل به سيعقبه فرجٌ عظيمٌ من عند رب عظيم، وأنه سبحانه سيحفظه وينجِّيه، وسيَقْدُر له الخير الكثير في قادم أيامه، وسيُعلي ذِكْرَه ومكانتَه، وسيأتي اليومُ الذي يَظهر فيه علوُّه على إخوته الحاسدين الماكرين الخائنين، وسيخبرهم بصنيعهم الذي تجاوز الحدود والأعراف.

جاء وَحْيٌ من الله تعالى ليربطَ على قلب هذا الغلام، وليؤنسه في وحشته، وليعينه في قادم أيامه وسنوات عمره، وليثبّته ويصرفَ عنه شرورَ الحزن واليأس والقنوط، ويهونَ عليه.

وهذا الإيحاء من الله تعالى قد يكون إلهامًا منه سبحانه ألقاه في نفس يوسف عليه السلام، وقد يكون عن طريق جبريل عليه السلام فيكون مقدمة من مقدمات اصطفائه للنبوة وإرساله بالدعوة إلى التوحيد، كما حصلت مقدمة الرؤيا الصادقة التي رآها وقَصَّها على أبيه من قبل.

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: ستخبر إخوانك بصنيعهم وهم لا يشعرون أول الأمر أنك أخوهم الذي فعلوا فيه ما فعلوا. قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، أي: لا يعرفونه. وقال سبحانه: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾ [سُورَة يُوسُف: ٨٩].

﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾

بكى الأبناء لإظهار حُزْنهم وجَزَعهم على أخيهم الذي لم يرجع معهم، وأنزلوا دموعًا كاذبةً، واصطنعوا ما يدفع عنهم الشك والتهمة. وقد جاء البكاء هنا بصيغة الفعل المضارع ليدل على أن البكاء تكرر منهم، وكلما انقطع رجعوا إليه ليُثبتوا حسرتهم وحزنهم.

تأخروا في مجيئهم إلى وقت العشاء الذي يغيب فيه الشفق الأحمر ويدخلُ الليل، ليوهموا أباهم أنهم تأخروا من شدة حزنهم وتألمهم لما فقدوه، وأنهم خافوا من مواجهته بالحدث.

وكأن الآية تريد أن تعلمنا أن الناس فيهم عجائب من التمويه والكيد، وأن البكاء لا يكون على الدوام علامة صدق في الكلام أو في المشاعر، وأنه لا يُبنى عليه حكم أو رأي، وأن العاقل الفطِنَ هو من يتتبع الحدث، ويتعامل مع البينات، ويسمع من الجميع، وينتبه لحيل المتظلمين، ثم يبني على كل ذلك ويحكم.

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾

يصفون ما حصل معهم زورًا وبهتانًا، وينقلون تفاصيل قصة فقدهم لأخيهم ويكذبون فيها، ويبدؤونها بإخبار أبيهم عن ذهابهم للاستباق، أي: ليتسابقوا بالجري على الأرجل أو في رمي السهام، ثم أخبروه أنهم تركوا يوسف عند ثيابهم وطعامهم وأمتعتهم، ولم يأخذوه معهم لعدم قدرته على مجاراتهم، وحرصًا على راحته، فجاء الذئب فقتله وأكله ولم يترك منه شيئًا، ثم إنهم لم يسمعوا صراخه واستغاثته، ولم يدركوه لإنقاذه.

قدَّموا لأبيهم عُذرًا أخذوه من كلامه لما امتنع عن الإذن لهم بأخذ يوسف معهم أول الأمر خشية أن يأكله الذئب، وكأنهم يريدون أن يهونوا عليه ويقولوا له: لقد صدق ظنك يا أبانا، وحصل ما كنت تحذر منه.

﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ يقولون له: ونحن نعلم أنك تتهمنا في علاقتنا بأخينا، وتشعر أنه غير مرغوب بيننا، وأنك لن تقبل كامل روايتنا لغرابتها مع أننا صادقون فيها، ولن تقبلها لشدة محبتك ليوسف وحزنك عليه، ولكن ذلك لن يمنعنا من قول الحقيقة ونقلها كما هي.

والمقصود أنهم يتلطفون معه في الكلام، ويَعْذِرُونه فيما يتوقعون منه أن يقوله، وينتظرون منه تفريغ مشاعره وعواطفه، ويتوقعون منه نسيان الأمر بعد حين من الزمن، وهيهات أن يحصل ذلك.

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرًاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨ ﴾

أنزلوا دموعهم لإظهار العاطفة والحزن والألم، ثم أتبعوا ذلك بلسان معسول في نقلهم لما حصل، ثم أتبعوا ذلك بدماء مكذوبة جعلوها على قميصه الذي كان يلبسه لإثبات دعواهم، وإيهام والدهم بصدقهم في كل ما يقولون.

وهنا يذكر عدد من كتب التفسير أن القرآن وصف وجود الدم دون الإشارة إلى أن القميص عليه آثار تمزيق الذئب له، وهذا ما جعل الوالد يبدي لهم حقيقة ما في قلبه ولا يصدقهم، ولكن هذا الرأي يناقَشُ بأنه لا يُتَصور أن يفوت هذا الأمر جميع الإخوة ولا يأتوا بالقميص ممزقًا، ولا يفوتهم أخذ الحِيْطة في ذلك بشتى صورها.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ هذا ما يُطلق عليه الناس: قلبُ الوالد، فسيدنا يعقوب عليه السلام يعرف أبناءه جيِّدًا، وقد قامت عنده قرائن متعددة ومتنوعة تدل على أن الحكاية ليست كما يقولون، وأن حديثهم هذا ليس صادقًا بل هو مجرد دعوى، ولذلك أعلمهم بعد كلامهم على الفور بأن نفوسهم سولت لهم أمرًا، أي: زيَّنت وسَهَّلت لهم مكرًا قبيحًا لإبعاد الغلام عن عين أبيه وقلبه، وهذا الأمر يدور بين تعمد قتله، أو بيعه، أو إبعاده بطريقة ما.

ويحضرنا هنا كيف أرادوا أن يَخْل لهم وجه أبيهم بما فعلوا، فما وجدوا إلا شدةَ المحبة ليوسف وكثرةَ الذِّكر له، وما وجدوا إلا قسوةً في الكلام وجفاءً في المشاعر، وكم من الأفعال التي يظن فاعلوها أن شأنهم سيرتفع بها فما يزدادون إلا سقوطًا.

وكأننا بالوالد يستحضر في هذا المشهد وعود الإخوة بأن يلعب يوسف معهم ويرتع، وأن يحرسوه ويحفظوه، ولكن الذي قالوه يدل على خلاف ما وعدوا به، فهم الذين تسابقوا، وهم الذين تعمدوا تركه عند المتاع ليحرسه ويحفظه على حسب روايتهم الكاذبة.

يغلب على ظنِّ نبي الله يعقوب عليه السلام أن الذئب لم يأكله، ولكنه لا يملك دليلًا على ذلك، وليس أمامه إلا أن يستمع إليهم ويقبلَ ظاهر كلامهم، ويُشعرَهم أنه وقع في نفسه شيءٌ مما يزعمون، وأن وراء قصتهم قصةٌ أخرى لا يتجاوز فيها ما قاله في تتمة كلامه، فإنه قال:

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ أي: سأصبر على هذا البلاء العظيم صبرًا جميلًا حتى يلطفَ الله بالحال، ويعينَ ويكرمَ ويأذنَ بالفرج من عنده.

ومعلوم لديكم أن الصبرَ درجات، وأن الناس في ذلك متفاوتون، وأن كثيرًا من الناس تطيش عقولهم مع البلاء إذا نزل، ولا يثبت في ذلك إلا من عرف الله ورضي به ربًّا، واستحضر على الدوام أن حُكمه ماضٍ فيه، وأن قضاءه عدلٌ وإن كان في ظاهره صعبًا.

نعيش مع عبارة ﴿ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ ﴾ معالم الصبر التي لا يليق بأهل القرآن أن يغفلوا عنها:

١- يكون الصبر في أعلى مراتبه وأرقاها عند الصدمة الأولى، أي: أولِ سماع الخبر وحصولِ الحدث، وحصولُهُ في هذا الموطن يدل على قلبٍ مطمئنٍّ بالإيمان. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي» قَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى».

٢- من معالم الصبر الجميل أن يَسْلمَ صاحبه من التسخُّط والاعتراض، ويسلمَ من الجزع والنياحة واللطم والقول القبيح، ويسلمَ من اليأس والقنوط والظن السيء بالله. ومن معالمه أن يعلم أن ما أصابه لم يكن ليُخْطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه، وأن يتبرَّأ من حوله وقوته ويسارعَ إلى الاستعانة بالعظيم، وأن يحمدَه ويشكرَه على ما أصابه.

أخرج مسلم عن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها، زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: « مَا مِنْ عَبْدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦]، اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَجَرَهُ اللهُ فِي مُصِيبَتِهِ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا »، قَالَتْ: فَلَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ قُلْتُ كَمَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي خَيْرًا مِنْهُ؛ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا يفوتنا أن نستحضر أن بلاء نبي الله يعقوب عليه السلام قد اشتد مع فقد ولده الثاني وغيابه عنه كما سيأتي معنا، وأنه لما وصله خبر هذا البلاء قال: ﴿ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف: ٨٦].

٣- ممن عاشوا مع جمال هذا الجزء من الآية أمُّنا عائشةُ رضي الله عنها، فلقد استظلت بظلاله يوم حادثة الإفك، تلك الحادثة التي آلمت قلبها، وتكلم بها كثير ممن حولها، ولكنها قالت كلمات تدل على رجاحة عقلها، وأنها تعيش بطريقة تفكير لا يهتدي إليها الكثير، قالت كما أخرج في قصتها الإمامان الجليلان البخاري ومسلم: «إِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللَّهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾».

٤- ما أحوجنا لمثل هذا النوع من التذكير والوعظ، فإن المصائب لا تكاد تنفك عن العبد حتى يرحل عن حياة الكَبَد والفِتن، ويحتاج معها إلى تربية إيمانية تقوم على فهم حقيقة الدنيا، والإيمان باليوم الآخر.

الفضل في هذه التربية لله وحده، فإنه أخبرنا وعلمنا أنه جعل الأنبياءَ أشدَّ الناس بلاءً، ثم الصالحين على قدْرِ صلاحهم، ثم أخبر أن هذا البلاء ملازم لهم حتى يخرجوا من الدنيا وما عليهم خطيئة، والموعد مع دار الجزاء وتوفية الصابرين أجرهم بغير حساب.

٥- هنا لفتة عجيبة أشار إليها أهل العلم في كلامهم عن البلاء، وهذه اللفتة متعلقة بطبيعة البلاء الذي يأتي على أكثرَ ما يحبُّه الإنسان ويتعلقُ به غالبًا، فيعقوب عليه الصلاة والسلام تعلق قلبه بولده يوسف كثيرًا فابتلاه الله بإبعاده عنه ليبلوَ صبرَه، وليُعَلِّمنا ألا نبالغَ في تعلقنا بالغير، ولِنستحضرَ أن الفراقَ في هذه الحياة سنةُ الله في جميع خلقه، وأن سعادة الروح لا تكون إلا بأن يتفرغ القلب لله وحده.

ولعلكم تجدون في الناس من يتسخط على القدر إذا أخذ حبيبًا له، وإذا ابتلاهم بمن يستأنسون به، وإذا فقدوا غاليًا على القلب من قريب أو صديق أو مال أو متاع، وهؤلاء غفلوا عن بلاء سيدنا يعقوب عليه السلام هنا، وعن بلاء سيدنا إبراهيم عليه السلام من قبله يوم أمره الله تعالى بذبح ولده الذي جاءه بعد زمن طويل، بل غفلوا عن بلاء سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم الذي ابتُلي بعمِّه، وزوجه، وأولاده، وثلاثٍ من بناته، وغيرهم من خيرة أصحابه.

﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ يقول لهم: وَصْفُكم لما جرى فيه كذب، وفيه احتيال ظاهر، وسأستعين بالله وحده على قسوة ما تفعلون وتزعمون.

استعان نبي الله بخالقه وهو يعلم عجزه عن كشف أمرهم، ويعلم علم اليقين أن رفع الحاجة إلى الله فيه الفرج والفوز والنجاة ولو بعد حين.

﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾

تنقلنا القصة القرآنية إلى مشهد جديد من مشاهد حياة نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام، والتي يظهر فيها لطف الله تعالى وكرمه مرة أخرى، وذلك بعد أن ألقاه إخوته في الجب ورجعوا إلى أبيهم بتفاصيل اختفائه، وهذا المشهد يحمل بلاءً جديدًا يدور حول استعباده وبيعه، ولكنه يدل على أن هذا الغلام ينتظره شأن عظيم.

مكث يوسف عليه السلام في البئر حتى جاءت سيارة وعلموا بوجوده، والسيارة هم الرَّكْبُ والجماعةُ المسافرون، وقد كانوا في طريقهم إلى مصر كما علمنا من تمام السياق القرآني في السورة.

وأما واردهم فهو الذي وجده وأخبرهم به، والوارد هو الذي يُحْضر لهم الماء من البئر، فالظاهر أنه لمذا ذهب لإحضار الماء وأنزل دلوه لنزعه تشبث يوسف بالإناء، وأشعرهم بوجوده، وناداهم ليخرجوه.

والقصة هنا لم تتكلم عن حال الغلام يوم كان وحيدًا في البئر، ولكن الغالب على الظن أن قلبه كان يجمع في تلك اللحظات بين أربعة أحوال هي: الغرابة والخوف والشوق واليقين؛ فالغرابة كانت من سلوك إخوته وأدائهم العجيب، والخوف كان من الوَحْدة المُوحشة ومن الموت القادم لا محالة، والشوق كان للذين عَمَروا قلبه بالأنس والمحبة والرعاية كأبيه وأخيه، واليقين إنما اكتسبه من بيت النبوة الذي نشأ فيه ورأى فيه عجائب قدرة الله تعالى.

والقصة لم تتكلم عن المدة التي مكثها هناك وإن كان بعض أهل التفسير أشار إلى أنها ثلاثة أيام، ولا دليل على ذلك، وإعراض القرآن عن المدة ربما لأن ذِكرها لا يخدم غرض القصة هنا.

﴿قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾ فرح الرجل بالغلام الذي وجده في البئر، واستبشر خيرًا، وأخبر من جاؤوا معه لأخذ الماء بما وجده، وأظهر سعادته أمامهم، ولعل سبب فرحه أن هذا الغلام قد يكون سببًا ببضعة دراهم تأتي من بيعه.

﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ الذين علموا بوجود سيدنا يوسف في البئر وقاموا بإخراجه هم الذين ذهبوا لإحضار الماء، ومنهم الوارد الذي باشر إخراجه، فلما عزموا على بيعه وأرادوا أن ينتفعوا بثمنه رجعوا إلى السيارة الذين معهم وأخبروهم الخبر، ثم تواطؤوا على جعلِ أمره سِرًّا مكتومًا بينهم لئلا يجدَه أهله ويأخذوه، يعني: لم يخبروا أحدًا من الأحياء القريبة التي تستفيد من ماء هذه الآبار لئلا يصل الخبر إلى أهله الذين يبحثون عنه.

ويغلب على الظن أنهم سألوا يوسف عليه السلام عن قصته فَقَصَّها عليهم، وإن لم يذكر السياق القرآني ذلك، ولعلهم خافوا ندم إخوته ورجوعهم ليأخذوه.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ عِلْمُ الله تعالى حاضرٌ في كل ما يقولونه ويفعلونه، وعنايته وحفظه لأوليائه يجري فيها قدره، وحكمته مضت بما ينفع الصالحين من عباده.

والله عليم بما فعله إخوة يوسف مع أخيهم وأبيهم، وعليم بما يفعله الوارد ومن معه من السيارة، وحكمة الله في ذلك فوق علم كل ذي علم.

الخلق والأمر إليه سبحانه، ولو شاء الله لسارع في عقوبته لإخوته الذين أساؤوا وظلموا وتعدوا، وأوصلوا أخاهم إلى الحال الذي تتكلم عنه الآيات، ولكنه يؤخر الجميع إلى أجل مسمًّى، فمنهم من تدركه التوبة وينال شرفها، ومنهم من يعمى قلبه ويزداد غيًّا وضلالًا.

وتذكَّروا معي أن هذه السورة نزلت على قلب نبينا عليه الصلاة والسلام وهو في مكة، وأن قومه تفننوا في الصد عن دعوته ودينه، وأنهم أقدموا على ما يؤذيه ويؤذي صَحْبه، وانظروا معي في التسلية التي ستَعْمُرُ قلبه بنزول مثل هذه الآيات، وكأنها تناديه وتقول له: الله عليم بما يفعله قومك بك، وهو حافظك ومُنَجِّيك منهم وناصرك عليهم، بل ستجد من قومك من يدخلُ الإسلام إلى قلبه، ويصبحُ علمًا من أعلام الجهاد والدعوة والخير ونشر التوحيد في الأرض.

وأظن أن رسالة هذه الآية وصلت إليكم أيها القابضون على دينكم، العاملون له، الباذلون أوقاتكم وأعماركم وأموالكم وأولادكم في سبيله، السائرون إلى الله على نور من الله، ترجون رحمته وتخافون عذابه، الصابرون على بلوى عدوكم من الكافرين والمنافقين دون أن تهتزَّ لكم شعرة في ذلك.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠﴾

شَرَوْه هنا معناها باعوه، والبائعون هنا هم السَّيَّارة الذين وجدوه، والآية تذكر أنهم كانوا راغبين عن ثمنه فلم يطلبوا ثمنًا يليق بغلام صغير جميل حمل من الأخلاق والفهم ما لا يحمله من هم في سِنِّه، ورضوا بثمن بخس، أي: قليلٍ أنقصَ من ثمنه العادي المعتبر، رضوا بدراهم معدودة يسرع عَدُّها ومعرفة قدرها.

ولعل زهدَهم فيه وقلةَ الثمن الذي طلبوه كان سببه أنهم لم يكونوا يعرفون قيمته الحقيقية في السوق، أو أنهم سارعوا في بيعه ورضوا بأي ثمن قبل أن يبحث عنه أهله ويجدونه ولا يستفيدون منه شيئًا.

وسبحان الله، كم من الأشياء تكون غالية في ميزان الدار الآخرة وهي عند الناس لا قدر لها، بل لا تكاد تُذكر، ولكم أن تنظروا في حال هذا النبي العظيم الذي يُسْتَعبد من صغره، ويباعُ في الأسواق، ويكون بيعه بثمن بخس علامةً على حقارة أمره عند بائعيه، ولكنه في حقيقة الأمر محفوظ بحفظ الله، وعناية الله تكلؤه وترعاه في حِلِّه وترحاله، وهو يصبح ويمسي والله راضٍ عنه، وقد قدَّرَ له في قادم أيامه أن يكون على خزائن أرض مصر، يأمر وينهى ويعطي ويمنع، ويأتمر كل الناس بأمره ولا يتجاوزونه.

صحيح أن بلاءه لم يكن سهلًا، ولكن حلاوة الصبر التي ذاقها على هذا البلاء، وحلاوة الثمرة التي قطفها في الدنيا فضْلًا عما ينتظره في الآخرة، تعطينا آفاقًا عظيمةً في تفكيرنا وأعمالنا وغاياتنا في الحياة الدنيا.

أقول لكم يا أهل الإيمان: هل تعلمون أن الله يذكركم في الملأ الأعلى إذا ذكرتموه، وأن مكانكم محفوظ في ديوان السماء إذا قمتم بدعوتكم خير قيام ولم ترتدوا على أعقابكم، وأن الله يباهي بكم الملائكة إذا لزمتم باب العبودية ولم تفرطوا، وأنه أعد للصابرين منكم جزاءً عظيمًا يجعل أهل العافية يوم القيامة يتمنون لو نزل بهم البلاء في الدينا.

والمطلوب: لا تتمنوا البلاء، ولكنه إذا نزل فاصبروا، وكذلك قوموا على مدافعة أهل الباطل والفسق والفجور، ولا تفروا من معركتكم معهم لخوف أو يأس أو قنوط، وافقهوا عن الله طريق مرضاته، واصبروا ثم اصبروا ثم اصبروا.

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا من لطف الله بعبده يوسف عليه السلام، وهو لُطفٌ لا يستغني عنه أحدٌ مِنَّا، ولولاه لكان في حياتنا ما كان، ولولاه لكشف المستور وتسلط علينا أراذل الناس، ولجَرَت أقدارنا على خلاف الوجه الذي نحب.

أكرم الله نبيه يوسف عليه السلام بمن يدفع ثمنه ويشتريه، ويعتني به عناية فائقة تعينه فيما حصل معه، وأجرى الله على لسان هذا المشتري ما تقر به أعيننا ونحن نتتبع قصة هذا النبي الكريم، وكأني به يوم أوصى امرأته قد وقع حب هذا الغلامِ في قلبه، وتوسَّم فيه الخير والصلاح، وأدركته شفقة عظيمة عليه تكفي لحمايته من شرور الدينا وصعوبة الغربة فيها.

عزيز مصر هو الذي اشتراه كما تبين الآيات فيما بعد، وعزيزها لقب يطلق على الوالي الذي يختاره الملك ليكون على خزائن مصر يتصرف بأموالها على النحو المرضي، ويصول فيها ويجول، ويكون كذلك رئيسًا لشرَطَتها.

يقول لزوجته: أكرمي مثواه: أي: سيقيم هذا الغلام عندنا في قصرنا فاجعليه في تكرِمَة، وأحسني إليه، وجنبيه الإهانة والصَّغار، ولا تعامليه معاملة العبيد والخدم لعله ينفعنا بوجه من وجوه النفع كالنصح والتعليم والحماية وغير ذلك، أو نتخذه ولدًا لنا يملأُ قلبنا ويسعدُنا كما يسعد الأولاد آباءهم، ويكونُ قرة عين لنا ووارثًا لمالنا ومَجْدنا. وقد فهم أهل العلم من كلامه أنه لم يكن لهم ولد.

وأهل التفسير يذكرون في كتبهم أن اسم امْرَأَتِهِ رَاعِيلُ، ومنهم من يقول: هي زُلَيْخَا أو زَلِيخَا، ولعلهم أخذوا ذلك عن أهل الكتاب.

ويظهر جليًّا من وصيته وفائق عنايته أنه كان صاحب فِراسة، وأنه وجد في هذا الغلام كفاءة كان يبحث عنها ويرجوها، وأنه أحس بذكائه وكذا بمعالم بركته التي ظهرت في مجلسِه ومنطقِه وممشاه.

ولقائل أن يقول هنا: هل انتهى بلاء نبي الله يوسف يوم دخل القصر وعاش في سعة وراحة وعلم وفهم؟ وهل اقتصر بلاؤه في حياته على معاملة إخوته له وإلقائه في البئر ثم استرقاقِه وعبوديته؟ والجواب أن البلاء لم يتوقف هنا، ولم يقتصر على البلاء بالشر، ولكن دخوله إلى بيت العزيز كان مقدمة للبلاء بالخير، وهذا أمر لا ننساه في معرفة حقيقة البلاء الذي جعله الله تعالى في الحياة الدنيا، وهو المذكور في قول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وزيادة في البيان أقول: الصحة والفتوة والمال والجمال وكثرة الولد نِعَمٌ من الله تعالى يرجوها المحروم منها، ولكنها كذلك بلاء لأصحابها، وقد تكون سببًا لغفلتهم عن حقيقة شكر المنعم، بل هي حسرة عليهم إذا لم يؤدوا حق الله فيما أعطاهم. قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كما أن الله تعالى أنقذ يوسف من بطش إخوته وهَمِّهم بقتله، فكذلك فتح له أبواب التمكين في أرض مصر، ويَسَّر له طرائقَ السيادة والقيادة، وقرَّبه من أصحاب القرار الذين قد يُجري الله على يديه بصلاحهم خيرًا كثيرًا.

والمقصود هنا في الآية هو ابتداء التمكين له في الأرض، وحصول أول محطة من محطاته، ولكن اكتماله إنما كان بعد سنين من البلاءات والأحداث، وفي ذلك جاء قول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سُورَة يُوسُف: ٥٦].

﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾ أعطاه الله مفاتيح تأويل الرؤى والأحلام، ووهبه مَلَكَةً يعرف بها تفسير ما يراه النائمون، فالذي نتكلم عنه غلامٌ تربَّى في بيت نبوة وصلاح وعلم وفهم، وما أعظم البيئة الصالحة يوم يُكرمُ الله بها.

﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ أراد إخوة يوسف أمرًا فأبطل الله كيدهم، وأوصله إلى مفاتيح الملك والسيادة، فإنه جلَّ وعلا إذا أراد شيئًا فلا راد لحكمه ولا معقِّب لأمره، ولا يقع إلا كما أراد، وإذا قدَّر لأحد أن يفتح له خزائنه ويكرمه برضوانه ورحمته فلا رادَّ لفضله، سبحانه، عزيزٌ قديرٌ عظيمٌ فعَّالٌ لما يشاء.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أكثر الناس يستعجلون الخير ويستكثرون منه دون استحضارهم لحكمة الله في المنع والإعطاء وحصول البلاء، وقليل من الناس من يتوكل على حسن اختيار الله له، ويرضى حق الرضا بالله ربًّا ومُعطيًا ومقدِّرًا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

مشهد من مشاهد هذه القصة العظيمة تنقلنا إليه آيات القرآن، مشهد يحمل في طيَّاته حياة هنيئة جميلة نشأ فيه الغلام الذي انكسر قلبه انكسارًا عظيمًا بفعل أقرب الناس إليه يوم كان صغيرًا.

كبُر الغلام ولا أظنه نسي والده وأخاه يومًا واحدًا، وها هو قد بلغ أشدَّه، أي: تجاوز فترة الصِّبَى وصار شابًّا قويًّا يملك أمره ويستقل برأيه وفِكره، ويَقْدر على تحمُّل الأعباء.

هنا يكرمه الله تعالى بكرم عجيب من نوعه وكُلُّ كرم الله عظيم، ويؤتيه قدرة للحُكم على الأشياء بطريقة يفتقدها كثيرٌ ممن هم في عمره، وها هو يدرك حقائق الأمور ويضعها في نصابها اللائق بها، ويعطي النوازلَ والمشكلاتِ القضاءَ الصحيحَ والفقهَ اللازمَ، ويصبح لكلمته ورأيه تأثيرًا على الناس وتوجيهًا مقبولًا لهم.

وكان مما آتاه الله يوم بلغ أشدَّه العلمُ، والمقصود به علمُ النبوة، بمعنى أن الله تعالى يوم بلغ أشده اصطفاه بالنبوة وأرسل إليه رسولَه إلى الأنبياء جبريلَ عليه السلام، وهذا على قول عند أهل العلم. ومنهم من قال: إن المقصود بالعلم هنا البصيرة والفهم وإدراك الأمور على حقائقها.

واجتماع الحكم مع العلم لشاب في عمر سيدنا يوسف عليه السلام سيكون له أثره في الوقوف أمام فتنة الزنا، ثم الصبرِ في السجن، ثم الفصلِ في شريان حياة المصريين، أعني المال وما يتبعه من نظام وقضاء، ثم العفوِ عن إخوته وجمعِ شتات أسرتهم التي طال افتراقها.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ختام الآية هنا يعطينا مفتاح اصطفاء الله له، ويخبرنا بأن يوسف عليه السلام كان من أهل الإحسان الذين يحرصون على أوامر الله، ويعطون طاعة الله تعالى حقَّها، ويحملون قلبًا تعلق بالخالق حُبًّا ورغبة ورهبة، ولا يتبعون أهواءهم، ولا يستسلمون لشرور أنفسهم.

ولفظة ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ يعلمنا أن حفظ الله تعالى موفور لكل من أحسن، وقريب من كل من حمل خصال هذا النبي، ويعلمنا أن عطاء الله ليس مقصورًا على أنبيائه ولكنه يصل إلى كل من تحلَّى بخَصْلة الإحسان وثبت عليها، وأنَّ الفهمَ عن الله وحسنَ القضاء يصطفي الله لهما أولئك الذين أقبلوا على الكتاب والسنة، وسبقوا في الطاعة ورَعَوْها حق رعايتها.

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾

تصف الآية ما فعلته امرأة العزيز مع سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام بعد أن استوى وأصبح في سن الشباب، وبعد أن جَمَعَ العلمَ والحكمةَ والفهمَ، وبعد أن آتاه الله جمالًا سيأتي وصفه في قادم الآيات التي تذكر تقطيع النسوة لأيديهنَّ لمَّا خرج عليهنَّ.

راودته، أي: حاولت معه وكررت في طلبها وسَعْيها، وكانت مراودتُها له ليفعلَ الفاحشة معها، ولتطفئَ النار التي في قلبها، ولتظفرَ بما سوَّله الشيطان لها من راحة الفكر وسعادة الروح، وهو ما يرجوه أهلُ الزنا والفاحشةِ فيما يفعلون.

والمراودة هذه لا تصل إليها إلا بعد أن تعلَّقَ قلبُها بهذا الشاب، وبعد أن راقبته في كلامه وأفعاله وسائر أحواله، وبعد أن فسد قلبها باستطرادها مع أفكار السوء، ووقوعها في حبال الخيالات والمقارنات والتمني والتشهي، وبعد أن استحوذ عليها الشيطان فأنساها نعم الله عليها وجعلها تسعى في الإغراء والتهييج.

وعبارة: ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ تدلك على شدة صبر يوسف عن الوقوع في الحرام، فإنه من عاش في بيت وهو غريب عنه كان لزامًا عليه أن يطيع أهله فيما يأمرون ليردَّ الجميل إليهم.

وعبارة: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي: خادَعَتْه عن نفسه التي كانت بعيدة عن التفكير في الخيانة والزنا، وراوَغَتْه عن نفسه المستقيمة في بنائها العقائدي والعلمي، والتي تربَّتْ على الخشية والطاعة، وألا تطرق مُتَعَ الحياة ولذائذَها إلا بالحلال.

﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾ القرآن يذكر أنها أعدَّت لهذه الخلوة عُدَّتها، وعملت على تغليق الأبواب إغلاقًا مُحكمًا، وهذا الإغلاق لم يقتصر على باب واحد ولكنه امتدَّ لأكثر من باب زيادةً في الاحتياط من دخول أحد عليهما، ودرءًا للفضيحة.

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ القرآن يذكر أنها هي التي دعته إلى نفسها وابتدأت في ذلك، وأنها بعد أن احتاطت لنفسها وقَدَّمت جُمْلة من أسباب فعل الفاحشة قالت له: هَلُمَّ إلى الزنا واقترب وبادِرْ وتعال فإني لك أنت، وقد تهيَّأتُ على الوجه الذي يرضيك ويسعدك، وتجَمَّلْتُ طلبًا لقربك، وتزيَّنتُ لتنال مني ما تريد.

قال بعض أهل العلم: بلاؤه في هذا الموقف أصعب من بلائه مع إخوته، وصبرُه في هذا الموقف أعظمُ أجرًا، والسبب في ذلك أن صبره هنا كان صبرَ اختيار قدَّم فيه محبة الله تعالى مع قدرته على مخالفة أمره، بخلاف صبره على إخوته فإنه كان صبرَ اضطرار لعدم قدرته على دفع أذيتهم والتخلص من شرورهم.

والناظر في صبر يوسف عليه السلام عن فعل الفاحشة مع امرأة العزيز، يجد فيه ما يحتاجه أبناء الأمة وبناتها في هذا الزمن في صبرهم على الفتن التي يتعرضون لها، والتي عصفت بقلوب كثير منهم، وصرفتهم عن استقامتهم التي عاشوها فترة من الزمن وتربَّوا عليها.

ويجد كذلك في هذا الصبر مفتاحًا للنجاة من الوقوع في الخيانة لنصفنا الثاني في حياتنا، ويجد توجيهًا وتذكيرًا لكل من اقترب من مقدمات الزنا ظانًّا أنه يملك نفسه عن الوقوع في هذه الكبيرة، ولكل من سوَّلت له نفسه أن يعبث بأعراض الناس ويتسلَّى بها.

انظروا معي في دواعي المعصية التي أحاطت بنبي الله يوسف عليه السلام ليقع فيها، وتأملوا في صعوبة كل واحد منها عليه، وكيف ثبت أمامها جميعًا وقال كلماتٍ لا تغيب عن أهل الصلاح والخشية والعمل للدار الآخرة، أعني: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

فمن هذه الدواعي أنه شابٌّ أعزب لم يسبق له الزواج، وأنه غريب عن بلده وأهله، والغريب قد يتجرأ على بعض المحارم التي لا يفعلها في أرضه، ثم إن المرأة هي التي دعته إلى نفسها وراودته عن نفسه فلا تعب في الوصول إليها ولا احتيال.

وتذكروا معي أن التي دَعَتْه هي سيدته التي أشرفت على تربيته واعتنت به، والتي لا يليق به أن يردَّ لها طلبًا أو أمرًا، وقد غلقت الأبواب ليأمن على نفسه من الفضيحة وظهور الخيانة، ثم إنها سيدةٌ من سيدات أهل مصر ممن أوتي جمالًا ومكانة.

هذه الدواعي يتعرض لها القابضون على دينهم من أبناء الأمة وبناتها كل يوم، فكثير من أهل الفحش والعُهْر ينادون على أهل العفة بلباسهم وكلامهم وطريقة مِشيتهم، وينادون عليهم بصورهم الفاتنة ومشاهد التمثيل المثيرةِ للغرائز، والفاتحةِ لجملة من أبواب الشرور، يقولون لهم: هَيْت لكم.

بل ينادون عليهم بصريح العبارة يدعونهم إلى الزنا، ويقدمون فحشهم على طبق من ذهب بألوان شتى يطير معها عقل أهل الغفلة والهوى، نعوذ بالله من الفتن.

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ هذا الجزء من الآية احفظوه جيدًا، وتحصَّنوا به واستعملوه في ثباتكم أمام من قال لكم: هيت لك، ولا تجعلوه يغيب عن أفهامكم وأذهانكم، فإنه رأسمال المؤمن في حياته، وهو الذي يحول بينه وبين الذنوب التي اقترب منها قلبُه، وهو مفتاح النجاة من الوقوع فيما يُسخط الرَّبَّ ويغضبُه.

يفقه أهل الصلاح أنه لا حول لهم مع انتشار الفواحش، ولا قوة لهم مع قربها منهم إلا باللجوء إلى الله تعالى وصدقِ الاستعانة به، ويعلم أهل الصلاح أنهم إن تخلى الرحمن عنهم فقد خسروا الدنيا والآخرة. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

امتنع يوسف عليه السلام من طلب سيدته، ولجأ إلى من يربط على القلوب ويثبتها، واستعانَ بالعظيم الذي يراه في خلوته ويعلم قرب الحرام منه، وفرَّ إلى الله الذي أعطى وأكرم ووهب، وقال لها: أعوذ بالله وأعتصم به من أن أطيعك فيما طلبت، أو أن أبيع جنة عرضها السماوات والأرض من أجل لذَّةٍ لحظيَّة فانية لا يعقبها إلا الحسرة والندامة، ولا ينال فاعلُها إلا الخزيَ في الدنيا والآخرة.

ولعلنا نلتمس في كلامه هنا معانيَ الإيمان والعفة، والاعتزازَ بترك المنكرات، والثقةَ بالطريق، وهو ما تحتاجه الأجيال السائرة إلى الله وإلى عزة أمتها ونجاتها.

ولا يفوتني أن أستحضر في هذا الزمان أصنافًا من شباب الدعوة ممن تعرَّضوا لفتنة النساء التي هي أضرُّ فتنة عليهم، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: إنا نخاف الله، ثم أغْلَقوا أبوابَ الفتنة بكاملها ولم يلتفتوا إلا إلى ما أحل الله لهم، وكأنهم المقصودون بالحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والذي بيَّن فيه رسول الله ﷺ سَبْعَة أصناف يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، وذَكَر منهم: «وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ».

ولا يفوتني استحضار صنفٍ من بنات الدعوة والخير والصلاح، ممن نذرت نفسها لتكون من أهل العفة، والتي راودها عدد من ضعاف النفوس ليوقعوها وينالوا منها تنازلًا واحدًا، وعرضوا عليهًا ألوانًا مما تشتهيه النفوس من الأموال والأسفار فاستحضرت عظمة خالقها، وفرَّت بدينها ولسان حالها: إني أخاف الله .

﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ يقول سيدنا يوسف عليه السلام لها: صحيح أن امتناعي عن اقتراف الفاحشة إنما هو من خشية الله، ولكنه كذلك له تعلُّق بوفائي لزوجك عزيزِ مصرَ الذي اشتراني وأدخلني بيته، ثم أكرمني وأحسنَ إليَّ وكفلني، وائتمنني على بيته وأهله، وحفظني في وقت كنت قريبًا فيه من الضياع والشتات، فكيف أخونه في عرضِه وأتعدَّى على حرماتِه، وكيف أقابل إحسانه بالقُبْح والسوء.

فالمقصود بربه هنا هو سيده ومالكه، فإن لفظة «الرَّبِّ» تطلق في اللغة على السيد. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، أي: عند الملك الذي هو سيدك. وتطلق لفظة «الرب» في اللغة كذلك على الأب والأخ الكبير.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ يقول لها: إذا أطعتك فيما أمرتِ كنتُ من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وعقوبته، وكنت ممن ترك سبيل الفلاح وخسر الخسران المبين في الدَّارَيْن، وكنت ظالمًا لأهل بيتك وقرابتك الذين أعطيتهم الأمان على بيتهم وعِرضهم، فأنا أصون نفسي عن الظلم وشُؤْمِه وعاقبته.

وفي ختام هذا المشهد تأملات علمية وتربوية أذكرها في محاور:

١- نسمع في كلام عدد من العصاة الذين اتبعوا خطوات الشيطان حتى وقعوا في الزنا أو مقدماته، أن الطرف الآخر كان هو الداعي لذلك، وهو الراضي بهذا الفجور.

بل قد يعتذر أحدهم عن وقوعه في الزنا ومقدماته بكلامه عن علم الوالدين ورضاهُما بما يحصل، ويظنون أنهم بذلك خرجوا من خطيئتهم وظلمهم للآخرين، وأن الأمر أيسرُ وأهونُ.

ومن تلبيس إبليس عليهم أن الواحد منهم إذا حصل في قلبه شيءٌ من اليقظة والرغبة في التوبة وترك الفجور، وإذا بدأ يمضي في خطوات اجتناب الحرام من هجر معصية الزنا وهجر طرفها الثاني بالكامل، أقول: من تلبيس إبليس عليه أنه إذا فعل ذلك بدأ المهجور بتقديم تنازلات جديدة، وتظاهر بالمرض والقهر والرغبة في الانتحار، وداوم على ذلك حتى ضَعُفَ صاحب التوبة، وتحركَ ما في قلبه من الهوى، ورجعَ إلى طرائق الشرور خوفًا على المحبوب، وخروجًا من خطيئته بزعمه.

والغالب على الظن في وصف هؤلاء أنهم غافلون أو متغافلون عن حقيقة جُرْمهم وعمَّا ينتظرهم، فالرضا الذي يبديه الطرف الآخر بالمعصية أو يبديها أحد والديه لا يجعلها حلالًا، ولا يجعلُ أمرَها أيسرَ، ولا يُخْرج أحدًا منهم من شؤم المعصية وعقوبة فاعلها.

ثم إن تهاونهم هذا علامةٌ على خفة الإيمان والعقيدة في القلوب، ودليلٌ على أن عظمة الربِّ عندهم لم تبلغ مبلغها المرجوَّ، وأن توبتهم كانت ضعيفة لغلبة الهوى على التقوى.

انظروا إلى نبي الله يوسف كيف انتفض لمَّا أرادته، وكيف تسلح بالشجاعة لمَّا هدَّدَتْه، وكيف طار بدينه من شَرَك الفجور والعهر إلى عِزِّ الطاعة والعبودية والمراقبة، مع أن الطرف الآخر هو الذي ارتمى في حضن الحرام وحاول وراود وقدَّم ما يستطيع.

ولا نُنْكر أن ثمة صنفًا يعيش بيننا قد غرق في الفسق، وأسرف على نفسه بفعل الفواحش وتَتَبُّعِ طرائقِها، وأصبح الحرام له مألوفًا حتى صَعُب عليه فراقه، واستباح لنفسه ألوانًا من الفواحش والعلاقات المحرمة تحت ذرائع موهومة، وفتح على نفسه أبوابًا غاب معها الحياء وغابت التقوى والعفة، نسأل الله السلامة والعافية.

ولذلك نوصي من ابتُلي بشيء من ذلك أن يبادر في إنهاء كل علاقة قامت على غير شرع الله، وأن لا يخشى في ذلك لومة لائم، وأن يسارع في اختيار أحد أمرين، إما الزواجُ بمن يرضى دينها، وإما عفةُ يوسفَ التي نادانا الله تعالى بها في قوله سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣].

وهنا همسة أخصُّ بها فتياتنا وبناتنا: لا تغتري كثيرًا بصاحب اللسان المعسول الذي أحاطك بكلمات الحب والحنان، وأثار فيك ما تنتظرينَه بشوقٍ من زوج المستقبل، ولا تنخدعي بشدة اهتمامه بك وجنونِه المزعوم، فالغالب أنه فعل هذا مع غيرك أو يفعله، والغالب أنه ممن طاش عقله ولا يصلح لقوامة الزوجية التي ترفعين رأسك بها، والغالب أنه يتسلى بالأعراض ولا يثبت على مبدأ أو رأي.

نصيحتي: اصبري على صعوبة ما تجدين، واحفظي قلبك، واستعيني بالله في ذلك، واهربي بدينك خير لك وربي.

وأقول لهنَّ لأعيش مع الواقع: من أرادَكِ بخير وارتضيتِ دينه وخلقه فليأت البيت من بابه، وليبذل ما يبذله الصادقون في حُبِّهم وسعيِهم للزواج، وليطرق باب تكوين الأسرة فإنه باب خير عظيم له ولدينه ولأمته.

وإن كنتِ ممن تزوجَتْ بعد قصة حُبٍّ حصل فيها تجاوز للآداب الشرعية المأمور بها فاحرصي على السِّتْر، ولا تلتفتي للوراء، واصدقي الله تعالى بالاستغفار فإن الله تعالى واسع المغفرة، وعَلِّمي أبناءَك وبناتِك مفاتيحَ الثبات في وجه الفتن والشهوات.

٢- من غريب حال أمتنا في هذا الزمان أننا لا نجد عناية لائقة من القائمين على أمرنا بإغلاق أبواب الزنا على أصحاب الهوى، ولا نجد التربية الكافية لصرف قلوب أبناء هذا الجيل وبناته عن سوء الأخلاق ومنكراتها.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أن النبي ﷺ قال في خطبة الكسوف: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا» **[الحديث]**.

بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك فلم يعتنوا بتطبيق أحكام الشريعة فيما يخصُّ الاختلاط والتبرج وغيرَهما، ولم يُطَبقوا العقوبات الشرعية المتعلقة بحفظ الأعراض كحدِّ الزنا وحدِّ القذف، فالزاني لا تتجاوز عقوبته في عدد من بلاد المسلمين ثلاثَ سنوات في السجن، وقد تُخَفَّفُ في عدد من الظروف والأحوال إلى ستة أشهر، وقد تسقط بإسقاط صاحب الدعوى دعواه وشكواه.

٣- الزنا أن يطأَ الرجل غير زوجته ويجامعَها، وهو رذيلة من الرذائل التي يأنف منها الشرع، وتأنفها الطباع السليمة والنفوس السَّويَّةُ، وهو كبيرة من كبائر هذا الدين، وتحريمه والتنفير منه معروف في الشرائع السماوية كلِّها.

وتأملوا كيف سمى الله تعالى الزنا فاحشة، فالفاحشة من الفُحْشِ، وهو الْأَمْرُ الشَّدِيدُ الْكَرَاهِيَةِ وَالذَّمِّ، وتطلق اللفظة على من تجاوز الحد في شيء ما، والزاني والزانية مفسدون متجاوزون للكثير من القيم والمبادئ، بل متجاوزون لما ربَّاهم عليه الشرع وأرشدهم إلى فعله.

٤- ومن أجل حُرْمة الزنا أمر الشرع بغض البصر للرجال وللنساء، ومَنَعَ الخلوة بالأجنبية، وهي التي يجوز الزواج منها في يوم من الأيام، وحذَّر الرجال من الدخول على النساء دون وجود مَحْرم ودون أمنٍ للفتنة، وأوجب اللباس الشرعي على المرأة، ومَنَعها أن تخرج مستعطرة أو كاشفة لشعرها وبدنها، وحرَّم عليها الضَّرْبَ بالأرجل بقصد إظهار الزينة للرجال، وأرشد معاشر الشباب إلى الزواج، وأوصى العاجز منهم بالعفة، والاستعانة بالصيام، ومدح أهل الحياء، وحرم النكاح من الزاني والزانية، وأخبر أن الطيبين للطيبات، وغيرِ ذلك من الأحكام التي يُفْهم منها أننا نعيش في مجتمع واحد نتعاون فيه على البر، ونغلقُ أبوابَ الشرور والآثام.

٥- العقوبة الشرعية التي أوجبها الشرع على الزنا في الدنيا تدل على عظم هذا الجُرْم، فالرجم للمُحْصن ليس هيِّنًا ولا الجلد لغير المحصن كذلك، والشرع أوجب في إقامة عقوبة الزنا شهود الناس ليحصلَ الخزي للفاعل، ويرتدعَ غيرُه.

٦- وفي التنفير من فاحشة الزنا خاطبنا ربنا جل وعلا وقال لنا: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]. وصدق ربي لما أخبرنا بأن الزنا ساء سبيلًا وطريقًا، وإياكم أن تظنوا أن هذا السوء يقتصر على الحياة الدنيا، بل هو ممتد إلى ما بعدها، وإليكم البيان:

أما في الدنيا فاعلموا أن الزناة يُحْدثون في أنفسهم وفي مجتمعاتهم طامَّات كُبرى، فمنها على سبيل التمثيل لا الحصر أنهم ينتهكون حرمة البيوت، ويخلطون الأنساب، ويُفسدون غَيْرتهم على أعراضهم، ويُلْحقون العار الذي ما بعده عار بالأهل والزوج، وينشرون الفاحشة في المجتمع، ويُسَهِّلون على الغير وقوعهم في الذنب، ويَضيعُ أهلوهم على الغالب بحصول الطلاق أو بالخصومة والشحناء أو بفساد الأبناء.

وقد استقرأ عدد من علماء الوعظ والإرشاد ما يُحْدثه هذا الذنب في قلب صاحبه وحياته، فذَكَروا أنه يورث الفقر ويُقَصِّر العمر، ويكسو صاحبه سواد الوجه وثوب المقت بين الناس، وأنه يشتت القلب ويمرضه إن لم يُمته، ويجلب الهَمَّ والحزن والخوف، ويباعد صاحبه من المَلَك ويقربه من الشيطان، ويُخشى على فاعله من سوء الخاتمة.

أخرج أحمد والطبراني عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه، قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. (أي: ما هذا؟ اسكت) فَقَالَ النبي صلى الله عليه وسلم: «ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا». قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قَالَ: لَا وَاللهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ.

وأخرج ابن ماجه والبزارُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا» **[الحديث]**.

وأخرج الطبراني والحاكم بسند حسن عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا ظَهَرَ الزِّنَا وَالرِّبَا فِي قَرْيَةٍ، فَقَدْ أَحَلُّوا بِأَنْفُسِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ».

وفيما يخص عذاب الزناة في البرزخ، أي: في حياتهم بعد الموت وقبل البعث، أخرج البخاري عن سَمُرة رضي الله عنه، حديثًا يتكلم عن رؤيا رآها النبي صلى الله عليه وسلم، ورؤياه حق كما تعلمون، وفيها يقول: «فَانْطَلَقْنَا (أي: النبي عليه الصلاة والسلام والملَكين)، فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ (هو الذي تكون فيه نار ويخبز فيه) فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ» قَالَ: «فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا» (يعني: ارتفعت أصواتهم) قَالَ: «قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلَاءِ؟ يعني: سأل نبينا صلى الله عليه وسلم المَلَكين: «من هؤلاء»؟، قيل: «وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي» **[الحديث]**.

وفي أرض المحشر أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ: شَيْخٌ زَانٍ (وهو الكبير في السن)، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ(والعائل هو الفقير)». وَفِي رِوَايَةٍ: «وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وأخرج البزار في مسنده عَنْ سَلْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الشَّيْخُ الزَّانِي، وَالْإِمَامُ الْكَذَّابُ، وَالْعَائِلُ الْمَزْهُوُّ». أي: الفقير المتكبر.

وجاء في خصوص من يستغلون غيبة الأزواج عن زوجاتهم بسبب السفر للتجارة والعلاج ونحوهما، أو يستغلون طول غيابهم في سعيهم للرزق، أو يستغلون سوء العلاقة وبرودها بين الزوجين فينفثون مكرهم وسمومهم للتغرير بالزوجة وإيقاعها في المحظور، أقول جاء في خصوصهم الحديث الضعيف الذي أخرجه أحمد وغيره عن أَبِي قَتَادَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ قَعَدَ عَلَى فِرَاشِ مُغِيبَةٍ قَيَّضَ اللهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُعْبَانًا». والمغيبةُ هي التي غاب عنها زوجها.

وفي خصوص حفظ أعراض أهل الجهاد جاء ما أخرجه مسلم عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟». وفي رواية عند النسائي: « ثُمَّ الْتَفَتَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا ظَنُّكُمْ تَرَوْنَ يَدَعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئًا؟».

﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾

هذه الآية فيها زيادة تفصيل لما حصل بين زوجة العزيز ونبي الله يوسف عليه السلام، وهي من الآيات التي توقف معها أهل العلم في مسائل متعددة أذكرها في النقاط الآتية:

١- قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾، أي: همت زوجة العزيز بيوسف عليه السلام، أي: اقتربت منه واستسلمت له ليفعل الحرام معها، وكانت جادَّةً معه في ذلك وليست مُختبرةً له، وذلك بعد أن حدَّثت نفسها بذلك وخططت، ثم أظهرت مفاتنها له وشوَّقته إلى نفسها.

نسيت امرأة العزيز أن مفاتنها ومفاتنه إلى زوال، وأن عاقبة أمرها خُسرًا، وأنها إن سلمت من الفضيحة والذلة في الدنيا فلن يطمئن لها قلب، ولن يهدأ لها بال كلما نظرت في وجه زوجها وَمَن حولها.

قليلٌ أن تجد امرأة تدعو رجلًا للفاحشة صراحة، فهذا مما تأباه طبائع النساء اللاتي يغلب عليهنَّ الحياء وإن ابتعدت الواحدة منهن عن دينها، والغالب في شأن المرأة أن تكون مطلوبة لا طالبة، ويغلب على الظن أنها لا تصل إلى هذا الأمر إلا بعد أن يُقتل في قلبها الكثير من معاني الكرامة والأنفة والعزة، وبعد أن تفقد معالم التربية الصحيحة، ومراقبةِ الله جل وعلا.

٢- قول الله سبحانه: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ قولان لأهل العلم في الهَمِّ الذي كان من نبي الله يوسف عليه السلام:

الأول: أنه هَمَّ بها على الحقيقة، أي: تحرك في قلبه ميلٌ لزوجة العزيز واقترب منها، ولكن الله تعالى حفظه من الزلل بالبرهان الذي رآه، ثم إنه انصرف عنها وهرب منها. وهو قول جمهور الصحابة والتابعين وأئمة التفسير.

ولقائل أن يقول هنا: وهل يصدر مثل ذلك من الأنبياء؟ والجواب أنه ليس عندنا نصٌّ يدل على أن هذه الحادثة كانت قبل النبوة أو بعدها، ولكن بعض أهل العلم أشار إلى أنها كانت قبل النبوة لأن الغالب على سن النبوة أن يكون في الأربعين.

ومنهم من قال: لقد كانت نبوته بعد اجتماعه بأبيه وإخوته في مصر، وبعد أن مات أبوه عليهما السلام.

وهنا مسألة علمية ناقشها أهل التخصص والفهم، وهي: هل الأنبياء معصومون عن الوقوع في الزلل؟ والجواب أن أهل العلم أجمعوا على أنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى من الوحي، وأنهم معصومون كذلك عن الوقوع في الكفر والشرك.

أما كبائر الذنوب فأكثر أهل العلم على أنهم معصومون منها قبل النبوة وبعدها، بخلاف الصغائر التي ربما تقع منهم أو من بعضهم ولكنهم يُنَبَّهون إليها فيبادِرون إلى التوبة منها، كما حصل من ذنب آدم عليه السلام بأكله من الشجرة، وذنب داود عليه السلام بالتسرع في الحُكْم، وذنب موسى عليه السلام بوَكْزه للقبطي وموته، وكما حصل مع نبي الله يوسف عليه السلام هنا من الهم بزوجة العزيز التي راودته، وغير ذلك.

وقد خاطب الله تعالى نبيه محمدًا عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ **[الفتح: ١-٢].**

قال أهل العلم: ووقوعهم في الذنب للتأكيد على بشريتهم، ولتبقى قلوبهم منكسرة للرب العظيم كلما ذكروا الذنب، وليستحضروا نعمة الله عليهم بسِتْره وعَفْوه وحِلْمه.

الثاني: قاله بعض أهل التفسير مستحضرين عصمة الأنبياء، وباذلين ما تحتمله اللغة ليصرفوا عنهم أوهام السوء وكلام الظنون.

فمنهم من قال: إن لفظة ﴿لَوْلَآ﴾ في الآية تدل على امتناع وقوع الهَمِّ بها، فيكون المعنى أنه لم يقع منه همٌّ لمَّا رأى برهان ربه، ولم يتحرك في قلبه شيءٌ نحوها، فيكون في الآية تقديم وتأخير، ويكون التقدير: وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَلَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ لَهَمَّ بِهَا.

ومنهم من قال: إن يوسف عليه السلام همَّ بضربها وإلحاق الأذى بها ليُبعدها عنه.
ومنهم من قال: تمناها زوجة له.
ومنهم من قال: إن الهم الذي حصل منه إنما هو خاطر جاء على قلبه ولم يحصل أي عزم أو فعل في ذلك.

وهذه الأقوال منها ما هو بعيد عن سياق الآية وقواعد التفسير وشواهد أهل اللغة، ومنها ما يحتمله السياق وإن كان قول الجمهور هو الأقرب.

وتفصيلُ ذلك أنَّ ما يقعُ في النفسِ الإنسانيةِ ليس على مرتبةٍ واحدةٍ، بل على مراتبَ وأحوالٍ إليكُموها مع بيانِها وبيانِ حُكمِها:

أولًا: الهواجسُ والخواطرُ التي تَرِدُ على القلبِ، وتأتي على الفكرِ ممَّا لا يستطيعُ الواحدُ منَّا دَفْعَها، فهذه لا نُؤاخَذُ بها، ولا نُحاسَبُ عليها بفضلِ اللهِ وكرمِه. ويَلحقُ بذلك حديثُ النفسِّ الذي يتردَّدُ صاحبُه بين الفعلِ وعدمِه، يعني: هلْ يَفعلُ أو لا، دون عزمٍ أو نيَّةٍ أو إرادةٍ للفعلِ. وفيه جاءَ حديثُ الصحيحينِ واللفظُ للبُخاريِّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه يَرْفَعُهُ، قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا وَسْوَسَتْ، أَوْ حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَكَلَّمْ». واستدَلُّوا على ذلك بروايةٍ أخرجَها أحمدُ في مسندِه، قالَ فيها ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: «فَتُجُوِّزَ لَهُمْ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ، وَأُخِذُوا بِالْأَعْمَالِ».

ثانيًا: ومن المراتبِ مرتبةُ الهَمِّ بالشَّيءِ فعلًا أو تَرْكًا، وهو نوعانِ:

أ- منه ما هو حديثُ النَّفسِ اختيارًا، ولا يَصحبُه عزمٌ أو نيَّةٌ أو إرادةٌ جازِمةٌ؛ فهذا لا يُؤاخَذُ به العبدُ كذلك.

ب- ومنهُ ما يكونُ معه عزمٌ ونيةٌ، وأهلُ اللغةِ يقولون: همَّ بالأمرِ، أيْ: عَزَمَ على القيامِ به. ويقولون: هَمَّ الرجلُ لنفسِه، أي: طلبَ واحتالَ. وفيه جاء الحديثُ المتفقُ عليه واللفظُ لمسلمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا، لَمْ أَكْتُبْهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً».

فهذا الحديثُ يدُلُّ على أنَّه من همَّ بالخيرِ وعَزَمَ عليه وأرادَ فِعلَه فإنَّه يُؤجَر على كلا الحالينِ، سواءً فعلَه أم لم يَفعلْه. فقد يَهُمُّ العبدُ بفعل صلاةٍ أو صيامٍ أو جهادٍ أو غيرِ ذلك من الأعمالِ الصَّالحةِ، بمعنى أنه ينوي ويعزِمُ، ثمَّ لا يستطيعُ فعلَ ذلك لسببٍ ما، فهذا يُبلِّغُه اللهُ ما نوى، ويُؤجَر على ما همَّ به.

أما من هَمَّ بفِعْلِ السُّوءِ وفَعَلَه، كُتبَتْ عليه سيئةٌ واحدةٌ فقطْ رحمةً بالعبادِ.

ولكن لو همَّ بسيئةٍ ثم لم يفعلْها، فهنا حالتانِ:

الأولى: من هَمَّ وعزمَ عزمًا مُحقَّقًا على فعلِ السيئةِ كالزنا وشُربِ الخمرِ وغيرِ ذلك، ثم تركَها خوفًا من الفَضيحةِ أو لينالَ مدحَ النَّاسِ، أو لم يستطعِ الوصولَ إلى معصيتِه، فهذا محاسبٌ عليها، وكُتِبَتْ عليه سيئةٌ. قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: ٧٤]، أي: هموا بقتل نبينا صلى الله عليه وسلم ولم يستطيعوا.

وقد جاء في روايةٍ عند أحمدَ والطبرانيِّ، عَنْ خُرَيْمِ بْنِ فَاتِكٍ الْأَسَدِيِّ رضي الله عنه: «وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، فَعَلِمَ اللهُ أَنَّهُ قَدْ أَشْعَرَهَا قَلْبَهُ، وَحَرَصَ عَلَيْهَا، كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً» [الحديث]. وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالهمِّ هنا هو العزمُ والحِرصُ على العملِ، لا أنَّه مُجردُ خاطرةٍ خطرَتْ بدونِ عزمٍ أو تصميمٍ.

الثانيةُ: من همّ وعزمَ عزمًا مُحقَّقًا على فعلِ السيئةِ، ثم تركَها للهِ، فإنَّها تُكتبُ له حسنةً، وهذا النوع أحسبه من همِّ نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام.

أخرج مسلم رواية جاء فيها أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: رَبِّ، ذَاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ (يعني: ربنا أعلم به) فَقَالَ: ارْقُبُوهُ فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ». يعني: من أجلي. وهذا يدُلُّ على أن ترْكَها لا بُدَّ أن يكونَ لله ليُؤجَرَ عليها.

ثالثًا: ومن المراتبِ كذلك مرتبةُ العزمِ، وهو قُوَّةُ قصد الفعل والجزمِ به، وهذا يُؤاخذُ عليه العبدُ، لقوله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النور: ١٩]، وللحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عن أبي بَكرةَ رضي اللهُ عنهُ، أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا؛ فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا القَاتِلُ، فَمَا بَالُ المَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». وفي رواية عند البخاري: «إِنَّهُ أَرَادَ قَتْلَ صَاحِبِهِ». فكان جزاؤه النارَ مع أنه مقتولٌ وليس قاتلًا، وما ذاكَ إلا لإرادتِه وحِرصِه وعزمِه على فعلِ السُّوءِ، وهذا من عملِ القلبِ الذي يُحاسَبُ عليه العبدُ.

ولذلك قال أهلُ العلمِ بإثمِ من مشى إلى الحرامِ، مع أنَّ المشيَ مباحٌ، ولكنَّ عزمَه على فِعْلِ الحرامِ جعلَ مشيَه معصيةً كُتِبَتْ عليه. قال الإمامُ النوويُّ: «وَقَدْ تَظَاهَرَتْ نُصُوصُ الشَّرْعِ وَإِجْمَاعُ الْعُلَمَاءِ، عَلَى تَحْرِيمِ الْحَسَدِ وَاحْتِقَارِ الْمُسْلِمِينَ وَإِرَادَةِ الْمَكْرُوهِ بِهِمْ».

وقالَ أهلُ العلم: ومن ذلك الشَّكُّ في وحدانيةِ اللهِ وفي النُّبوةِ والبعثِ، فهذا كلّه يُعاقَبُ عليه العبدُ، ويصيرُ بذلك كافرًا ومنافقًا، ويُلحقُ بهذا القسمِ سائرُ المعاصي المتعلِّقةُ بالقلوبِ، كمحبَّةِ ما يُبغضُهُ الله، وبغضِ ما يحبُّه اللهُ، والكِبْرِ، والعُجْبِ.

واستِطْرادُ أهلِ العلمِ في بيانِ ذلك، فيه فائدةٌ نفيسةٌ لنا بأنْ يحرِصَ الواحدُ منَّا على دَفعِ الخواطرِ من مبتدئِها، وليُحرِصْ على عدمِ الاسترسالِ معها، حتى لا يَقودَه ذلك إلى ما هو أبعدُ منه.

٣- مسألة: ما البرهانُ الذي أراه الله سبحانه وتعالى لسيدنا يوسف عليه السلام فعصمه به من الوقوع في الزلل، وأعانه على ترك الحرام وحَفِظَه به؟

والجواب: أن أهل العلم استفرغوا وُسْعهم لبيان هذا البرهان، وربما تتبَّع بعضهم ما عند أهل الكتاب فاستفاد منه في تفسير ذلك، وإليكم أقوالهم في المسألة:

القول الأول: أنه سمع نداءً يَنْهاه عن فعل الفاحشة، ويُذَكِّرُه بمقامه وفضل الله عليه.
القول الثاني: رأى صورة والده يعقوب عليهما السلام يتوعده ويطلب منه عدم الاقتراب من الخطأ.
القول الثالث: رأى خيال سيده العزيز، فانصرف عما همَّ به.
القول الرابع: رأى آية مكتوبة في سقف البيت تزجره عن ذلك.
القول الخامس: أن الله تعالى قذف في قلبه نورًا، ونفعه بما معه من العلم والحكمة والإيمان.

والصحيح أن القرآن أخبرنا أنه حصل منه همٌّ، وأن الله تعالى أراه منه آية حالت بينه وبين اقتراف الذنب العظيم، وأن هذه الآية محتملة لعدد من الأوجه، والمقصود منها أن الله تعالى حفظه وأكرمه وأعانه في تلك اللحظات العصيبة.

وهنا موعظة نفيسة تنفعنا في مقام بيان هذا البرهان، وهي متعلقة بما قد يَرِدُ على فهم القارئ من تخصيص سيدنا يوسف عليه السلام بهذا البرهان، وأنه لن يكون لأحد من بعده، وهذا يخالف الواقع الذي يعيشه الصالحون المخلِصون الذين تتعرض لهم الفتن والشهوات وتقول لهم: هيت لكم، فلا يصرفهم عنها إلا ذاك البرهان الذي يكرمهم ربهم به، وهذا البرهان قد يكون معنويًا بتبغيض المعصية إلى قلوبهم، وجعلها مكروهة لهم، أو قد يكون مادِّيًّا وملموسًا بطريقة ما، والمقصود أن هذا البرهان نراه كثيرًا، ولولاه لاقتربنا أكثر من الفواحش وأهلها.

ولا يفوتنا التذكير بضرورة أنْ يعلم الواحد منا أنَّ حفظ الله له خير من اتكاله على نفسه، وأنْ يَصْدق الله تعالى في اعتماده عليه ويبرأ من حوله وقوته، وأن يغلق أبواب الفاحشة جملة وتفصيلًا فالنفس تتمنى وتشتهي، وتقوى وتضعف، وتعيش لحظات تكاد تخرج من بدن صاحبها.قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾ نعمة من نعم الله التي لا تتعد ولا تحصى، كيف أن الله تعالى جنَّبه فتنة الزنا، وأبعد عنه سوءها وشؤمها، وحفظه من عاقبتها.

توافرت كل أسباب الوقوع في الرذيلة، ولكنَّ عصمة الله له فوق كل سبب، فعصمه الله وصرف عنه بالبرهان الذي رآه فِعْلَ السُّوء، أي: الاقترابَ من مقدمات الزنا، وخيانةَ العزيز بطاعة زوجته فيما أرادت، وكذلك صَرَفَ الله عنه الفحشاء، أي: الوقوع في الزنا.

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ رِفعةٌ لنبي الله يوسف عليه السلام يشهد لها كتاب الله تعالى، والذي يخبرنا هنا عن اصطفاء الله له واجتبائه، واختيارِه ليكون داعيةً إلى التوحيد محفوظًا بحفظ الكريم جلَّ وعلا.

والله عز وجل لا يُخلص عبدًا له إلا إذا أخلص هذا العبد في عقيدته وعبوديته وطاعاته لخالقه وسيده ومولاه، وإلا إذا اطَّلعَ رَبُّه على قلبه فعلم أنه له ولا شريك فيه معه، وإلا إذا علم منه قوة في الدين والدعوة والأمر بالمعروف والنهي على المنكر، وهو ما دلت عليه قراءة ابْنِ كَثِيرٍ وَأَبِي عَمْرٍو وَابْن عَامِرٍ التي جاءت بكسر اللام الثانية في كلمة ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، ودلت عليه سيرة أنبياء الله المخلِصين المُخْلَصين، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ [ص: ٤٥-٤٧].

ولا تظنوا أن المُصْطَفَيْن الأخيار يكونون من الأنبياء والرسل فقط، بل قد يصطفي الله تعالى لدينه من يقوم بقائمته من عموم البشر، وقد يحفظه ويكرمه ويصرف عنه السوء والفحشاء وإن لم ينزل عليه جبريل بالنبوة والرسالة.

وهذا أمر معلوم ومشاهد في حياتنا، فكم من أبناء هذه الأمة وبناتها من يعيش في بحر متلاطم من الفواحش والمنكرات والفتن ولم يركن إليها قيد أَنْمُلة، بل يفرُّ منها فراره من الأسد، ونراه بفضل الله عليه يحمل قلبًا لا يطمئن إلا بالطاعة، ولا يهدأ إلا بالقرآن والذكر ومجالس العلم، ولا يرتاح له بَالٌ إلا برؤية راية الإسلام خفاقة في القمم، وهو في قرارة نفسه قد عزم على الثبات حتى الممات، وسلك طريق العمل للدين ولِسَانُ حاله: لا راحة إلا في الجنة.

أقول: هذا الصنف من أبناء الدعوة ربط الله على قلوبهم، وأخلصهم لنفسه، وكتب لهم أن يحملوا نفوسًا مطمئنة بالإيمان، مربوطة على الإخلاص في التوحيد والعبودية وتجريد القلب من التعلق بغير الله، ثم اتباع هدي نبيه صلى الله عليه وسلم، هؤلاء: صدقوا الله فصدقهم الله.

﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾

أي: ركض يوسف وزوجة العزيز نحو الباب، أما يوسف عليه السلام فكان ركْضُه هرَبًا ليفتح البابَ، وينجوَ منها بعد أن رأى برهان ربه، وأما هي فكانت تلحقه لتمنعَه من فتح الباب، وليعودَ إليها ويطيعَها فيما تأمره وتريده.

ولكم أن تعيشوا مع صورة ما جرى كما أرادتها الآية الكريمة، فزوجة العزيز من حرصها على قضاء وَطَرها بالحرام، ومن شدة شغفها بنبي الله لحقته وأمسكت قميصه من ظهره وقدَّتْهُ وشَّقَّتْه، أي: أحدثت فيه خَرْقًا ومَزْعًا، وكأنه يحاول التَّفَلُّتَ منها وهي تأبى عليه. وتأملوا كيف اختار الفرار منها على مقاومتها بالقوة التي لا تُعرف نتائجها وآثارها.

سبحان الله، كيف يسابق أحدهم في المعصية وكيف يفرُّ آخرُ منها، وهما يحملان ما يحمله الإنسان من مشاعرَ وأحاسيسَ وميلٍ نحو الآخر، ولكن المواقف هذه تكشف عن حال القلب، وتَظْهرُ عندها راية التقوى والخشية، ويعلمُ صاحبُها أثرَ كلامِ الله فيه.

﴿وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ﴾ لم يلتفت يوسف عليه الصلاة والسلام إلى الخلف ولم يتوقف، وكأني به يستحضر نعم الله عليه وعظمته وحكمته، ويفكر بمشهد نزع الروح والنزول في القبر والبعث، ويخاف أهوال الوقوف بين يدي العظيم وسؤاله وحسابه، وكأني به في تلك اللحظات لا يفكر إلا بأن يتخلصَ من هذا البلاء وإن كانت التضحية كبيرة.

مضى يوسف عليه السلام في طريقه وهي تلحقه حتى تفاجأ بوجود سيدها عند واحد من الأبواب التي غلَّقَتْها، ولعله أول باب غلَّقَتْهُ، وسيدها هو زوجها الذي أوصى وصيته النفيسة في حق الغلام يوسف لما اشتراه، فيكون المعنى أنهما وجدا زوجها قادمًا وواقفًا عند الباب.

وتعبير القرآن الكريم عن الزوج بلفظة السيد حمله جمع من المفسرين على رفعة مكانة الزوج في حياة المرأة المصرية في ذلك الزمن الذي كانت تنادي زوجها فيه: يا سيدي، وهي مكانة لها اعتبارها في ديننا، وجاءت في حقها نصوص متعددة دلت على قوامته، وعلى أنه طريقٌ عظيمٌ من طرق الزوجة إلى جنة الله تعالى ومرضاته.

هنا حلقة صعبة من حلقات قصة النبي الكريم، وصعوبتها لا تقتصر عليه، بل تمتد إلى العزيز وزوجته، ووجه صعوبتها أن الباب لما فُتح كانت مظاهر جريمة الاعتداء على العِرض ظاهرةً، فقميصه فيه خرق ظاهر، وملامح وجههما متغيرة، وهناك من يريد الخروج ومن يلحقه، ولعل صوت الصراخ والجَلَبَةِ قد وصل خارج الباب، فلم يكن مناصٌ من حصول ما يُقضُّ المضاجع، ويقتل جمالَ الحياة وهدوءَها.

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في هذا المشهد العَصِيب تُسارع في الكلام قبله، ويسكت أولًا بين يدي سيده وسيدته، وتنطق هي بما يبرئها ويحفظ ماء وجهها أمام زوجها الذي خافَتْه وهابَتْه، وتنطق بالكذب والافتراء على نبي الله، وتقذفه في عفته ووفائه لسيده، وتُوهِمُ زوجها بأنها على حق، وأنه هو من راودها عن نفسها وأرادها لتفعل الفاحشة معه، تقول له: أرادني عن نفسي فدفعتُه وشَقَقْتُ قميصه.

أظهرت زوجة العزيز سرعة بديهة في هذا المقام، وأخرجت ما لديها من المكر والخداع، وطالبت بإيقاع العقوبة الشديدة عليه قائلة: لقد أراد أن يفعل السوء معي فمنَعْتُه، وأرى أن يكون جزاؤه السجنَ أو أن تعذبَه عذابًا أليمًا، أي: تضربه ضربًا شديدًا مُبْرحًا وموجعًا ومؤلمًا.

ومن أهل العلم من استنبط من تخييرها بين هاتين العقوبتين أنها كانت حريصة على أن يبقى قريبًا منها، فلم تقترح قَتْله مثلًا أو بيعه أو نفيه وإخراجه من البلاد أو غير ذلك.

﴿قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦﴾

انتصر يوسف عليه السلام لنفسه أمام هذا الكذب، وبَذَل الحقيقة كما هي، وأخبر سيده بأن الخيانة ليست من طبعه، وأن زوجته هي التي أغواها شيطانها فأغوته، وسعت في انحرافه ووقوعه في الخطيئة.

يقول يوسف عليه السلام: هي التي بدأت معي، وهي التي لحقتني لما هربتُ منها، وهي التي كذبت بما قالت وزعمت.

وقول نبي الله يوسف هنا يستدل به أهل العلم على مشروعية أن يدفع الإنسان عن نفسه التهمة، وأن يرد على أهل الافتراء الذين يتصيدون ويتتبعون العورات، ويسهل عليهم القذف والشتم وإطلاق التهمة.

ووصيتي ألا يُشْغل الواحد منا نفسه كثيرًا بالرد على أمثال هؤلاء، وليقتصر على حال الضرورة والحاجة، فإنهم يصدون عن سبيل المعالي، ويُشْغلون القلب والفكر كثيرًا، ويجعلون السير إلى رفعة الدين بطيئًا.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ هذا ما يسمى في علم القضاء وفنِّه باتباع الأماراتِ، وهذا ما فعله العزيز بعد سماعه لقولهما.

يستعين الزوج بأحد المقربين منه مِمَّن لهم صلة قرابة بزوجته، ويطلب منه النظرَ فيما حصل، والتحقق من الدعوى وإظهارَ الحق، فيعطي هذا الشاهد مفتاح معرفة الصواب في القضية، ويقول: ننظر في الخَرْق الذي حصل في قميص يوسف؛ فإن كان من وجهِ القميص وقدَّامِه فهذا يدل على أنه هجم عليها ليفعل معها الفاحشة فدافعت عن نفسها، ودفعته في صدره وشقَّت قميصه حال عراكها معه، فكانت هي الصادقة وهو الكاذب في الدعوى.

والظاهر أن امرأة العزيز أشارت إلى حصول شَقٍّ في القميص وهي تذكر حجتها، وكأنها سعت في جعل حجتها أقوى فكان كلامها عليها لا لها كما سيأتي.

﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾

يقول الشاهد: وأما إذا كان القميص مشقوقًا من الخلف فهذا يدل على صحة كلام يوسف عليه الصلاة والسلام، وأنه هرب منها لمَّا أرادت أن تخون زوجها معه، وأنها هي التي غدرت بالجميع وكذبت عليهم.

والناظر في كتب أهل التفسير يجدهم يذكرون رأيًا آخر في الشاهد الذي تَكَلَّم هنا، ويقولون: إن الشاهد الذي تكلَّمَ هنا كان صبيًّا صغيرًا لا يزال في مَهْده، ويستدلون على ذلك بما أخرجه أحمد والطبراني في الكبير والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «تَكَلَّمَ أَرْبَعَةٌ صِغَارٌ: عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَاحِبُ جُرَيْجٍ، وَشَاهِدُ يُوسُفَ، وَابْنُ مَاشِطَةِ ابْنَةِ فِرْعَوْنَ».

وقد ناقش أهل العلم هذا الرأي بأنه من كلام ابن عباس رضي الله عنهما ولم يصح مرفوعًا إلى النبي عليه الصلاة والسلام كما أخرجه الحاكم، ولعله اجتهاد منه، ثم إن الآية لم يأت فيها أي إشارة في السياق إلى أن المتكلم كان صغيرًا.

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

هذا الكلام قاله زوجها بعد أن أعطاه الشاهدُ رَأْيه فيما حصل وفقًا للقرينة الحاضرة، وبعد أن تحقق من كذبها فيما رمَتْ به يوسف، وأنه أصدق منها.

قال العزيز مخاطبًا زوجته ومُكتفيًا بلومها على ما فعلت: إن الافتراءَ الذي ألْصَقْتِه بهذا الشاب العفيف، وطريقَتَك في تمويه الأمور وقلبِ الحق إلى باطل، من جملة كيدكن، وإن كيدكن عظيم.

صحيح أن الآية التي عظَّمتْ كيد المرأة جاءت على لسان العزيز، ولكن القرآن ذَكَرها ولم يُنْكرها فكانت على سبيل الإقرار لا الإبطال. والمقصود بالكيد العظيم هو ما تملكه المرأة من قدرة على الاحتيال وتدبير الأمر لتصل إلى ما تريد، وكيدهن على الغالب لا قدرة للرجال عليه، ولا حول لهم أمامه ولا قوة، بل قد لا يَفْطَنون له أو ينتبهون.وكيدها لا يكون دائمًا في الخطأ، ولا يوصف على الدوام بالذم، بل منه النافع لها ولأهلها، ومنه غير ذلك.

ومن أهل العلم من جعل كيدها عظيمًا في حق الرجال فقط لا في جميع مجالات الحياة، كما فعل نساء القصر بسيدنا يوسف عليه السلام، وفي ذلك إشارة إلى قدرتهن على إيقاع الرجال واستعمالِهن في ذلك كما يفعل عدد من أجهزة الاستخبارات العالمية.

ومنهم من حمل الكيد هنا على قوتهن في التخلص من الورطات وتَبِعات ما يَفْعلن، وعلى استعماله في تعويض ضَعْفهن.

ومن غرائب كلام عدد من أهل التفسير أنهم جعلوا كيد المرأة أعظمَ من كيد الشيطان مستدلين بهذه الآية التي وصفت مكرهن بالعظيم مع قول الله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

والصحيح أن الجهة مختلفةٌ بين الكيدين، فكيد الشيطان ضعيف بالنسبة لكيد الله جل وعلا، وبالنسبة لبصيرة أهل الإيمان واعتصامهم بالله واستعاذتهم به، بخلاف كيد المرأة الذي هو عظيم بالنسبة لكيد الرجل.

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَٰطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾

يطلب عزيز مصر من يوسف عليه السلام أن يكتم ما حصل، وأن يتناساه ولا ينقلَه لأحد ولا يخوضَ فيه، ويأمره ألا يخاف من تهديدها، والظاهر أنه يريد بذلك السِّترَ على أهل بيته، وتحجيمَ ما حصلَ لصعوبة الفضيحة وصعوبة ما بعدها على الجميع.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ ثم يطلب من زوجته أن تتوبَ من إرادة فعل السوء مع هذا الشاب ومن سعيها ومحاولتها في ذلك، ثم تتوبَ من محاولة إلصاق الخيانة به، ثم تتوبَ من خيانتها العظيمة لزوجها وسيدها، ولعله طلب ذلك ليعفوَ عنها ولا يعاقبها.

والتوبة المقصودة هنا ربما تكون بالمعنى العام لها، وهو أن تطلب المسامحة من زوجها ومِمَّن آذته بفِعْلتها، ولا يشترط أن تكون التوبة المطلوبة هنا في حق الله سبحانه وتعالى.

والسبب في ذلك أن القوم الذين عاش معهم نبيُّ الله يوسفُ عليه السلام لم يكونوا من المؤمنين بالله وبرسله وبالمعاد والحساب في ذلك الوقت، وإنما كانوا يعبدون غير الله تعالى، كما دلَّ على ذلك قول نبي الله يوسف عليه السلام لصاحبَيْه في السجن: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧].

﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾ يقول لها: أنت من سعى في ذلك وخطَّطَ وافترى، وكان ممن تعمَّد الوقوع في الفحشاء ليكون من جنس الخاطئين المذنبين.

والغريب أن الزوج لم يتجاوز هذه الكلمات في عتابه لها ومعاقبتها، والذي يغلب على الظنِّ أن اقتصاره على طلب الاستغفار له احتمالان: إما أنه سامحها لضعفها، واستحضار حُبِّه لها، ولأنها رأت ما لا صبر لها عليه، أو أنه لم يحمل في قلبه غيرةَ الرجال وما اعتادوه في حياتهم، فكان أداؤه أمامَها ضعيفًا وكأنَّ شيئًا لم يحصل.

ولقائل أن يقول: ماذا لو ابتُلي أحد الرجال بذلك وعلم من زوجته خيانة له، هل يبادر إلى طلاقها والتخلص منها أم يسامحها؟

والجواب أن خطوته الأولى في مثل هذا الحدث الجَلَل أن يتحقق مما بَلَغه وعَلِمَه، وأن يحرص على الوصول إلى درجة اليقين في تفاصيل ما جرى، وذلك عن طريق إقرارها أو شهادة من لا ترد شهادته في ذلك، وليحذر الأوهام والظنون والشكوك وأصحابها، وليحذر من كلام المتربصين ومن ظَهَر منهم الكيدُ والإفسادُ، وليحذر من نفسه فقد يكون وقوعُه في الزلل والخطأ والخيانة، وصحبته لأهل السوء والفحشاء هو سبب الوهم الذي وقع فيه.

ثم إذا تحقق وتيقَّن كان أمامه عدد من الخيارات:

الأول: إن شاء أمسكها لمصلحة تخصُّه أو تخص بيته، كأن يكون متعلقًا بها بشدة، أو يخشى على عياله من الضياع، وقليل من الرجال من يفعل ذلك.

الثاني: وإن شاء طلقها وانتقل إلى بناء حياة جديدة، وقد استحب غير واحد من الفقهاء أن يطلقها إذا كانت غير عفيفة، بل نصوا على جواز التضييق عليها لتفتديَ نفسها منه بالخُلْع، يعني: يضيق عليها بمنعها من النفقة والمهر ونحو ذلك لتبذل له شيئًا من المال ليطلقها، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ﴾ الآيةُ [النِّسَاءِ: ١٩]. أي: إذا تحقق الزوج أنها جاءت بفاحشة فله أن يعضلَها، ويمنعها من حقوقها، ولا يطلقها حتى تُرجع له المهر.

وقد أرشد أهل العلم الزوج الذي علم يقينًا أن زوجته فعلت الفاحشة مع غيره، ثم داومت على ذلك بعد افتضاح أمرها، إلى المسارعة في طلاقها وعدم البقاء معها، فإن الزانية لا ينكحها ويبقى معها إلا زان مثلَها، وإن الديوث هو الذي يقر الخبث والفحش في أهله ولا تتحرك له شعرة. أخرج أحمد وغيره عن عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمُ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُّ، وَالدَّيُّوثُ الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخُبْثَ».

الثالث: وإن شاء لاعَنَها، وذلك فيما لو رآها تفعل الفاحشة فقذفها بالزنا، أو أنجبت وَلَدًا يعلم أنه ليس منه، فهنا يرفع أمره للقضاء للملاعنة المذكورة في أوائل سورة النور فيمن قذف زوجته، والتي يقوم فقهُها على أن يحلف أربعة أَيْمان على صدقه فيما يدَّعي، ثم يُتْبعها بيمين خامس يستجلب لعنة الله عليه إن كان كاذبًا، وبعد انتهائه تحلف هي أربعة أَيْمان على كذبه، ثم تُتبعه بيمين خامس تستجلب غضب الله عليها إن كان من الصادقين، ثم يحصل التفريق بينهما على التأبيد، ولا يجوز رجوعهما إلى بعضهما عند جمهور أهل العلم، ولا يثبت نسب الولد من أبيه إذا كان في اللعان وذكَرَه، ونفى أن يكون ولده.

وتأملوا كيف نهى الشرع عن قتلها أو التعرض لها بأذية، وكيف احتاط لها بعدم إقامة عقوبة الزنا عليها إلا بشهادة أربعة من الرجال، وكيف منع الزوج أو الأخ أو الأب من الاعتداء عليها.

ومعلوم لديكم أنه لو ثبت وقوعها في الفاحشة بإقرارها أو بشهادة أربعة رجال فإنها تجلد مائة جلدة إن لم يسبق لها الزواج، وترجم حتى الموت إن كانت متزوجة من قبل، جَنَّبنا الله الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وكذلك المرأة إذا بلغها عن زوجها ما يقضُّ مضجعها ويؤلمها من أخبار الخيانة واقتراف الفاحشة أو مقدماتها، فالأصل أن تتثبت من ذلك ولا تسارع إلى التصديق، ويمكن أن تواجهه بالسؤال في أحوال، ثم إذا تيقنت فلها أن تختار طريق الصبر لمصلحتها أو مصلحة العيال، ولها أن تلجأ إلى الخُلْع إذا لم تقدر على إقامة حدود الله تعالى معه. أما الطلاق فليس إليها لأنه بيد الرجل، وكذلك الملاعنة لأن الفراش والنسب من حقوق الزوج. وتقام عليه عقوبة الزنا إذا ثبتت بالاعتراف أو بالشهادة كما هو الأمر في حقها.

أقول هذا وأنا أنادي على الزوج بأن ينظر في حاله مع أهل بيته، وما الذي أوصلهم إلى ذلك، وأن يتابعهم في حاجاتهم المادية والمعنوية، وأن يتقي الله في نفسه وفيهم، وأن ينظر في خاصة نفسه فلعلَّ الفجور تسلل إلى قلبه وبدا على أفعاله فرأى شؤم ذلك في أهله.

وأُذكِّر الزوجة بضرورة أن تحرص على زوجها، وألا تترك له فسحةً لحصول الجفاء، وأن تتقي الله تعالى فيه وإن حصل منه تقصير، وأن تُنوِّعَ في عطائها، وتُجدِّدَ في أدائها، وتصبرَ عليه فإن البيوت مبنية على صبر النساء حفظهن الله وزادهن تشريفًا.

﴿ ۞وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠ ﴾

هنا معالم لا بد أن نفقهها في طبيعة المجتمعات التي نعيش فيها:

الأول: إن مثل هذه الأخبار يصعب جدًّا أن تبقى قيد الكتمان، وهذا معلوم بالتجربة، ولولا ستر الله تعالى على من أمهله ليتوب لرُفِعَ الغطاء عن كثير من أهل الخيانة، ولكن فضل الله عظيم، وهو يمهل ولا يهمل.

شاع خبر امرأة العزيز مع يوسف حتى تناقله نسوة في مدينة مصر التي هم فيها، ولعل هؤلاء النسوة هن المقربات من صناعة القرار والرياسة كزوجات الأمراء والقادة وسائر الوزراء، ولا يفوتكم أن شيوعه لن يتوقف حتى يبلغ الجميع، فهذا أمر متعلق بِعِلْية القوم وقادتهم وسادتهم.

الثاني: أن الخبر وصل على وجهه الصحيح، وهو أن امرأة العزيز هي التي تسعى في الخطيئة وتحاول مع غلامها وخادمها، ولعل هذا من حفظ الله تعالى لنبيه عليه السلام، فكم من مظلوم باتت سيرته على الألسنة وهو براء مما يقولون كما حصل مع أمنا عائشة عليها السلام في حادثة الإفك، بل كم من فتاة قُتلت بدم بارد لأدنى شبهة دون تحقيق وتمحيص ومعرفة لأحكام الشريعة في ذلك.

والمفهوم من صيغة الفعل المضارع هنا ﴿تُرَاوِدُ﴾ أن زوجة العزيز لم يصلح حالها بعد انكشاف أمرها، وأنها لا زالت تطلب منه فعل الرذيلة، ولعلها تُسِرُّ بذلك إلى بعض المقربات منها لأخذ النصح فشاع الخبر وانتشر.

الثالث: طريقة نقل الخبر تدل على أن المتحدثين به ينكرون على زوجة العزيز فعلتها، ويجعلون ما فعلته سببًا لانتقاص قدرها ومكانتها، وسببًا لعيبِها وشَيْنِها ولَوْمِها.

قالت النسوة: قد شغفها حُبًّا، أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها واخترقه إلى الباطن، والشغاف هو الغلاف، وهذا كناية عن تَمَكُّنِ حُبِّه من قلبها، وعن شدة تعلقها به وعدم قدرتها على فراقه.

الرابع: قولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: لقد افتُتِنَ عقلها بفتى القصر فأخطأت الطريق وضلت، وابتعدت عن طريق الصواب.

وانتبهوا إلى أن كلامهن عن امرأة العزيز هنا كان مكرًا بها، ولم يكن إنكارًا للمنكر وكُرهًا للفاحشة، كما دل على ذلك ما جاء في الآية التي بعدها في قول الله: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾، ومن مكرهن أنهن أردن إظهار وفائهن لأزواجهن، وكذلك رغبتهن في الوصول إلى رؤية هذا الغلام الذي سَمِعْنَ عن جماله الكثير، وعلمن أنه فَتَنَ امرأةً كهذه، وأنه حمل لواء العفة والطهر، وأبى أن يستسلم للخطأ.

واستطرادًا في الحديث عن الحُبِّ أقول: الحياة لا تقوم بدون الحُب، فهو مظهر من مظاهر جمالها واستقرارها، وفي شريعتنا نحب الله تعالى، ونحب رسوله صلى الله عليه وسلم، ونحب ديننا وقرآننا ودعوتنا، ونحب كل عبد يقربنا من الله تعالى ومن جنته، ويذكرنا بالخير ويدعونا إليه، وينشر التوحيد وفضائل الأخلاق وأحكام الشريعة بين الناس، فحبه من الولاء المحمود الذي نادت به شريعتنا وأمرت به.

ومن الحُبِّ الذي يصعب الاستغناء عنه حب الوالدين والأبناء والقرابة.

والحب قد يكون بين رجل وامرأة تم عقد زواجهما، وانطلقا لتكوين أسرة تعينُهما على إتمام المودة والرحمة بينهما، وتَحْفظُهما من حبائل الشيطان وطرائقه في الغواية والإضلال، وتجعلُهما ذُخرًا للدين والمجتمع والأمَّة، فهذا النوع من الحب محمود وممدوح.

وهذا النوع من الحب أراده الشرع وألمح إلى أنه آية من آيات الله تعالى في خلقه، بل جعله الشرع باب عبادة لله تعالى، يؤجر صاحبه على كل ما يبذله مع نصفه الآخر، فطاعة الزوجة لزوجها باب طاعة لله وطريق إلى جنته، وإحسان الرجل إلى زوجته وقيامه عليها بالحسنى باب خير له، فاللقمة التي يضعها في فمها فيها ثواب، والإحسان إليها والسعي على نفقتها وعيالها فيه ثواب، حتى الجماع بينهما فيه ثواب، ما أعظمه من دين وربي.

أما الحب الذي يكون خارج إطار الزوجية فإن بقي حبيس القلب فيصعب وصفه بالحلِّ أو الحرمة، بخلاف ما لو تعدّى إلى النظرة والابتسامة واللقاء، وإتيان البيوت من ظهورها وخيانة الأهل، وحصول مقدمات الزنا من كشف العورات والملامسة والوصف وتبادل الصور وغير ذلك، فهذا من الحب الحرام الذي يفتح على صاحبه أبواب شرور يصعب بعد ذلك إغلاقها، وله أضرار على القلب والحياة لا يسهل حصرها، ويا ليت ضرره يقتصر على الفرد وأسرته ولكنه يتعدى إلى الفساد الحضاري والتأثير على صلاحية الأمة لقيادة البشرية.

واعلموا أن من أضرار الحب الخاطئ على سبيل التمثيل لا الحصر، اشتغال القلب عن حب الله وذِكْره والوقوعُ في شِرْك المحبة، وإفسادُ الذهن والحواس، والبعدُ عن الحق وأهله والنفورُ منهما، والاقترابُ من الاكتئاب وكثرة الضجر، ثم الاشتغالُ عن مصالح الدنيا والدين، فضلًا عن فقدان الأمن والراحة والخوف من الفضيحة، وانتشار الفساد في المجتمع وإشاعة الفاحشة، وصعوبة النجاح في الحياة الزوجية وكثرة وقوع الطلاق، ورفض الزواج وتفشي العنوسة، وحصول الخيانة الزوجية، وانتشار جرائم الشرف وفشو القتل في المجتمع، وسقوط كرامة المرأة من عين الرجل، وهو ما يؤدي إلى ضعف الأمة وتقهقرِها إذا كَثُر وانتشر.

ومعلوم لديكم أن الحبَّ منه ما هو صادق، ومنه ما هو شهواني يبحث عن إشباع الغريزة فقط.

ولا تظنوا أن الحب الخاطئ أو ما يسمونه بالعشق والغرام يأتي فجأة هكذا كما يظنون، بل يحصل نتيجة تساهل في عدد من الأحكام الشرعية التي نادت بها الشريعة كحرمة الاختلاط ووجوب الستر، ويأتي بعد فراغ القلب من المراقبة والخشوع وتمام محبة الله وتعظيمه، وبعد غياب القدوة الصالحة والقرب من الصحبة الفاسدة، ويأتي بعد الاستسلام للأغاني والأفلام والمشاهد والصور التي تأسر العقل وتفتك به، ويأتي بعد غلبة الهوى واستحكام فكرة السوء في القلب.

والواجب على المرء أن يغلق أبواب الفتن على نفسه، وألا يقترب منها ظانًّا أنه مالكٌ لنفسه وقلبه وعقله، فإن ابتلـيَ بشيء من ذلك فليبدأ بالعلاج مع صدق اللجوء إلى الله عز وجل، وليحرص على قراءة القرآن والدعاء والأذكار والصلاة والمشي إلى المساجد وصحبة الأخيار، وليستعن في طريق هجرانه للحرام بتذكر مساوئ الفاحشة وطرفها الآخر، وليتذكر مشهد وقوفه للحساب بين يدي الله في أرض المحشر، وليستحضر فضل الله عليه وكرمه، وليُحْسن في شكر النعم.

وأقول أخيرًا: احذروا حيَل الشيطان في ذلك، فإنه قد يأتي للرجل ويزين له سوء عمله في عمق علاقته مع الغريبة عنه بأنه يساعدها في حل مشكلتها، ويهوِّن عليها مصيبتها، وأنه يسعى إلى هدايتها إلى الحجاب والصلاة، وأنه يسعى للتعرف عليها ليتأكد من توافقها معه إذا اختارها للزواج.

وأما المرأة فإن الرجل يأتيها بحيل عجيبة، وقد تتذرع في علاقتها معه بأنها نشأت في ظروف صعبة لا تسمع فيها كلمة حُبٍّ ولا يعتني بها أحد، وأنها تريد زوجًا وكفى، وأنها لا زالت صغيرة وأن الله غفور رحيم، وقد تفتك بها الغَيْرة من بنات جنسها اللواتي اقتربن من حياة الفاسقات واستبدلنها بحياة الصالحات، وغير ذلك من الأوهام التي تحيط بهما، نسأل الله العافية في ديننا، ونسأله الهداية لبنات الإسلام وشباب المسلمين.

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾

وصل كلامُ النسوة وحديثُهن إلى زوجة العزيز، والظاهر أنهنَّ ممن يتواصل مع القصر، ولهُنَّ معرفةٌ به وبزوجة العزيز بحُكْم قربهنَّ.

وربنا سمَّى كلامَهن عنها مكرًا ليدلنا على أنهن أرَدْن شيئًا يخالف ظاهر القول، وهو ما فهمَتْه صاحبة القصر فأرسلت إليهنَّ تدعُوهنَّ إلى منزلها قاصدةً أن تعيش كل واحدة منهن شيئًا من بلائها الذي لم تصبر عنه، وقاصدةً أن تُذيق قلوبَهن شيئًا مما ذاقَتْه، وأن تنتصر لنفسها، وكأنها تريد أن يتلطفن بالحديث عنها بين الناس، ويعذُرْنها على ما فعَلَتْ مع غلامها.

ويظهر من هذا المكر الذي فَعَلْته أنها لا زالت تُمَنِّي نفسها بالقرب من يوسف عليه السلام، فإنها لم تطرده من القصر، ولم تنتقم لنفسها على ما كان منه.

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ﴾ أي: جهَّزت لهنَّ مجلسًا فيه مخادُّ يتكئون عليها، ومفارشُ يجلسون عليها جلسة المستغرق في القعود بالاعتماد على أحد جنبيه، وأمامهن طعام عرفنا وجوده من السكاكين التي حرَصت على أن تخصَّ كل واحدة منهن بواحدة منها، وعرفنا أن الطعام يحتاج في استعماله إلى سكين، وهو ما جعل بعض أهل العلم يقولون: إنها أعَدَّت لهنَّ ألوانًا من الفاكهة.

﴿وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ نادت على خادمها نبيِّ الله يوسف عليه السلام ليأتي بالطعام وما يحتاجه ضيوفُها، وقد كان عليه السلام في حُجْرةٍ أخرى فاستجاب لسيدته وجاء، ودخل عليهن وهن مشغولات بالتقطيع والأكل.

﴿فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ وَقُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٞ﴾
لمَّا نظرت النسوة إليه طارت عقولهن بجماله وطاشت، وأدهشهنَّ النظر إلى ما وهبه الله له، وأصابهنَّ الذهول حتى غَفَلْن عن تقطيع الفاكهة والطعام، وصارت الواحدة منهن تضع السكين على يدها وتحركها دون أن تشعر بالألم تظن أنها تُقَطِّع الطعام، وربما نزل منها الدم وهي لا تنتبه.

والمقصود بكلمة: ﴿أَكۡبَرۡنَهُۥ﴾ أي: أَعْظمنه وارتفع قدره عندهن بسبب جماله وصفاته.

ومعلوم لديكم أن جمال نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام لم يتكلم عنه كتاب الله فقط، وإنما ذَكَرَتْهُ سنة نبينا صلى الله عليه وسلم كذلك، فقد أخرج مسلم في صحيحه في قصة معراج النبي ﷺ إلى سدرة المنتهى ما يأتي: «ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، فَقِيلَ: مَنَ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ، فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا هُوَ قَد أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ، وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ» [الحديث].

والعلماء في تفسير الحديث على رأيين:

الأول: أنه أوتي نصف الجمال وأوتي سائر الخَلْقِ النصف الآخر، ومنهم من قصره على الناس من أهل زمانه.

والثاني: جعلوا لفظة الشَّطر للمبالغة، أي: أعطي حظًّا عظيمًا من حُسْن أهل الدنيا وجمالِهم لأنَّ الشطر يُطلق ويراد به الجزء من الشيء. وقد جاء عند الحاكم وأبي يعلى عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أُعْطِيَ يُوسُفُ وَأُمُّهُ شَطْرَ الْحُسْنِ». والمقصود بأمه هنا جدَّة أبيه، وهي سارَّةُ زوجُ نبي الله إبراهيم عليهما السلام، وقد كانت موصوفة بجمالها.

ومما امتن الله به على أهل الجنة أن صورتهم فيها تكون كصورة نبي الله يوسف عليه السلام، كما دلَّ على ذلك ما أخرجه الطبراني بسند فيه كلام عن الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سِقْطًا وَلَا هَرِمًا - وَإِنَّمَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ - إِلَّا بُعِثَ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ عَلَى مَسْحَةِ آدَمَ، وصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عُظِّمُوا وَفُخِّمُوا كَالْجِبَالِ».

﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قالت النسوة ذلك بعد انتباههنَّ إلى ما فَعَلْنه بأنفسهنَّ وبعد وجود الألم، وقولهنَّ يدل على شدة الإعجاب والانبهار حتى نفوا رؤيتهم لبشر مثلِه من قبل، ونسبوه للملائكية التي استقر في الأذهان والأفهام ارتباط الجمال بها، بمعنى أنهم زعموا أنه مَلَك من الملائكة تشَكَّل على هيئة البشر.

وقد جاء في ديننا ما يشير إلى هذا المعنى، كما أخرج مسلم عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها وعن أبيها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

ولعلهم عرفوا جمال الملائكة من صُوَر أصنامهم التي نحتوها على هيئة جميلة على صورة الملائكة، أو من اعتقاد كان عندهم بموجودات علوية لها ذواتٌ حسنةٌ وجميلةٌ.

وعبارتهنَّ هذه تقرأ وراءها: لا نلقي على امرأة العزيز اللَّوم بعد اليوم، فقد فهمنا السِّرَّ الذي أخرجها عن رشدها ورعايتها لمكانتها وزوجها، وجعلها تقع في حبِّ هذا الرجل.

وعبارة: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ معناها: معاذ الله أن يكون هذا من البشر، ويَبْعُد أن يكون هذا من جنسنا الذي نعيش معه فإننا ما رأينا طوال حياتنا أحدًا بحُسْن صورته وجمال مظهره.

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾

تجيبهن بكلمات تدل على ضعف الأنثى وشدة ارتباطها بالجمال والرجال، وتعتذر إليهن عن جميع ما حصل معها ومعهن بأن هذا الكمال والجمال الذي شاهَدْنه وافتُتِنَّ به هو سبب الضعف الذي حاصر القلب والروح والعقل.

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ ﴾ لم تتمالك نفسها وقوَّتها، واعترفت أمامَهنَّ بأنها الداعية إلى فعل الحرام، وأنها أرادت غوايتَه وإسقاطَ عِفَّتِه والوصولَ إليه فأبى وامتنع، وجمع بين جمال الظاهر وجمال الباطن، واستعصمَ بخالقه ولجأ إليه وتَبَتَ. واعترافها هذا يدل على أنهن من خلائلها القريبات وصديقاتها الحبيبات.

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ تتوعد صاحبةُ السلطة يوسفَ عليه السلام بالسجن إذا أصرَّ على امتناعه، ومضى في إعراضه عنها ولم يطاوعها.

تتعرَّض له وتراوده مَرَّة أخرى، وتتوعده بالسجن والصَّغار، أي: الذِّلة والقهر، وتُسْمعه تهديدها، وتؤكد وعيدها بلام القسم ونون التوكيد في لفظة ﴿ لَيُسْجَنَنَّ ﴾، ولفظة ﴿ وَلَيَكُونًا ﴾ مما يدلكم على الحالة النفسية والفكرية التي وصلت إليها، فليس مثلها من يُردُّ طلبُه، ويُهتك سِترُه ويُفضح أمرُه، وتُكسرُ شوكتُه، ويَنفذُ صبرُه، وتضعفُ سطوته ومكانته.

ولا يفوتكم أن وعيدها هذا لا يكون إلا إذا كانت ضامنة لزوجها، وعالمة بطاعته لها في إدخاله للسجن، وعدم قدرته أو قدرة غيره على الوقوف أمام قرارها، وهذا يشير إلى السلطان العظيم الذي تملكه صاحبات السياسة والقصور على أزواجهنَّ وصُنَّاع القرار.

ولعلي أستحضر في هذا المشهد القرآني صعوبة البلاء إذا نزل، وكيف تتغير معه المبادئ والعقائد، وكيف يسقط أمامه أهل الانتكاسات ممن دخل الخلل إليه من التربية التي تلقاها أو من الفهم.

أستحضر أبناءَ وبناتٍ كانوا على درجة عالية من الاستقامة، ثم تركوها خوفًا على أبدانهم أو أموالهم أو أحبابهم، وشرَّقوا وغرَّبوا عن الصراط المستقيم وابتعدوا كثيرًا، ومنهم من أصبح من مفاتيحِ الشر، وأعوانِ أهل الظلم والفسق.

أستحضر طلبة علم ودعاة صالوا وجالوا في ميادين العلم والتربية والتأثير في الجماهير، ثم انهزموا أمام آلة المنافقين والصادين عن دين الله، ولعل بعضهم ألبس ثوب انهزامه الصبغة الشرعية.

أستحضر إخوة لنا تربوا في المساجد على القرآن وقيام الليل وحُبِّ الدعوة، ثم تعرَّضت لهم الدنيا بزينتها فما لبثوا أن فارقوا ما كانوا عليه، ولا زالوا يلهثون وراءها ليسعدوا، ولا أظنهم كذلك.

أستحضر أخوات طيبات مباركات كان حجابُ الواحدة منهن أغلى ما في حياتها، وكانت ثقتُها بشريعة ربها مصدرَ سعادتها، وذاقت حلاوة دعاء الله وذِكره، وطار قلبُها أُنسًا وفرحًا بصحبة الصالحات، ثم أكثرت من النظر إلى وجوه أهل الفسق، وتأثرت بكلامهم وأفعالهم، وظنت أن طاعتها للرحمن هي سبب ضيقها الذي تمر به، فنزعت حجابها، وركنت إلى حياة المغنيات والممثلات والغافلات عن الدار الآخرة.

ولجميع هؤلاء أقول: أسأل الله أن يردكم إلى دينكم ردًّا جميلًا، وأن يصرف عنكم سوء الخاتمة، وأسأله أن يكتب لنا الثبات في زمن المتغيرات الذي لا نعجب فيه من كثرة الساقطين، ولا نعول فيه على أنفسنا كثيرًا، وندرك أن قلوبنا بيد خالقنا، فبه نستعين ونعتصم كما استعان يوسف عليه الصلاة والسلام واعتصم، وعليه نتوكل كما توكَّل نبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإليه نلجأ ونفزع كما فزع سيد الخلق نبيُّنَا عليه الصلاة والسلام.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ ﴾

هنا لغة الثبات الحقيقية في مواطن الفتن، وهنا يظهر صدق من عاهدَ الله وَوَفَّى، وهنا يعلم صاحب القلب السليم من الشرك ومن الأمراض أنه على خير، وأنه لا يبيع دينه ولو عُرضت عليه الدنيا وما فيها، ولا يخاف إلا الله وإن اجتمع عليه كلُّ أهل الأرض، ولا يقترب من الحرام وإن صَدَر التهديد ممن جمع سلطان الجمال وسلطان المنصب.

اختار نبي الله السجن ولم تتحرك له شعرة بسبب تهديدها ووعيدها، مع علمه بأن السجن لا يليق بمثله، وأنه المظلوم، وأنه سيرافق أهل الإجرام والاعتداء هناك، وأنه سيتحول من حياة الرَّغَد والسَّعة إلى حياة الضِّيق والشِّدَّة والحرمان.

ناجى يوسف عليه الصلاة والسلام ربَّه الذي حفظه من قبل، وأعلن على الملأ أو في قلبه أنه نذر نفسه لتحصيل مرضاته، وأنه لا يَرضى بقُربهن دون قُربه، ولا بِحُبِّهنَّ دون حُبِّه، ولا يعنيه شيء إلا الظَّفَر بجنته.

ناجى يوسف عليه الصلاة والسلام ربَّه الذي يؤمن بقضائه، ويصبر على بلائه، ويشكر نعمته.

قال يوسف عليه السلام هذه الكلمات ليُخلدَها القرآن العظيم، وتكونَ عقيدةً تحفظُها الأجيال المسلمة وتتمَثَّلُها.

﴿ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ تشيرالآية إلى أن النسوة تعرَّضنَ له بشيء ما، فإمَّا أنه رأى في أفعالهن وكلماتهن دعوة للرذيلة، أوأنهنَّ سعَيْنَ بإقناعه ليطيعَ سيدته ويستجيبَ لأمرها عن طريقِ لَوْمه وتحذيره من معصيتها.

لكن يوسف عليه السلام له عالَمه الذي يَسعد فيه، وهو يدرك تمامًا أين يكون شقاؤه وأين تكون طمأنينة قلبه، فاستعان بملك الملوك الذي يربط على القلوب ويعينُها، وسأله أن يصرف شرورهن عنه، وألا يَكِله إلى نفسه طرفة عَيْن.

يقول يوسف عليه السلام: يا رب، أنا عبدك الضعيف بدون عونك، ولولا فضلُك وكرمُك لزللتُ عن الطريق، فاحفظ عليَّ قلبي لئلا أصْبُ إليهن، أي: لئلا يحصل فيه مَيْلٌ إلى أهوائهنَّ ومُرادهنَّ.

ويقول يوسف عليه السلام كما في ختام الآية: يا رب، لا أريد أن أكون من الجاهلين إن عصيتك، والجهل هنا ليس جهلًا بحرمة هذا الفعل، أو غياب العقل عن الفهم، ولكنهُ جهلٌ بعظمة العظيم حال فعل المعصية، وجهلٌ بالإقبال على لذَّة محرَّمة تزول لذَّتها ويبقى ضررها وإثمها، وجهلٌ بفعل الفاحشة دون رَوِيَّةٍ وتفكير صحيح ونظرٍ في المآلات.

صحيح أن التوبة يبقى بابها مفتوحًا لمن عمل السوء بجهالة، كما دلَّ على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، ولكن الخشية أن يدركه الموت قبل توبته من قريب، وأن يُصرَّ على السوء حتى يُحرم الإنابة الصادقة.

والعاقل لا يقترب من الحرام، فإن ابتُليَ بشيء من ذلك سارع في الندم ومفارقة الذنب وطرائقه، واجتنب مواطن الفتن، وعاهد الله على الثبات. قال الله تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢] وأخرج أحمد والترمذي بسند حسن عَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ». يعني: ما لم تبلغ روحه حَلْقه لتخرج، فلا تقنط من رحمة الله ولا تيأس من رَوْحِه، وتذكَّر أنَّ من علامات أهل التقوى عدمَ اغترارهم بشبابهم أو صحتهم أو سِتْر الله عليهم، أو تتابع نعم الله مع إقامتهم على المعاصي، نسألُ الله العافية والسداد.

ومن عجيب حال يوسف عليه الصلاة والسلام مع خالقه أنه لا يكاد يمر به شيء من بلاءِ نعمةٍ أو بلاءِ ضيقٍ ونقصٍ إلا ويُكثر الاستعانة بالله ويُسارع فيها، وهذا هو الأصل في حياة المؤمن، فإنه يفزع إلى خالقه في المَنْشَط والمَكْرَه، واليسر والعسر، والسَّعَة والضيق، وفي الزواج والتجارة والمسكن والعلم، ولا يفعل كما يفعل صنف من الناس ممن يطرق جميع الأبواب ثم يتذكر خالقه في نهاية المطاف.

﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾

علم الله تعالى ما في قلب يوسف عليه السلام من الصدق، وما في كلماته من الإخلاص وتمام العبودية فعَصَمَه، وجنَّبه فتنةً كانت كافيةً للفتك به ونقله إلى حياة الضَّنْك والشقاء.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ حاشاه سبحانه أن يردَّ عبدًا فرَّ إليه وناداه، واستمسك بحبله المتين، فإنه يسمع نداء أهل البلوى ويعلم حاجاتِهم، ويؤتي كل واحد منهم ما ينفعه على مقتضى علمه وحكمته.

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾

الظاهر أن الكلام عن تفاصيل ما جرى في القصر ازداد وانتشر، وأن الناس تكلموا في براءة نبي الله يوسف عليه السلام فلاموا عِلْية القوم وقدحوا فيهم وأحرجوهم، فنظروا في الآيات للخروج مما هم فيه، أي: نظروا في الظروف المحيطة بالحدث، وفيما يعلمونه من حقيقة كذب امرأة العزيز وصدق يوسف عليه السلام، وفيما يفعلونه ليُسْكتوا الرعيَّة، ثم إنهم رأوا بعد تشاور وعمق نَظَر أن المصلحة تكمن في سِجْنه فقضوا بذلك، وأمروا به.

ولعل وجه المصلحة في سجنه بالنسبة إليهم يظهر في جوانب، فهو يُوهم الآخرين أن يوسف عليه السلام هو الذي راود امرأة العزيز عن نفسها، وأن هناك أسرارًا في القصة لم يطَّلع عليها إلا السادة والقائمون على الأمر، ولذلك أخبرنا القرآن في السورة أن يوسف عليه السلام أبى وامتنع أن يخرج من السجن حتى يسألَ الملكُ النسوةَ اللاتي قطَّعن أيديَهن، وحتى تظهرَ براءته بذلك.

ومن أوجه المصلحة فيه أن يبتعد يوسف عليه السلام عن المشهد لينقطع الناس عن الكلام فيما حصل، ويَنْسوه ولا يذكروه، وهم يدركون شيئًا من طبائع عموم الناس وعاداتهم مع الأحداث الجاذبة.

ومن مصالحه كذلك أنه يحقق رغبة السيدة العظيمة في حياتهم، والتي يرجو الجميع رضاها وسرورَها، والتي هدَّدت أمام جمْعٍ من النساء بسجنه، وقد أرادت بذلك ردَّ شيء من اعتبارها ومكانتها بعد أن ذلَّت له. والآية بينت أن سجنه لن يكون ممتدًا، ولكنه سيكون إلى حين، أي: إلى زمن محدود حتى تتحقق أهدافه.

ولعل سجنه هنا يعلمنا طبيعة دعوتنا، وجزاء مدافعتنا لأهل الفسق والظلم. وهو كذلك كفَّارة لنبي الله يوسف على ما وقع منه من همٍّ على قول من يرى أنه هم بزوجة العزيز حقيقة عليه الصلاة والسلام.

أقول: ألا يُذَكِّركم هذا بأصناف من أهل دينكم وعقيدتكم ومنهجكم يعيشون في سجون أهل الكفر والظلم زورًا وبهتانًا، ويذوقون مرارة الذل والقيد والحرمان من رؤية الأحبة والأهل، ويصبرون على صعوبة العيش بين القضبان لفكرتهم التي يحملونها، والتي عاهدوا الله على أن يَمضوا فيها مستحضرين أن الجنة حُفَّت بالمكاره، ومستحضرين طريق الأنبياء والدعاة وحملة الرسالة في التاريخ.

وأقول: ألا يذكركم هذا بآلة الإعلام التي يملكها أهل الزيف والنفاق في زماننا، والذين يعملون على تزييف الحقائق وقلبها، وإظهار الحق والباطل بغير لباسِهما، وإلصاق الألفاظ المُنفِّرة بالعلماء وطلبة العلم والدعاة والقابضين على دينهم.

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

تعالوا إلى مشهد جديد من مشاهد هذه القصة الربانية العظيمة، والذي يحوي فوائدَ جمةً كما هو حال القرآن جميعًا، والذي ينقلنا إلى ما حصل مع نبي الله يوسف عليه السلام بعد أن عاش لآخرته واختار السلامة في الدين.

الآية تخبرنا أن يوسف عليه الصلاة والسلام دَخَلَ السجنَ، وأنه لم يكن منفردًا فيه وإنما كان معه غيرُه، وأن نعمة الله عليه بتأويل الأحلام والرؤى كانت سببًا لخروجه من سجنه، وأنه كان داعية إلى الله تعالى في أصعب المواقف وأعقدِها.

دخل مع نبي الله تعالى إلى سجنه الخاص به فتيان، أي: اثنان من الشباب الذين هم في سن الفتوَّة والقوَّة، وكان لهذين الرَّجُلين صلةٌ بالملك، فأحدهما كان ساقيَ الملك الموكَّلَ بتوفير الماء وإصلاحه، وكان الآخرُ خبَّازَه الذي يصنع له الخبز كما ذكر أهل التفسير.

والقرآن لم يبين سبب سجنهما وإن كان بعض أهل العلم ذكروا أنهما كانا متَّهمَين بمحاولة وضعِ السُّمِّ للملك في طعامه وشرابه.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ حصلت الألفة والعلاقة الطيبة بين الرجلين وبين نبي الله يوسف عليه السلام، ولعلَّهما رأيا من صلاحه وأمانته وإحسانه وصِدْقِ حديثه ما رأيا، ثم إنهما عَلما من حسن خلقه، ومن حكمته في الكلام والتوجيه أنه صاحب تعبير للرؤيا، وأنه أوتي خيرًا كثيرًا من الفهم والعلم كما يشير ختام الآية هنا.

يطلب الأول منه أن يعطيه تفسيرًا لما رآه في منامه، وقد أخبره بأنه رأى نفسه يعصر عنبًا، أي: يضغطه بيده أو بآلة ليصنع منه خمرًا يُشْرب في المستقبل.

وقد ذكر أهل التفسير العنب هنا مع أن الخمر يصنع من غيره كالشعير والتمر، لقراءة ابن مسعود في ذلك، وهي قراءة غير صحيحة، ولكنهم استأنسوا بها في التفسير.

﴿وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ﴾ أما الثاني فكانت رؤياه متعلقة بخبزٍ يحمله على رأسه، وبِطَيْرٍ يأتي ليأكل من هذا الخبز حال وجوده على رأسه.

﴿نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ نريد تفسير ذلك، وما سيؤول إليه في المستقبل، فقد رأينا من إحسانك في المعاملة والقول والفعل وحب الخير للناس ما يدفعنا إلى أن نختارك، ونطلب منك ذلك.

﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾

يخبر يوسف عليه السلام صاحبَيْه بأنه بلغ في تفسير الأحلام مبلغًا عظيمًا، حتى إنه لا تكاد تفوته رؤيا في المنام فيها طعام إلا ويعطيها ما يناسبها من التأويل، ويفهم المطلوب منها قبل أن يأتيهما، أي: قبل أن يحصل تفسير المنام لهما حقيقة في اليقظة.

ومن أهل العلم من جعل تفسير الآية هنا مختلفًا، فقال: بلغ من قدرة سيدنا يوسف عليه السلام على تفسير الأحلام أنه يسارع في التأويل والبيان قبل مجيء الطعام إليهما في السجن، فأخبرهما أنه سيفسر لهما الرؤيا قبل وصول الطعام المعتاد الذي يأكلونه، ولعل وصوله كان قريبًا لأنه وَصَفه بلفظة «تُرزقانه» فهو لا يأتي على شكل هدية وإنما على شكل رزق معلوم في وقت معلوم.

ومن أهل العلم من قال: إن المقصود بالآية هنا أن يوسف عليه السلام يسهل عليه إخبارهما بأن هناك طعامًا سيأتيهما وقت الغداء أو العشاء قبل وصوله، ويسهل عليه أن يخبرهما عن نوع الطعام وهو عند أهله قبل أن يأتيهما، وأن هذا الإخبار منه يحصل عن طريق تفسير الرؤيا التي رأوها في المنام.

﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾ يَنْسبُ يوسف عليه السلام الفضلَ إلى الله تبارك وتعالى فيما آتاه من قدرة على تأويل الرؤى، أي: تفسيرها وبيان المراد منها، وذلك لئلا تتعلق قلوبهما به ويظنان به أكبر من مقامه البشري الضعيف، ولئلا يعتقدان أنه من أهل التنجيم والكهانة والعرافة، وكذلك ليبدأ معهما رحلة دعوتهما إلى التوحيد الذي هو طريق خلاصهم ونجاتهم وفلاحهم.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يقول لهما: هذه النعمة وغيرها من النعم أعطانيها ربي لما حملت التوحيد في قلبي وظهر في قولي وفعلي، ولما هجرت الكفر وأغلقت بابه جملة وتفصيلًا، ولما عَلِمت أن سبيل النجاة والسعادة والارتقاء هو إفراد خالقي وسيدي ومولاي بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، سبحانه لا إله إلا هو.

يقول هذا لهما ويقصد به القوم الذين هجرهم، وهم أهل مصر الذين تربى عندهم، فإنه وإن عاش بينهم في سعة ورخاء وإكرام إلا أنه لم يتأثر بعقائدهم التي ارتبطت بالأصنام، ولم يضعف ويداهن فيما يعتقد، ولم يسلك مسالكهم في الضلال والكفر وإنكار اليوم الآخِر بثوابه وعقابه.

وهنا لفتة عميقة ما أجملها لمن عاش معها، وهي لفتة تدل على ذكاء الداعية إلى الله تعالى في الاستفادة مما يجري حوله لينثر دعوته بين الناس، وليربطهم بحقيقة دنياهم التي ألهتهم عن آخرتهم، وليغرس في نفوسهم شيئًا ينفعهم ولو بعد حين.

الرجلان سألاه فقط عن تأويل الرؤيا، فانطلق ببيان نعم الله عليه يريد أن يُحْدِثَ في قلوبهما شيئًا، ويجعلَ دعوتهم إلى التوحيد بعد ذلك أسهل عليه، ولذلك أَتْبع حديثه عن النعم ببيان طريقة تفكيره فيما يحصل حوله من الشرك والكفر، وبيان ثباته على العقيدة التي توافق العقل والفطرة، ثم تجدونه كما في قادم الآيات يدعوهم صراحة إلى الإسلام الذي هو دين الأنبياء، ويدعوهم للتفكر والتأمل والتدبر، وهم ينتظرون منه ما سيقوله في تعبير مناماتهم، ثم بعد أن أعطى ما عنده مما يناسب المرحلة ذكر لهم تفسير ما رأوه وقصوه عليه كما سيأتي.

وكأن الآية تعلمنا أننا إذا مشينا في حاجة أحد، أو نصرناه بقول أو فعل وكان فيه على حقٍّ، أو جاء يطلبنا في تفريج هَمٍّ وتنفيس كَرْب، فإننا كدعاة إلى الله تعالى نحمل الحق والهدى يجدر بنا أن نُذكره بالله وبالإقبال عليه، ويجدر بنا أن نُحَبِّبَ إليه طريقة الاستقامة على الدين وهجران مفسدات العقل والقلب، أقول: كل ذلك يكون بالكلمة الطيبة المناسبة للمكان والزمان وحالِ المَدْعوِّ.

ومن فوائد تربيتهم على العقيدة قبل تأويل الرؤيا لهم أن أحدهما كانت رؤياه ضارَّةً له، وكان تأويلها أنه سيُقْتل كما سيأتي، وهذا الخبر يُتعب صاحبه فكانت الموعظة هنا في محلها للتخفيف من صعوبة ما ينتظره.

﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

يقول لهم: عقيدتي ودعوتي امتداد لدين الأنبياء من قبلي، فهم أسوتي وقدوتي، وهم الذين سبقوني بالصلاح وإرشاد الناس، والإيمان بهم وبالتوحيد الذي جاؤوا به لا ينفصل عن توحيد الله تعالى وإفراده بالرغبة والرهبة، بخلاف أهل الشرك الذين سَلَّموا عقولهم لحجارة صنعوها بأنفسهم، ولأسياد اسْتَخَفُّوا عقولهم ليُطيعوهم.

والملة هي الدين وأركان الإيمان بالله العظيم، وهي ملة واحدة لجميع الأنبياء والمرسلين، وهي ملة الإسلام التي ما أرسل الله رسولًا ولا بعث نبيًّا إلا بها وداعيًا إليها. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولذلك كان الكفر بنبي واحد من الأنبياء والرسل كفرًا بالله العظيم، فإن الله تعالى أمر بالإيمان بهم جميعًا دون تفريق بينهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢﴾ [النِّسَاءِ ١٥٠-١٥٢].

وقد ذكَرَ يوسف عليه الصلاة والسلام في هذه السلسلة المباركة أباه وهو يعقوب عليه السلام، وذَكَرَ جدَّه وهو إسحاق عليه السلام، وذكر والد جدِّه وهو إبراهيم عليه السلام، وهذا النوع من الاصطفاء لم يجتمع لنبيٍّ غيرِ يوسف عليه السلام كما تقدم.

وإليكم لفتة كريمة يا أبناء هذه الملة المُحَمَّديَّة الحنيفية ويا بناتِها، أقول فيها: إن التفاتَنَا إلى سلفنا في عقيدتنا ومنهجنا يزيدنا قوة وصلابة وثقة بالطريق، ويعينُنَا على مقارعة من يَسْعون إلى سَلْخنا عن ماضينا، بل يجعلنا مُتمَكِّنين من ثوابت ديننا ومن فقه شريعتنا، ومُطمئنِّين لدعوتنا التي هي امتدادٌ لأسْيَاد هذه الأمة وسادتها.

ولنا بيوسف عليه السلام أسوةٌ يوم قصد إظهارَ من سبقه في دعوته، ويوم أظهر أنه من بيت النبوة لتقوى رغبتهما في الاستماع اليه والوثوق به، وليعلموا عَظَمة ما يحمله في قلبه فيقتربوا.

﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ جعل الله تعالى النبوة في ذرية نبيِّه إبراهيم عليه السلام كما جعلها في ذرية سيدنا نوح عليه السلام من قبله، فكما أن جميع الأنبياء قبل سيدنا إبراهيم كانوا من ذرية نوح عليه السلام، فكذا كان جميع الأنبياء بعد سيدنا إبراهيم من ذريته عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، وقد أجمع على فضله وإمامته جميع أهل الكتب السماوية بعده.

وصفه الله تعالى في كتابه بأنه أُمَّةٌ بأكملها، وأنه قَامَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرَ بِهِ، ووفَّى كُلَّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لَا يَشْغَلُهُ أَمْرٌ عن التعبد لله تعالى في نيته وجميع أحواله، حتى وصل الحال به من قوته في الدين أن تبرَّأ من أبيه بعد أن تبين له أنه عدوٌّ لله.

هو الذي فارَقَ قَوْمَه حينَ أُمِرَ بذلك بعد أن دعاهم إلى ترك خرافة عبادة الأصنام وتعظيمها، وهو الذي حَاجَّ النّمرودَ في وجود الله وقدرته، وصَبَرَ على إلْقائِه في النّارِ، وهو الذي علَّمَ النّاسَ مناسكَ الحَجِّ، وتَرَكَ زوجَه وولدَه في الصحراءِ استجابةً لأَمْرِ اللهِ، وأَضْجَعَ ولدَه الوحيدَ إسماعيلَ لِيَذْبَحَهُ لمّا أُوْحِيَ إليه في رُؤْيَاهُ، فجعله الله تعالى إمامًا من أئمة الهدى والخير في الأرض.

ويكفيه أن الله تعالى اتخذه خليلًا ورفعه إلى أعلى درجات المحبة كما اتخذ نبيَّنَا محمدًا عليه الصلاة والسلام خليلًا.

﴿وَإِسْحَٰقَ﴾ هذا نبي الله الذي كان جميع الأنبياء مِنْ بعده من ذريته إلا محمدًا فإنه كان من ذرية إسماعيل عليهم الصلاة والسلام.

وإسحاق هو ولد سيدنا إبراهيم الثاني الذي أنجبه من زوجته الأولى بعد أن كبرت في العمر عليهم سلام ربي، وفيه جاءت بشرى الملائكة لإبراهيم وزوجه يومَ كانت الملائكة في طريقها إلى مدائن قوم لوط ليَقْلبوها على رؤوسهم.

وصفه القرآن العظيم بأنه غلام عليم، وأنه من المُصْطَفَين الأخيار، وأنه من أولي الأيدي والأبصار، أي: كان قويًّا في عبادته وطاعته، صاحبَ عقل راجح بصيرٍ بأحكام الله وشريعته.

وهو والد سيدنا يعقوب وجَدُّ سيدنا يوسفَ عليهم جميعًا صلوات ربي وسلامه، ولذلك وصف سيدنا يوسف عليه السلام أنبياء الله هنا بأنهم آباؤه، وصدق في ذلك كما تقدم معنا فيما أخرجه البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلاَمُ».

﴿وَيَعْقُوبَ﴾ سيدنا يعقوبُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهو إسرائيل الذي خاطب القرآن ذريته ونسبهم إليه في عدد من الآيات بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وهو الذي جاء فيه قول الله تعالى: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ **[البقرة: ١٣٣]**.

وسيدنا يعقوب عليه السلام هو الذي جاء ذكر صبرِهِ الذي ظهر فيه تعلقه بالواحد الأحد الذي لا يبث شكواه ولا حُزْنه إلا إليه، والذي طال فيه لقاؤه بأحب ولده إليه، وعَظُم فيه شوقه حتى عَمِيَ بصرُه.

نقرأ في قصته وكلامه معانيَ التوكُّلِ على الله وحسنِ الظن به، وإليكم شيئًا مما قاله لأولاده مُربّيًا ومعلِّمًا، قال: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ **[سورة يوسف: ٦٤]**، وقال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ **[سورة يوسف: ٦٧]**، وقال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ **[سورة يوسف: ٨٣]**، وقال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ **[سورة يوسف: ٨٧]**.

﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ لا خالق غير الله يستحق العبودية والذِّلة والاستسلام، ولا ينبغي لنا معاشر الأنبياء أن نشرك مع الله شيئًا من حجر أو بشر أو مَلَكٍ، ولا يليق بنا أن نعطيَ صفات الكمال والجمال لغير الله جل وعلا.

يقول لهما: أهل التوحيد وأهل الشرك لا يستويان، فأهل التوحيد يعبدون ربًّا عظيمًا خالقًا، له ملك السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما، ويعلم مقادير الخلق وما يُسعدهم وما يشقيهم، وأهل الشرك بعيدون عن ذلك بُعْدَ المشرقين.

وطاعته سبحانه طمأنينةٌ للنفس وسعادة للروح، ومنجاةٌ من الشرور والآلام والضَّنَك، وطريقٌ إلى رفعة الدنيا والآخرة.

والعِبَارة القرآنية هنا تُرشدهم إلى أمر يَهُمُّهم ويَهُمُّنا، وهو أنَّ اتِّبَاعه لآبائه لم يكن اتباعًا أعمى يريد منه أن يفخر بهم، وأن يتعصَّبَ لهم، وأن ينصرهم في كل ما يفعلون، ولكنه اتباع الواعي البصير المُدرك لحقائق الأمور، وهو اتِّباعٌ على الحق الذي يحملونه، والهدى الذي جاؤوا به من عند الله.

﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا تظنوا أن الواحد مِنَّا يقدر على السير في طريق الاستقامة والنجاة بدون فضل الله وعونه ومَنِّه وكرمه، فجميع ما قلته لكم هو من رحمة الله بنا.

أكرمنا الله بالوحي وأنزل علينا رسوله جبريل بالرسالة والنبوة، وجعلنا هداة للناس ودعاة إلى الخير، وطهرني وطهَّرَ آبائي من رجس الكفر وأهله، فله الحمد أولًا وآخرًا.

وفضْله ممتدٌّ على الناس بأن أرْسَلَنا إليهم لندلَّهم عليه، ونرشدهم إلى ما يُرضيه سبحانه، ولننشرَ فيهم دعوته، ونقيمَ حجته، ونبيِّنَ لهم غاية وجودهم.

وفضل الله في ذلك لا يقتصر على أنبيائه ورسله، بل إن الله تعالى اصطفى من الناس أولياء له ودعاة إلى دينه فأعانهم في طريق الالتزام وسدَّدهم، وجعلهم من مفاتيح الخير في الأرض وإن لم يأتيهم الوحي برسالة أو بنبوة.

وورثة الأنبياء في كل زمان يستشعرون معيَّةَ الله لهم وحفظَه وتأييدَه، ويعيشون النور الذي قذفه الله في قلوبهم لمَّا اطَّلَع على الصدق الذي فيها، ويتنعَّمُون بالعلم والخشوع وجنَّةِ ذِكْر الله تعالى وتعظيمه قبل أن يكرمَهم العظيم بجَنَّة السماء، اللهم اجعلنا من أهلها.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ أكثر الناس لا تشكر الله حق الشكر على نعمته عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وأكثرهم لا يريد الانقياد إلى ما أمر الله به إلا فيما وافق هواه، وفيما يحقق له المنفعة المستعجلة، وأكثرهم لا يرتضي أوامره وشريعته ولا يستسلم لها.

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾

هذه الآية دليل على أن أهل مصر كانوا على عبادة الأصنام لما بدأ يوسف عليه السلام في دعوتهم، وأن آلهتهم كانت متعدِّدة كما هو الحال عند من يعبدون الأصنام في تاريخ الأمم، وما أحوال أهل الجاهلية الذين نزلت فيهم الرسالة عنا ببعيد.

يُقْبِل نبي الله على الفتَيَيْن بالمخاطبة ليكون حديثُه أصرحَ وأوضحَ وأبلغَ في الخطاب والتأثير، ويدعوهما لتحرير عقولهما من خرافات قومهم وما نشؤوا فيه وعليه، ويطلب منهما عقدَ مقارنة سريعة بين الآلهة التي صنعوها بأيديهم والتي لا حول لها ولا قوة، والتي لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع نفسها ولا غيرها، وهي متفرقة لا تملك أن تكون واحدة، وبين السميع البصير الواحد الذي قهر كل شيء، وخضع له كل شيء طوعًا وكَرْهًا، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو صاحب الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة.

يقول لهما: الآلهة المتعددة كيف ستحكم العالم، وما هو نطاق سلطان كل آلهة منها، وكيف يفعلون حال التنازع والاختلاف؟! هل يستوي هذا المنطقُ في العبودية مع منطقِ التوحيد الذي يحمل الاستقرار النفسي وخطاب الفطرة، والذي يؤمن بإله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، ومنفرد في خلقه وتدبيره وتقديره وتسخيره، قَهَّارٍ في إرادته وعزته وقيامه على جميع المخلوقات.

وانظروا إلى تَلَطُّفِه في المخاطبة كيف وصفهما بيا صاحبي السجن، يعني: يا رفقتي في هذا المكان الذي حصل البلاء فيه لنا جميعًا، ويا من حالهم كحالي، وهذا التلطف في الدعوة أدبٌ رفيع نحتاجه كثيرًا في حياتنا وفي خطابنا مع أهل الغفلة، وله وَقْع على القلب عجيب.

وانظروا كذلك في حرصه على هدايتهما عمومًا، وهداية من علم أنه مقتول خصوصًا، فهذا أَدْعى لدعوته والحرص على نجاته وإن كانت ساعة الموت لا تعرف أحدًا.

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

السلطان هو الحجة والبرهان، ومعبوداتهم وأسماؤها التي ابتدعوها لم يأت بها وحيٌ وليست من عند الله، فلا حجة فيها ولا دليل عليها، ولا تعدو عبادتهم لها إلا أن تكون عصبيَّة لأقوامهم الذين سبقوهم بالكفر، وحميّةً لآبائهم وأجدادهم، ومنهم من يتبع هواه لتحقيق غاياتٍ ومنافعَ تخصُّه كما هو حال جميع من أشركوا مع الله آلهة.

يخاطبهم بقوله: الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا تخلق ولا ترزق ولا تُدَبِّر ولا تشفع، وليس لها في الوجود إلا أسماؤها التي أطلقتموها وأضفيتم عليها صفات الربوبية، وليس لها في شواهد العالم أيُّ دليل على إلهيتها، وإنما صَنَعَتْها أوهامُكم وخيالاتُكم وطرائقُ تفكيركم المُتْعبة.

وقد كان أهل الجاهلية قبل بعثة نبينا عليه الصلاة والسلام يعبدون أصنامًا أطلقوا عليها تسمياتهم، وخصُّوها ببعض خصائص الربوبية والألوهية، وفرَّقوها في أقوامهم ليزداد تعظيمها وترتفع مكانتها.

وإليكم ما أخرجه البخاري من قول ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ: أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ (اسم قبيلة) بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ (يعني: أسماء هذه الأصنام)، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ (أي: ذهب العلم وغلب الجهل فعبد الناس الأصنام)».

وهذا بخلاف الأصنام التي كانت العرب قد اتخذتها كصنم مَنَاة الذي كان منصوبًا على ساحل البحر بين مكة والمدينة، وقد كانت الأوس والخزرج تُعَظِّمة تعظيمًا شديدًا، وكذلك صنم اللات في الطائف، والعُزَّى في ذات عِرق، وصنم هُبَل في جوف الكعبة، وغير ذلك.

واتخاذ الأنداد من أصنام الحجر والبشر شركاءَ مع الله أمر عظيم في شريعة رب العالمين، وضرره على أصحابه في الدنيا والآخرة لا تسعه الكلمات هنا، ولذلك أمر صلى الله عليه وسلم بهدمها جميعًا يوم فتح مكة، وأغلق طرائق الشرك وسدَّ أبوابه على الناس.

أخرج مسلم عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ الْأَسَدِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ «أَنْ لَا تَدَعَ تِمْثَالًا إِلَّا طَمَسْتَهُ وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ»، وأخرج مسلم عن عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ السُّلَمِيِّ رضي الله عنه، أنه سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم: وَبِأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ عليه الصلاة والسلام: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَكَسْرِ الْأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لَا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ».

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ المشيئة والمُلْك والتصَرُّف لله وحده، وهو الذي أمركم أن تفردوه بالتوحيد والعبادة ولا تشركوا معه أحدًا أو شيئًا، وهو الذي علمكم أحكام العبادات والمعاملات وما تحتاجونه من أمر دينكم ودنياكم.

وهذه العقيدة باقية في كل زمان ومكان، ودين الله الذي أرسل به أنبيائه إنما جاء ليكون الحكم لله، ولتبقى شريعة الله مهيمنة على القلوب والأبدان والأنفس والأموال.

وفي زماننا: ما أحوجنا إلى أن يكون الحكم لله بعد أن عاثَ العالمُ ويلاتِ حُكْمِ البشر للبشر، وطامَّات الاحتكام إلى أهواء أهل الأرض وأمزجتهم، وبعد أن قاد العالمَ عصابةٌ من الناس أغرقوه شرًّا وكُفرًا وعصيانًا، وأذاقوا الأمم من حولهم ويلات غرورهم وتسلطهم وإجرامهم، وبعد أن رأينا معالم الشرك تملأ الأرض وتتسلل إلى بلاد أهل الإسلام وإلى قلوبهم.

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ هذا هو دين الاستقامة الذي لا عوج فيه ولا يوزن بشيء، وهذه هي العقيدة الصافية النقيّة الطيبة التي توافق العقل والروح، وتبعث فيكم الطمأنينة والارتقاء، وهذا هو التوحيد الذي أمر الله به، وارتضاه لكم طريقًا موصلًا إلى جنته، وأعطاكم من أجله برهانًا وراء برهان، وحجَّة وراء حجة.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ يريد أن يعلمهم أن الحق لا يُعرف بكثرة أتباعه، وأنه يُعرف بكونه حقًّا قامت عليه الأدلة العظيمة، وأن كثرة من يعبدون الأصنام من حولهم ليس علامة على صحة ما يعتقدون.

يا صاحبي السجن: تَتَبَّعا الأدلة، وافتحا عقولكما للهدى، وأعلنا البراءة من معبوداتكما وما تعلقت به قلوبكما، ولا تكونا تبعًا للأكثر من الناس فقد يجتمعون على ضلالة.

وأنتم يا من وصلتم إلى قول الله هنا: لقد تتابعت آيات كتاب الله تُعلمنا أن أكثر الناس ليسوا حريصين على الإيمان، وأن أكثرهم لا يعقلون، وأنَّ اتِّبَاع الأهواء هو الذي يحكمهم ويُسَيِّرهم.

بل أخبر صلى الله عليه وسلم أن القابض على دينه في آخر الزمان كمن يحمل الجمر في يديه علامة على صعوبة الأمر، ومشقَّة التمسك بالصراط المستقيم، وعِظَمِ العوائق، وكثرة الساقطين.

والمطلوب: إذا رأيتم أكثر الناس يتعاملون بالربا فلا تفعلوا، وكذلك في الزنا وشرب الخمر والكذب والخيانة، والنظرِ إلى الحرام وسماعه ومجالسة أهله، وفِرّوا بدينكم إلى الله وادعوه ألا يجعل مصيبتكم فيه، واستعينوا بالرفقة الصالحة وإن كانت سلعة نادرة فإنها من أعظم ما يعين.

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١ ﴾

القرآن لم يذكر إسلام صاحبي السجن أو بقاءهما على ما كانا عليه من الشرك، ولكن يوسف عليه الصلاة والسلام دعاهما إلى التوحيد وبينه لهما بالحجة والبرهان، وقام بواجبه على أكمل وجه معذرةً إلى الله وقاصدًا مرضاة وجهه الكريم.

وهذه لفتة دعوية راقية، وهي أننا ندعو إلى الله ونذكر بالخير وإن غلب على ظننا عدم استجابة المدعو أو رأينا صعوبة حاله، والفائدة من ذلك أننا نعين في فرض هيمنة الشريعة على الحياة، ونُعْذِر إلى ربنا بأننا أقمنا الحجة وما سكتنا عن المنكر، ثم لعل قلبه يتذكر دعوتنا له بعد حين، وقد رأينا كثيرًا من المهتدين استجمعت عندهم أسباب متعددة وممتدة قادتهم إلى هجران طريق أهل الباطل وسلوك سبيل الالتزام. قال الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

نبي الله بعد استطراده النفيس في مسائل الاعتقاد والدعوة إلى التوحيد، وبعد أن تكلم بما يلزم لحالهما، وبعد أن اختار الزمان المناسب وكذا الطريقة اللائقة والعبارات الملائمة، أقول: بعد كلِّ هذا بدأ بتفسير أحلامهما فقال:

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ﴾ بُشرى لأحدهما بأنه سيخرج من السجن، وسيرجع إلى مكانته عند عِلْيَة القوم، وأنه سيرجع ساقيًا للملك نفسِه.

وأسلوب كلام سيدنا يوسف جاء على الإبهام دون أن يحدد من الشخص المخاطَب، ولكنه قال أحدكما لئلا يُدْخِل الحزن على الآخر، والذي كانت رؤياه علامة على قُرْب قتْلِه، مع أنه ظاهرٌ من تأويل الرؤيا أن كلامه جاء تعبيرًا لمن رأى أنه يعصر خمرًا.

﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ﴾ الثاني رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا فكان تأويل ذلك أنه سيُقتل على عمود كالصليب، وستبقى جثته هناك وسيتركونها مُدَّةً من الزمن يعتبر الناس بها، وسيأتي طير من السماء وينهش من لحم رأسه.

﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ﴾ انتهيت من تفسير الرؤيا وفرغتُ من الإجابة عن طلب تأويلها، وتفسيري واقعٌ وسيكون كما قلت لكم، فاستعدوا لذلك وانتظروه وإن تأخَّرَ عليكم، وتأكيده على حصول ما قاله لهم إنما كان بحسب العلم الذي آتاه الله له ووهبه إياه.

وقد تقدم معنا ما أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود وغيرهم عن أَبِي رَزِينٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرُّؤْيَا عَلَى رِجْلِ طَائِرٍ مَا لَمْ تُعَبَّرْ، فَإِذَا عُبِّرَتْ وَقَعَتْ»، والمقصود أن الرؤيا تقع بحسب تأويل أول مُفسر لها، فلا تَعْرضوها على من لا تثقون بعلمه ودينه.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ٤٢﴾

عبارة ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر قصتي في مجلسك عند سَيِّدِك الملك لعله يُنْصفني في مظْلمتي، ويَرِقُّ لي، وَيُخْرِجُني مما أنا فيه، وهو خطاب وجهه يوسف عليه السلام لمن أخبره في تعبير الرؤيا بأنه سيسقي ربه خمرًا.

والظن هنا بمعنى العلم واليقين، وإطلاق الظن على العلم واليقين معهود في لغة العرب وفي نصوص الشرع كقول الله تعالى في وصف الخاشعين في الصلاة الصابرين عليها: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقول الله تعالى عمَّن ثَبتَ من جيش طالوت المؤمن: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةَۢ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ بلاء جديد لسيدنا يوسف عليه السلام، ومكيدة من مكائد الشيطان التي لا ينفك عن بذلها ليُدْخل الحزن على أولياء الله ويصدهم عن الدعوة والإصلاح.

خرج الساقي من السجن، ورجع إلى مكانته التي بَشَّره يوسف عليه السلام بها، ولكنه نسيَ أن يَذْكر عند مولاه وسيده ومليكه ما أوصاه به نبي الله.

القرآن يُبَيِّن أن الشيطان سعى في ذلك، وعمل على صَرْف الرجل عن إحياء قصته من جديد أمام الملك، وأنه أنساه ذِكر القصة عند رَبِّه وسيده الملك، وأنه واظب على ذلك ونجح فيه لبضع سنين، يعني ما بين ثلاث إلى تسع أو عشر سنوات؛ كلُّ هذا لئلا يخرج يوسف عليه السلام من السجن.

ويغلب على ظني أن الذين يعيشون مع الآية من أهل الصلاح أدركوا بقراءتهم لما حصل مع يوسف عليه السلام، أن البلاء الذي أحاط بهم بسبب دعوتهم إنما هو لهم وليس عليهم، وأنه سنة الله تعالى في عباده الصالحين ليزدادوا رفعة ومكانة، وأن صاحب الحيلة العظمى في إلحاق الضرِّ بالعبد هو الشيطان الذي نَصَب العداوة لآدم عليه السلام وذرِّيَّته من بداية الخلق، وأن المؤمن يحرص على التسلح بالذِّكر والاستعاذة منه ومن شَرِّه، ويواصل مسيرته نحو الدار الآخرة حاملًا الثقة بالله واليقين، ومتسلِّحًا بحسن التوكل على العظيم، ومستعينًا بمالك المُلْك وواهب السكينة والطمأنينة والسعادة.

قال الله تعالى في بيان سلاحٍ من أسلحة الشيطان في الإضلال: ﴿قَالَ أَرَءَيۡتَ إِذۡ أَوَيۡنَآ إِلَى ٱلصَّخۡرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلۡحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ [الكهف: ٦٣]، وقال سبحانه: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

وانتبهوا إلى أن النسيان لا يكون دائمًا من الشيطان، بل قد يكون بتفريط ممن نسي، أو أن الله تعالى ابتلاه به لينظر في عمله أو ليُجازيَه على سوء صنيعه، كما في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن النسيان لم يحصل من ساقي الملك، وإنما حصل من نبيِّ الله يوسف عليه السلام، أي: نسي يوسفُ عندما طلب من الساقي ما طلبه أنَّ أَمْرَ نجاته وخروجه بيد الله وحده، وركن قلبه إلى الملك، فكان بقاؤه في السجن عِتابًا إلهيًّا وعقوبة ربانيَّةً على اشتغاله بعون العبد وغفلته عن عون الله.

قالوا: وقد يُنْسي الشيطان نبيًّا كما أنسى آدمَ وجعله يأكل من الشجر في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [سورة طه: ١١٥]، وقول الله تعالى لنبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وبطريقة أخرى: شاء ربه أن يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد، وهذا من إخلاص عبده له لأن يوسف عليه السلام كان من عباد الله المُخْلَصين، وهذا القول ناقشه غير واحد من أهل العلم وأوردوا عليه اعتباراتٍ علميةً وإن قال به جمهور المفسرين.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

هذه الرؤيا الثالثة في السورة الكريمة التي تَحَقَّقت جميعُ رؤاها، والرؤيا الصادقة قد تأتي عن طريق كافر كما أسلفنا في الحديث عن أول رؤيا في السورة، وكما حصل مع صاحبي السجن، والرؤيا للمؤمن بِشارة وكرامة، وللكافر تنبيه وتحذير ونَذارة.

قدَّر الله تعالى أن يخرج نبيُّ الله يوسف من السجن مُعزَّزًا مُكَرَّمًا، وجعل سببَ ذلك ما رآه ملك مصر في منامه بعد بضع سنين من لُبْث يوسف عليه السلام في السجن، وكان من لطيف قَدَره سبحانه أن الملك رآها بنفسه، وأنها أَفْزَعته وأَشْغَلته حتى نادى بالملأ ليفسروها، ويزيلوا الحيرة عنه، ويرشدوه فيها.

يرى الملك في منامه بقرًا وزرْعًا فيتعجَّبُ مما رآه، ويطلب من الملأ أن يعينوه في بيان حاله مع هذه الرؤيا. رأى سبع بقرات سمان ممتلئات يأكلهن سبع بقرات عجاف هزيلات ضعيفات. ورأى سبع سنبلاتٍ خضرٍ جميلاتٍ نافعاتٍ يأكلهن سبعُ سنبلاتٍ يابساتٍ لا نفع فيهن، والسنبلة تخرج في الزرع كالقمح والشعير ويكون فيها الحَبُّ.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَـٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ الملأ هم أعيان الناس المقربون من الملك وحاشيته وبِطانته، وهم الذين يعينونه في إدارة شؤون رعيَّته، ويشيرون عليه بما يطلبه منهم كالأمراء ورؤوسِ الناس وأشرافِهم، ولعله استعان بمجلسه بالكهنة المختصين بعلوم الغيب وتعبير الرؤى عندهم.

﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَـٰمِ بِعَـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

اعتذارٌ من مجلسه المُقرَّب عن فهم إشارات رؤيا الملك، واعترافٌ بقصور أفهامهم وعلمهم وكهانتهم عن التفاعل معها، وإعراضٌ منهم عن تأويلها بأي شيء لعلمهم أن الرؤيا أهمَّت مَلِكَهم، وأخذت مساحة من تفكيره، وجعلته أحْرَصَ ما يكون على فهمها وفهم رموزها ودلالاتها.

قالوا له: هذه ﴿أَضْغَـٰثُ أَحْلَـٰمٍ ۖ﴾ أَيْ: أشياءُ مختلطة ومتداخلة ببعضها، ولا تظهر فيها علاماتُ الرؤيا الصحيحة التي تستحقُّ التعبير والتفسير، فإنك تعلم أيها الملك أننا أهل خبرة ودراية بذلك، ولكن هذا النوع من الأحلام تتعدد فيه الأشياء المرئية، ويصعب تمييزها وفهمها، ولا تعدو أن تكون من حديث النفس الذي لا تأويل له ولا معنى، ومن الخواطر والأَخْيِلة التي لا حقيقة لها ولا ترمز لشيء.

وَجَهْلُهم هذا فيه تدبير لأمر يوسف عليه السلام، فإن تعبيره للرؤيا بعد أن عجزوا عنها ليس كتعبيره وهم قادرون على الاجتهاد فيها، وهو ما سبَّبَ أن يكون لتفسيره عليه السلام وقعٌ كبير في نفس الملك ومن حوله.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾

القائل هنا هو أحد السجينين اللَّذَيْن كانا مع نبي الله في السجن، وهو الذي رآى أنه يعصر خمرًا فَبَشَّره يوسف بأنه سيخرج من سجنه، وسيرجع ساقيًا للملك وخادمًا له في قصره وبين حاشيته، ولن يُقتلَ ويصلبَ كما هو حال الآخر.

هذا الذي أنساه الشيطان أن يذكرَ مَظْلَمة نبيِّ الله للملك ليُنْصِفَه، وهو الذي امتد نسيانه بضع سنوات، وهو الذي وصفته الآية هنا بأنه ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: تذكَّرَ بعد مُدَّة طويلة من الزمن.

اسْتَحْضَرَ ساقي الملكِ وخادمُه رفيقًا كان معه في السجن، وقد خَبرَ منه قدرته على التأويل، ورأى من علامات صلاحه ما رأى، فبادرَ إلى مخاطبة الملك وَمَن في مجلسه ممن حضر الحوار وَسَمِعَه، وقال لهم: أنا أعرف رجلًا كان معي في مَحْبَسي، وكان ذا فهم وعلم وحكمة، وكان يتقن تعبير الرؤى، وسأطلب منه أن يعطيَكُم القولَ الفَصْل في الرؤيا فأرسلون، أي: فابعثني أيها الملك وَأْذَنْ لي بالوصول إلى مكان سجنه لأطلب منه تفسيرَ رؤياك في المنام.

أقولُ: والظاهر أنه جرى حوار طويل ولغط في المجلس جعل هذا الساقي يستفرغ وُسعه، ويستحضر حدثًا جرى معه من سنوات، وكأنَّ الحياة دبَّت فيه ليساعدَ الملك، ويبعثَ في نفسه الطمأنينة بسبب رؤياه، ثم ليوفي لصاحبه في السجن ما وَعَده به بعد أن نسِيَه كلَّ هذا الزمن.

وانتبهوا هنا إلى أن الخير الذي أصاب سيدنا يوسف عليه السلام جاء على يد الساقي، وليس على يَدِ أحدٍ من كبار حاشية الملك، وهذا ينفعنا في أن نفهم أن العبد إذا أصابه بلاء فإنه لا يعدِم الحيلة، وأن أسباب الفرج قد تكون في ظاهرها بسيطة ولكنه فضْلُ الله وَقَدَرُه.وسبحان الله، كيف نسيَ ذِكر يوسف عليه السلام لما كان العهد قريبًا، وتذَكَّر لما كان العهد بعيدًا.

واعلموا واستحضروا على الدوام أنَّ تدبيرَ الله تعالى للعبد خيرٌ له من تدبيره لنفسه، وأنَّ رحمته بعباده الصالحين أنفع لهم من كل شيءٍ، وأن تنفيسه للكربات وتفريجه للهموم والغموم قد يأتي من حيث لا ندري. قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ **[فاطر: ٢].**

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾

أرسل الملك صاحب يوسف إليه، فجاءه وهو في السجن، وطلب منه الفتوى في منام الملك ليرجع إلى الناس لعلهم يعلمون تفسير الرؤيا، ولعلهم يعلمون مكانتك وقيمتك وبراءتك، ولعلك تكون في مكانك الصحيح لا هنا.خاطبه وقال له: أيها الصديق، يعني: يا كثير الصدق، ويا من لم أجرب عليه كذبًا، وهو أمرٌ علمه من أيامه التي عاشها معه في السجن، ومن مخالطته له وتجربته معه، وما أجمل أن تبقى هذه الخَصْلة في الذهن كلَّ هذه السنوات، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على رفعة أخلاق سيدنا يوسف عليه السلام، وروعة أدائه حتى وهو في أبغض الأماكن للناس، وهو السجن، ويدلُّ على شدة تأثر الآخرين به ومراقبتهم لقوله وفعله.

وهذه رسالة إلى من أقامهم الله تعالى في أماكن الدعوة والتأثير في الآخرين، ولِمَن ظاهر حالهم التديُّن والالتزام، ولمن اختاروا طريق أن يكونوا مفاتيح للخير في الأرض: اعلموا أن أخلاقكم وارتقاءكم في أدائكم مع الآخرين في مواطن الدَّعَة ومواطن البلاء، سبب عظيم من أسباب دعوتهم واقترابهم من الهداية، دون تصنع أو تكلف أو ظهور بمظهر الذِّلة والمسكنة. والمقصود بالناس هنا بعضهم، وهم الملك وأهل مجلسه الذين اهتموا للرؤيا وكانوا حريصين على معرفة ما فيها.

والتعبير بلفظة ﴿أَفْتِنَا﴾ تدل على مزيد احترام له، بخلاف طلبهما منه وهو في السجن لما قالا: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ﴾.

وقد بسط الساقي الرؤيا وذكرها كما هي بدون أن يزيدَ عليها أو يُنْقصَ منها، وهذا يدل على حرصه فيها، وعلى أن الذي يطلب تأويل الرؤى لا بدَ أن يكون صادقًا فيها ويذكرَها كما هي، ولا يتحلَّم ويزعم أنه رأى شيئًا وما رآه.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾

لاحظوا أن سيدنا يوسف لم يعاتب من كان معه في السجن، ومن طلب منه أن يذكره عند الملك، ولم يعنفه على نسيانه، وكان يمكنه أن يمتنع عن تأويل الرؤيا ردًّا على إهماله كل تلك السنين، ولكنه يعلم تمام العلم أن العتاب يكون عند الحاجة إليه، وعند حصول تقصير حقيقي من المعاتَب، وعند أمْنِ حصول خصومة ومفسدة أعظم.

نحن في دعوتنا وعطائنا لا نتعامل مع الناس عن طريق ردود الأفعال، ولكننا نبذل النصيحة بحسب المقام وما يصلح له، ولا نتوقف مع الأشخاص كثيرًا ولكننا نمضي في علاقتنا مع الرب العظيم الذي هو غايتنا العظمى.

أقول: كان يمكنه أن يشترط خروجه مقابل تفسيره للرؤيا، ولكن ثمة ما هو أكبر وأعظم في حياة الدعاة إلى الله.

قال لهم النبي الكريم: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: يأتيكم المطر والخير من السماء سبع سنين متواصلة، وتُنْبت الأرض من زرعكم نباتًا حسنًا وكثيرًا، وتنعمون وتسعدون بلا ضيق أو مشقة.

ولفظة ﴿دَأَبًا﴾ يعني: كعادتكم، وكما كنتم تزرعون سائر السنين قبلها، وكأنه يريد منهم أن يستمروا في ذلك طيلة سبعِ سنينَ متتاليةٍ، ولا يُقَصِّروا أو يَمَلُّوا.

يقول لهم: هذا ما تشير إليه رؤية البقر السمان وهي سبع، فإن البقر السِّمان يثير الأرض، ويُنْتفع منه يوم يكون الحرث والزرع طيبًا وجيدًا، وهذا ما تشير إليه كذلك رؤية السنبلات الخضر التي هي علامة على سعة العطاء والفضل والرزق.

﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ﴾ إرشاد لهم في سنوات الخير بأن لا يستهلكوا كل محاصيلهم، وألا يتهاونوا في الحفاظ على أكبر قَدْرٍ مُمكنٍ منها، وألا يغترُّوا ويظنوا أن هذا الخيرَ دائمٌ، ولكن سيأتي بعد سنوات الخير والسَّعة سنواتٌ صعبة سيشير إليها قريبًا في سياق تأويله للرؤيا.

وتوجيهه يهدف إلى اجتناب الخطر على البلاد والعباد، ويقوم على أن ينظروا في حصاد الزرع كل عام، ثم يأخذوا منه المقدار الذي يأكلونه ولا يتوسعوا كثيرًا، ولا يهملوا الزائد منه أو يهلكوه أو يسرفوا فيه، ولكن يعملوا على ادِّخاره، وتخزينه عن طريق تركه في سنبله ليأمن من إصابة السوس له، وتسارع الرطوبة والفساد إليه، وليكون عونًا لهم في سنوات الجدب والقحط والشِّدَّة الآتية.

وهذا النص من النصوص التي يعتني بها أهل الإدارة، ويعتبرونه أصلًا من أصولها في إدارة الأزمات، وهو أمر نحتاجه في حياتنا التي نعيش فيها تقلبات كثيرة، والتي نجد فيها كثيرًا من الناس ينفقون أكثر مما يحتاجون، ويلبسون ثوبًا أكبر من ثوبهم لمجاراة غيرهم.

وهذه مسألة تحتاج إلى عمقٍ في النظر، وإلى بناء صحيح حول الدنيا وقيمتها في حياتنا، وتحتاج إلى صبرٍ وتصبُّر على زخرفها وزينتها، وتحتاج إلى حكمة وفهمٍ، وعقيدة راسخة في القلب لا يهزها ما ترى العين، وما يخطر على البال.

﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ سَبۡعٞ شِدَادٞ يَأۡكُلۡنَ مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ ٤٨﴾

ستأتي بعد سنوات الرخاء سبعُ سنوات صعبةٍ عليكم وشديدةٍ، ولن يكون حصاد زرعكم وماء السماء كافيًا لتلبية حاجاتكم، وستأكل هذه السنوات العِجَافُ الجدباء القحط ﴿مَا قَدَّمۡتُمۡ لَهُنَّ﴾ أي: أنتم تقدمون البذرة وتضعونها في التربة ولكنها لن تُنبت شيئًا، أو لن تُنبت إلا القليل مما لا يكفيكم، وسيأكل الناس وأهل البلد غالب ما عملتم على تخزينه وحفظه في سنبله، وسيفنى ما عندكم ﴿إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تُحۡصِنُونَ﴾ أي: سيقى اليسير مما ادَّخرتم وخبَّأتم وخزَّنتم. والبقرات العجاف والسنبلات اليابسات في رؤيا الملك علامة على ما ينتظركم من صعوبة وضيق وبلاء.

﴿ ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩ ﴾

قال أهل العلم: كلام سيدنا يوسف هنا ليس من تأويل الرؤيا، وليس مما سألوه عنه، ولكنه من علم الغيب الذي آتاه الله إياه دلالة على نبوته وصدقه في دعوته، وهذا عند من يقول بأنه كان نبيًّا يُوحَى إليه حينها.

يبشرهم بأنه سيأتي بعد السبع الشداد عامٌ خَصْبٌ يأتي الناسَ فيه غيثٌ كثير، وهو المطر الذي تحيا به الأرض وتسعد وتنتشي.

وفي هذا العام سترجع كثير من مظاهر السعة والرخاء، وسيعصر الناس فيه الزيتون زيتًا، والعنب خمرًا، والسمسم دُهنًا، وكذا الثمرات وما يحتاجونه من أمور معاشهم، وستمضي سنة الله تعالى في خلقه بحصول اليُسْر بعد العُسْر. ويظهر في كل كلمة قالها نبيُّ الله تعالى حُسْنُ التدبير، وأهمية العلم وفضل أهله في أحلك المواقف وأصعبها.

﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠ ﴾

رجع الساقي وهو يحمل تعبير الرؤيا إلى الملك وحاشيته، فعلم ومن معه أن هذا التأويل لا يصدر إلا من صاحب علم وحكمة وفهم وحُسْن تدبير، وَعَلِمَ من مبادرته إلى التأويل دون اشتراط بأن هذا الأمر لا يصدر إلا من صاحب فكر ورسالة وخلق عظيم، فخاطب الملأ وأمر بإخراجه من السجن وإحضاره، وبعث رسولًا من عنده إلى القائمين على السجن بذلك.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ وصلَ رسولُ الملك إلى يوسفَ عليه السلام ليأتيَ به ولُيخرجَه مما هو فيه، وليسمع منه الملك بنفسه ويرى حقيقة حاله، فَأَبَى عليه الصلاة والسلام، وامتنع من الاستجابة لطلب الملك، ثم قال لهذا الرسول: ارجع إلى ربك، أي: إلى الملك، وأخبره أنني أناشده بأن يجمع النسوة اللاتي قطعن أيديهن لما خرجْتُ عليهنَّ بطلب من سيدتي سيدةِ القصر، وأن يسألهن عن قصتهن وحقيقة ما جرى في ذلك اليوم العصيب.

وكأنه يقول له: أخبره أنني دخلت السجن بغير حقٍّ، وأن الذين وكَّلتَهُم بتتبع الدلائل والآيات في قصتي قد اجتمعوا عليَّ وافْتَرُوا، وأدخلوني السجن لسنوات طويلة ظُلمًا وعدوانًا.

طَلَبَ يوسف عليه السلام شهادة النسوة لأنهنَّ حَضَرْن إقرارَ امرأةِ العزيزِ يوم قالت لهُنَّ: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٢].

ومن حكمة سيدنا يوسف في موقفه هنا أنه ذكر أمر النسوة على العموم ولم يطعن بواحدة منهن، ولم يذكر زوجة عزيز مصر على وجه الخصوص، وذلك لئلا يُحْدِثَ ذِكْرُها نفورًا عند زوجها من أن يتتبع قصتها من جديد.

وربما كان هذا منه وفاءً للقصر الذي أكرمه من قبل وتربَّى فيه، ووفاء لزوجة صاحب القصر التي أعطته الكثير من الرعاية والعناية.

وانظروا في حكمة يوسف كيف أثار عليه الصلاة والسلام مسألة تقطيع الأيدي في خطابه، ولعله فعل ذلك ليُحدث عند الملك فضولًا ورغبة في معرفة ما جرى، وليضمن حصول الدافعية الكاملة عنده ليبحث في التفاصيل بنفسه وإشرافه، ولا يُوْكِلُ الأمر لغيره.

ولقائل أن يقول: عجيبٌ أمر سيدنا يوسف عليه السلام، لماذا أبى أن يخرج من السجن على الفور بعد طَلَبِ الملك، ولماذا كان خروجه مشروطًا بظهور براءته عليه الصلاة والسلام، ولماذا لم يأخذ بالأسهل فيما لا معصية فيه؟ وهذا المعنى جاء فيما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «نَحْنُ أَحَقُّ بِالشَّكِّ مِنْ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ لُوطًا، لَقَدْ كَانَ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وَلَوْ لَبِثْتُ فِي السِّجْنِ طُولَ مَا لَبِثَ يُوسُفُ، لَأَجَبْتُ الدَّاعِيَ». وفي رواية عند أحمد أن النبيَّ ﷺ قال: «لو كُنْتُ أَنَا لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ، وَمَا ابْتَغَيْتُ الْعُذْرَ».

وهذا الحديث معناه أن سيدنا إبراهيم لم يشك بقدرة الخالق لما سأله أن يحييَ الموتى، وإنما كان طلبًا للرؤية التي تُفْرح القلب وتزيده يقينًا على يقين. وكذلك يشير صلى الله عليه وسلم إلى صعوبة بلوى سيدنا لوط عليه السلام، وكيف أنه في أحلك المواقف كان يأوي إلى ربه ولا تلين له عزيمة.

والجواب عن عجيب أمر سيدنا يوسف الذي تعجب منه نبيُّنَا عليه الصلاة والسلام، وأخبر أنه لو دُعيَ إلى الخروج لسارع فيه بعد كل هذه السنين، مع أن نبينا عليه الصلاة والسلام صبر على ما هو أصعب وأشقُّ، أقول: الجواب هو أنه ربما كانت هناك اعتبارات متعددة لمثل هذا القرار الصعب:

منها: أن إظهارَ براءته وإثباتَها بعد خروجه من السجن لا يكون كما لو طلبها وسعى فيها وهو في السجن، وبيان ذلك أنه لو طلبها بعد خروجه لكان طلبه هذا كأنه رجاء وطلب للشفاعة ومِنَّةٌ من الملك عليه، وربما لا يستجيب له الملك في طلبه ويكون موقفه ضعيفًا بين الناس وعند حاشية الملك.

ومنها أنه لو خرج قبل ظهور براءته فسيبقى في نفس العزيز منه شيءٌ، ولن يصفوَ له لتَعلقِ الأمر بعِرْضه وزوجته.

ومنها: أن نبي الله يوسف عليه السلام أراد أن يأخذ فرصته التي يستحقُّها، وما كان له ذلك لو طلب ظهور البراءة بعد خروجه من السجن، فلما طلبها وافَقَ طلبُهُ مزاجًا عاليًا عند الملك لمعرفة حقيقة هذا الرجل وصحة كلامه، وهذا طريق أسرعُ ليتبوأ مكانةً تحقق ثمرة نبوَّته بين الناس، وأيسرُ عليه في تَرَبُّعِه في قلوبهم ونزولهم عند وَعْظه وإرشاده.

إن صبر يوسف عليه السلام في هذا الموقف من أعجب العجب، وأنفع العبر لأصحاب الشدائد، وهو مما أرادته الآية الكريمة: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [سُورَة يُوسُف: ٧].

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ الله يعلم مكرهن وما اجتمعن عليه، ويعلم صنيعهن وما جال في خاطرهن، وسيُظهر سبحانه أمرهن عاجلًا أو آجلًا؛ هذه ثقته بخالقه التي لم تنقطع يومًا عنه منذ ألقاه إخوته في البئر.

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

رجع الرسول إلى الملك ونقل إليه طلب سيدنا يوسف عليه السلام، فاستجاب له وجمع النسوة اللاتي ذكرهن يوسف، ثم خاطبهن وسألهن عن حقيقة ما جرى، وهل يوسف السجين مظلوم أم هو معتدٍ؟

قال لهن: ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ يعني: ماذا حصل معكنَّ في اليوم الذي كنتن فيه في ضيافة زوجة العزيز، وما تفاصيل اجتماعكنَّ ﴿ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ ﴾ أي: ما الذي حملكنَّ على حصول المراودة منكن ليوسف، وهل صدر منه ميلٌ نحوكُنَّ في قوله أو فعله؟

﴿ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ ﴾ بدأ ظهور الحق على ألسنة النسوة عن طريق إقرارهن بأن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يصدر منه أيُّ أمْرٍ مُريبٍ، ولا رَأَيْنَ منه سُوءًا أو تُهْمَةً تُذْكرُ، لا في قوله ولا في فعله، وكذلك فيما سمِعْنَ عنه وعَلِمْنَ من حاله، ولا صدر منهن كذلك أي فعلن مَعيبٍ ومَشينٍ نحوه.

وكلامهن هذا يتضمن إقرارًا بعفته عن الوقوع في المحظور، فهؤلاء النسوة مقرباتٌ من سيدة القصر، ويَعْلمنَ حقيقة ما جرى وإن اقتَصَرْنَ في كلامهنَّ على أنفسهنِّ ولم يتعرَّضْنَ لزوجة العزيز، ولكنَّ ما وراء الكلام مفهوم ومعلوم.

وعبارة: ﴿ حَٰشَ لِلَّهِ ﴾ أي: معاذ الله أن نفتري عليه كلامًا يخالف ما رأيناه منه وما عرفناه عنه، والله ما رأينا منه إلا العفةَ والفضيلةَ وكلَّ خير.

﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾
هذا يدل على أن زوجة العزيز كانت ممن أحْضَرَها الملك مع النسوة وإن لم تكن ممن قَطَّعْن أيديهن، ولكن صلتها بالحدث عظيمة وكبيرة.

وقد بدأت النسوة قبلها بالكلام مع أنها أرفعُ منهن قَدْرًا لأن موقفهن أقوى من موقفها، ولعلها من سؤال الملك وجواب النسوة بدأت تعلم صعوبة الفرار والهروب والكتمان، ولم يكن أمامها إلا أن تَصْدَحَ بكلمات تُظهر ضَعْفها وعَجْزها، وتُظْهر براءة النبِيِّ التي ينتظرها كل من يعيش مع فصول هذه القصة، وتُنْهي مرحلةً أخرى من مراحل البلاء التي عاشها ابنُ بيت النبوة والطُّهْر والعفة، وما أعظمها من مرحلة.

قالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهرَ وثبتَ وانكشفَ بعد أن كان مخفيًّا ومُشْتبهًا على الكثير، ومشكوكًا فيه.

ما أصعبها من لحظة على امرأة العزيز، وما أصعبها على كل من تواطأ معها في ظلم النبي الصديق العفيف الطاهر.

اعترفت صاحبة قرار سجنه بأنه صاحب حقٍّ، وأنَّ سِجْنه كان خلافًا للعدل، وأنها هي من أساءت وبذلت نفسها وراودته ليقعَ في الحرام، وأنه ما قابلها إلا بالهروب منها وإغلاق أبواب الفاحشة أمامها، وأنها كَذَبَت لتحفظ نفسها وتنتقم منه، وأنه صادق في جميع ما قاله ورواه.

﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾

تُكْمل اعترافها وتبررُ جهرها أمام مجلس الملك بهذا الكلام الصعب، وتخبرهم أن الذي ملأ عقلها وقلبها في هذه اللحظات هو زوجها الملك، وقد قصدت بكلامها أن يطمئن إلى أن الذي حصل منها في خلواتها بيوسف، كان مجرد مراودة صدرت منها اتجاه هذا الشاب، وأن الفاحشة لم تقع.

ومن أهل العلم من قال: إنها قصدت بكلامها سيدنا يوسف عليه السلام، وقد أرادت أن تذكر له وفاءها وحرصها على عدم الإساءة إليه في غيابه، وأنها لم تقدح فيه كلَّ هذه الفترة، ولم تطعن فيه وفي عفته.

وانتبهوا إلى أن إقرارها هذا لم يكن بحضرة نبي الله يوسف عليه السلام، ولكنها قالَتْه ليَعْلَمه، وكأنها تريد أن تقول شيئًا تعتذر له فيه عن سنواته التي ضاعت في السجن بسببها.

وقال جمهور أهل التفسير: إن هذه الآية ليست من قول امرأة العزيز، بل هي من قول سيدنا يوسف عليه السلام، وهي تعبِّرُ عن سبب طلب يوسف إظهار براءته قبل خروجه من السجن، وأنه قصد بذلك أن يعلم الملك أنه لم يخنه في غيبته عن بيته، وأنه ما أراد فعل الفاحشة مع زوجته، ولا راودها عن نفسها.

وبطريقة أخرى: هذه الآية ليست معطوفة على قول امرأة العزيز في الآية السابقة، بل جاءت معطوفة على قول سيدنا يوسف عليه السلام الذي طلب فيه من الرسول أن يرجعَ للملك ويسأَله عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن، والآيات المعترضة بينهما من كلام الملك والنسوة وامرأة العزيز جاءت على أسلوب معروف عند العرب وله شواهده من كلامهم، بل ذكروا له شواهد من القرآن تراجع في أمهات كتب التفسير.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ سواء كان ذلك من كلامها أو من كلامه، فختام الآية يدل على أنه لو حصلت خيانة لما وصلنا إلى هذه المرحلة من تَكَشُّف الأمور على حقيقتها، وظهور كامل تفاصيلها، فإن أهل الخيانة لا يهديهم الله، ولا يوفقهم إلى الخير، ولا يُسددهم، ويجعل فضيحتهم أكبر وأصعب.

﴿*وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣﴾

إذا كان هذا الكلام من تمام ما قالته امرأة العزيز، وهو على خلاف ما قاله جمهور أهل التفسير، فيكون معناه أنها تعترف في مجلس الملك أمام النسوة أن نفسها قد أمَرَتْها بالسوء، وأنها أطاعتها وراودت نبي الله عن نفسه وحاولت أن تفعل الفاحشة معه، وهذا أول اعتراف لها أمام الملك، بخلاف اعترافها أمام النسوة فإنه الثاني. واعترافها هذا جاء بعد الآية السابقة التي قد يُفهم منها أنها بريئة من كل شيء، وأنه لم يصدر منها ما يعيبها.

ثم تُقرِّرُ أن النفس تأمر بالسوء كثيرًا، وأنه لا ينجو منها إلا من عصمه الله وأراد به خيرًا، وأن من علامات رحمة الله واصطفائه وتوفيقه الثباتَ أمامَ ما تشتهي هذه النفس وتتمنى، وكأنها تشير إلى أن هذا الصنف قليل في الناس.

أما إذا كانت هذه الآية من تمام ما قاله نبي الله يوسف عليه السلام، وهو قول جمهور أهل التفسير، فهو يحمل إقرارًا بأنه همَّ بامرأة العزيز كما همت به، وأنه ليس معصومًا من الخطأ والزلل، وأن برهان ربه الذي رآه حَالَ بينه وبين أن يراودها أو أن يصدر منه ما يشينه عليه الصلاة والسلام. ثم يستحضر عليه السلام أن رحمة الله تعالى هي التي تحفظ عباده الصالحين وتحول بينهم وبين الفواحش والمنكرات، وتجعل نفوسهم مطمئنة بالطاعة كارهة للمعصية، وهي التي تنجيهم من السقطات التي لا قيام بعدها.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ختام للآية استأنس به القائلون بأن الآية هذه من قول نبي الله يوسف عليه السلام وليس من كلام امرأة العزيز، ووجه ذلك أنه هو الذي يناسبه المقام أن يستحضر عفو الله ورحمته عن همه بامرأة العزيز، والمقام لا يناسبها لأنها ليست مؤمنة، ولم تذكر الآيات أنها دخلت في دين يوسف، أو أنها كانت ممن يرجو رحمة الله ومغفرته.

وناقش أصحاب القول الآخر هذا الكلام بأن المشركين الذين يعبدون الأصنام يؤمنون بالله أيضًا، كما دلت على ذلك الآيات المتعددة ومنها قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [سورة العنكبوت: ٦١]، وأنهم يعرفون فكرة الذنب والخطيئة وقد يطلبون الرحمة والمغفرة عن طريق أصنامهم.

والقارئ المتدبر لختام الآية هنا لا يفوته استحضار ظلالها التي لا غنى له عنها، فرحمة الله ومغفرته هي منتهى سُؤْل المؤمن، وهي التي يسعد قلبه بها إذا ما أصابه شؤم معصيةٍ وكَدَرُها ونكدُها، فيفزع إلى من يفرح بتوبة عبده إليه، ويناجيه بصدق لينال رحمته.

إن ربي غفور لمن تجرأ على المعصية والذنب، أي: يستر عليه ذنبه ويتجاوز عنه إذا تاب توبةَ صدق، وهو رحيم به لأنه أمهله ولم يعجل عقوبته، ثم وفقه للتوبة والإنابة، بل إن رحمته ستناله في أرض المحشر التي لا ينفع فيها شيء إلا لطف العظيم جلَّ وعلا.

وقبل ختام تفسير الآية أذكركم أن النفسَ مَرْكبُ الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان، وأن الله تعالى ألهم هذه النفس فجورها وتقواها، أي: عرَّفها حالهما وما فيهما من الحُسْن والقُبْح، وهي تتعرض للأمرين، والسعيد من وفقه الله ليكون من أهل التقوى.

وأذكركم أن النفس تحتاج إلى تزكية دائمة وإن كان صاحبها نبيًّا، وأن الآية هنا ذكرت واحدة من النفوس التي جاء ذكرها في آيات القرآن العظيم: وهي النفس الأمَّارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة.

أما النفس الأمارة بالسوء فهي التي تأمر صاحبها بالفواحش والمنكرات، وتعينه عليها، وتذكره بها إذا نسيها أو أراد الاستقامة والتوبة منها، وهي التي تقود صاحبها إلى النار إذا استرسل معها ولم يخالفْها، أو يحاسبْها، أو يَفْطِمْها عن طريق أهل الباطل.

وأما النفس اللوامة فهي التي تلوم صاحبها كلما وقع في ذنب ما، وتعينه على التوبة والأَوْبة والرَّجْعة، وهي التي يضطرب قلب حاملها إذا عصى خالقه جل وعلا، وهي التي لا تيأس من طرق أبواب رحمة الله ولا تقنط، بل يبلغ الحال بها من شدة حرصها أنها تلوم نفسها في أرض المحشر على ما قصرت فيه من طاعة الله.

وقد أقسم الله تعالى بها دلالة على قبولها عند الله وقبول صاحبها، كما دل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]، وتقدير الآية هنا: لا، ليس الأمر كما تظنون يا من تنكرون اليوم الآخر، أقسم بالنفس اللوامة أنه واقع وآتٍ، وهذا على وجه عند أهل التفسير في بيان حقيقة النفس اللوامة.

وأما النفس المطمئنة فهي التي لا تلتفت إلى الذنوب والمعاصي في حياتها إلا ما يقع منها من هَنَّات وزَلَّات ولَمَم، وترى صاحبها لا يطمئن إلا بالطاعة، ولا يأنس ولا يسعد إلا بها، فإذا أقبلت عليه المعصية وقالت: هيت لك، يقول لها: إليك عني فقد طلقت الدنيا ومتعها، وليس لي منها حاجة إلا أن يرضى الله عني ويكرمني بالفردوس الأعلى، ويرزقني لذة النظر إلى وجهه. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

﴿وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ ٥٤﴾

يغلب على الظن أن المشاعر المختلطة قد أحاطت بقلب الملك بعد أن سمع كلامهن، وأنه شعر بتأنيب الضمير، وأنه خسر في ملكه وحُكمه رجلًا بألف رجل، وأنه فاته شيء كثير من النصح والتوجيه والإرشاد والحكمة، وفاته كثير من العلم والفهم والقوة.

ينادي الملك في حاشيته والملأ: أخبروا يوسف أنني فعلت ما أراد، وقد ظَهَرَتْ لي براءتُه وحسنُ خلقه، وظهرت قدرته على تحمل المشاق، وظهر لي من تتبع أحواله أنه قائد ملهم، فقد سارع في تأويل الرؤيا على وجه معقول ومفهوم، ورفض الخروج من السجن إلا برأس مرفوعة أمام الجماهير، وقد شهدت له النسوة بالعفة والوفاء.

ينادي الملك فيهم، يقول: إني أريد أن أصطفيَه ليكون من خاصتي وأهل مشورتي، ومن المقربين مني في حُكْم الديار وسياستها، وهذا يدل على علو فهم الملك وعمق تفكيره، وأنه يريد أن يعوض يوسف عليه السلام شيئًا.

﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ خرج يوسف من السجن وانتهت محنته التي طالت وصعبت، وجاء إلى قصر الملك بهامَة مرفوعة، وثقة بالنفس وعزة وكرامة، فكلَّمه الملك وسأله عن أمور شَتَّى، فعلم من جمال منطقه، وحسن حواره، وبلاغة قوله أنه يكلم صاحب فهم ودراية واسعة، وأنه أَهْلٌ للثقة، ثم قال له: ﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ أي: ذو مكانة عالية ومقام مرفوع، وسنسلم لك سلطة من سلطات دولتنا، وكذلك أنت لدينا: ﴿ أَمِينٌ ﴾ على ما اؤتمنت عليه، وأنت كذلك في أمانة وحفظ وحماية، ولن تنالك الأيد الأثيمة مرة أخرى.

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾

يجوز للرجل إذا جُهل أمْرُه أن يذكر خصاله، وأن يطلب أن يكون في صدارة الحكم ووزاراته إذا علم قدرته عليها، وملك أدواتها، وسعى في مصالح الناس، وأَمِنَ الفتنة على نفسه، وهذا من النصح الواجب للأمَّة.

يطلب سيدنا يوسف عليه السلام من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، والأرض هنا هي أرض مصر، والخزائن هي خيراتها وثمراتها وأموالها، والمقصود أنه طلب أن يتصرف فيها على الوجه الذي يحقق مصالح البلاد والعباد، وأن يكون وكيلًا في غلَّاتها، وحفيظًا عليها، ومُدبرًا لأمرها.

ثم يختم سيدنا يوسف عليه السلام طلبه ببيان مسوغاته، فمن مسوغاته أنه ﴿حَفِيظٌ﴾ أَيْ: مؤتمن على أموال الدولة، ولا تمتد يده إلى شيء منها، وأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ أي: هو ذُو عِلْمٍ وبَصَرَ بِمَا يصلح وما لا يصلح، ويجيد تدبير الأمور وإن ضاقت وصعبت، ولعله أراد بكلماته هذه أن يذكرهم بأن مصر تنتظرها سنوات رخاء وسنوات شِدَّة، فإذا غاب صاحب الأمانة والعلم عن المرحلة كانت نتائجها صعبة لا يعلمها إلا الله.

وهذا التعليل نافع في إدارة أزمات بلاد المسلمين التي تتابع وتتواصل، وتصعب مرحلة بعد مرحلة مع أن بلادَنا عامرةٌ بالخيرات والثروات، ولعل كثيرًا من أزماتها سببه غياب العالم المتخصص الأمين القوي.

وهنا مسألة يمكن أن نستطرد في بيانها قليلًا، وهي عن حكم سؤال الإمارة؟ وهل يسعى أهل الدين والالتزام إلى المناصب القيادية في الحياة؟

أما عن سؤال الإمارة فإذا لم يكن هناك من يجيد العمل، أو إذا غلب على ظنه أن غيره من أهل الفسق والفجور هو الأقرب للولاية والإمارة، وأنه سيُضَيِّع الحقوق ولا يعدل، فهنا لا يتخلف عنها ولا يتركها لغيره، ولكنْ يُقْبِل عليها قاصدًا أن ينفع الله به البلاد والعباد بالخير. أخرج أحمد وأبو داود والنسائي وغيرهم عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْنِي إِمَامَ قَوْمِي، فَقَالَ: « أَنْتَ إِمَامُهُمْ وَاقْتَدِ بِأَضْعَفِهِمْ، وَاتَّخِذْ مُؤَذِّنًا لَا يَأْخُذُ عَلَى أَذَانِهِ أَجْرًا ، وقد سأل سليمان عليه السلام ربَّه أن يعطيه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده».

وانتبهوا إلى أن الذين فهموا حقيقة دينهم وشريعتهم لا يسعدون إذا كانوا تَبَعًا لمن يُبْغضون الدين وأهله، ولمن يجهلون أحكامه وشريعته، ولمن يُقَدِّمون شرائع الكفر على شريعة أحكم الحاكمين، أقول: لا يمكن أن نسعد بهم تحت حيل نفسية وأفكار موهومة، بل الدين كله قيادة وسياسة، وكلمة التوحيد وحدها تصنع في نفوس قائليها العجائب لو علموها.

والممنوع هو طلب الإمارة والولاية لتكون هدفًا خالصًا لتحقيق مصالح خاصة، والوصول إلى مكاسب ذاتية. والممنوع كذلك أن يطلبها من ليس أهلًا لها، ومن يفتقد إلى العلم والحكمة أو القوة.

فالرجل الضعيف لا يطلبها وإن كان من أهل الصلاح في دينه، لما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةُ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا».

أما إذا كان ذوو الفضل متعددين، وكان أهل الكفاءة موفورين فخيرٌ له أن يجتنب سؤالها والسعي وراءها، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا» [الحديث].

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

وصل سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام إلى منصب المسؤول الأول عن مالية الدولة في أرض مصر، وأصبح مِمَّن يتصرف في مواردها وإنفاقها، وهو المنصب الذي كان عليه العزيز، ولا تغفلوا عن علوِّ قَدْر من يتولى أمور المال في الدولة، ولا تغفلوا عن هَيْبَته بين الناس وجاهه العريض، وحِرْصِهم على استرضائه وطاعته؛ ما أعظمه من تمكين.

فضلٌ عظيمٌ من الله تعالى على نبيه، لم يكن ليخطر له على بال بعد أن أراد إخوته قتله، وبعد أن بيع بثمن بخس، وبعد أن كان عبدًا، وبعد أن ضاق به الحال وأمضى كثيرًا من سنوات عمره مسجونًا.

المال شريان الحياة على مستوى الأفراد والدول، وهو سلاح من أسلحة المؤمنين التي لا ينبغي أن يغفلوا عنها، وجاهل من لا يلتفت إلى هذا المعنى في حياته، وجاهل من يجعل قوة المال في يد عدوه لينتظر الصدقة منه، وهذا ما يفسر شدة عناية الشريعة بالمال في فرائضها وأحكامها، ويفسر حرصها على ربط نظامها الاقتصادي بالقواعد الإيمانية والقيم الأخلاقية.

﴿ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ ﴾ هذا يدل على أن حسنة الدنيا من المنصب والمال والزوجة والذرية إنما هي من رحمة الله تعالى، وأن الله تعالى يعطيها لعباده بِقَدَرٍ لحِكَمٍ يعلمها سبحانه، وأنه يصيب برحمته من علم أنه أهل لها، وأن هذه الرحمة لا تضره في دينه ودنياه.

استحضروا فضل الله عليكم حال الوقوف مع هذه المواعظ القرآنية، واسألوا الله تعالى أن يصيبكم برحمته، وأن يؤتيكم في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وأن يسبغ عليكم نعمه ويصطفيكم لطاعته وكرمه، ويحفظ عليكم قلوبكم.

ومما يَذْكُرُه أهل التفسير في شأن العزيز أنه هلك بعد أن عَزَله الملك عن خزائن مصر، وأن الملك زَوَّج سيدنا يوسف عليه السلام من زوجة العزيز فوجدها بكرًا وقد أخبرته أن زوجها لا يأتي النساء ولا يقدر على جماعهن، والظاهر أن رواياتهم في ذلك كانت نقلًا عن بني إسرائيل، وليس في ديننا ما يُصَدِّقُ كلامهم أو يُكَذِّبُه.

﴿ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أحْسَنَ سيدنا يوسف في صبره على ألوان البلاء التي عاشها بتفاصيلها، واستعان فيها بالواحد الأحد دون اعتراض او كلل أو ملل، فلم يُضَيِّع الله له تعبه وصبره، وتقبل منه وأَعْقَبَه السلامة والنصر والتأييد والتمكين.

وهذا الجزاء ليس مقصورًا على نبي الله يوسف عليه السلام، بل هو لكل محسن صدق الله تعالى في عبوديته، وطار قلبه فرحًا بقدر الله وإن كان عسيرًا، واستحضر على الدوام حقيقة دنياه.

﴿ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٥٧ ﴾

أعطى الله تعالى يوسف من خير الدنيا، وأكرمه بشيء من الملك بعد هذه السلسلة من المِحَن، ولكن هذا الخير لا يقارن بما أعده الله له من الخيرات في الدار الآخرة.

وسبحان الله كيف كانت طاعةُ الرحمن سببًا في أن يصبح سيدُنَا يوسف وزيرًا وحاكمًا، وهذه فائدة لا تفوتكم فإنها من ثمرات الطاعة، ومعلوم لديكم أن التمكين لهذه الأمة لا يكون إلا لمن آمن بالله العظيم، وأقبل على عملِ الصالحات، ثم جعل بينه وبين المنكرات سدًّا منيعًا.

ومن الفوائد اللطيفة هنا أن العبد الذي أعطاه الله بصيرة، يجعل كل نِعْمة من نعم الدنيا في دائرتها التي تستحقها، ويستحضر معها أن أجر الآخرة أعظم وأجل وأكبر، سواء كانت هذه النعمة له أم كانت لغيره.

يا أهل الإيمان والتقوى: بُشراكم في هذه الآية بما أعده الله لكم من أجر عظيم وكرامة لا يمكن وصفها، فاصبروا حتى اللقاء.

يا من انغمستم في الشهوات المحرمة سماعًا ونظرًا وكلامًا ومجالسة: إن نعيم الآخرة ينتظركم إذا صدقتم في إيمانكم وتوبتكم، وجعلتكم التقوى عُدَّتكم في الصبر عن المنكرات، فأقبلوا ثم أقبلوا، واستحضروا على الدوام أن لذائذ الدنيا فانية، وأن لذائذ الآخرة باقية.

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وصل يوسف عليه السلام إلى الحكم، وأشرف بنفسه على سنوات الرخاء وسنوات الشدة، وأدار المشهد بكامله على خير حال.

يقول أهل التفسير: مرَّت أول سبع سنوات على أهل مصر وهم في خير وسعة، إلا أن إدارة سيدنا يوسف لها كانت تقوم على الاقتصاد في الإنفاق والاستهلاك، حتى كان المخزون الذي تركوه من الغَلَّات والأموال عظيمًا.

ثم جاءت سنوات القحط صعبة على مصر، وعمَّت البلادَ والأقاليمَ من حولها كبلاد الشام وغيرها، فقصد الناسُ أهلَ مصر من كل حَدَب وَصَوْب، وأقبلوا عليهم ليطلبوا الطعام وما يحتاجونه لقوام عيشهم، فكان نبيُّ الله يوسفُ عليه السلام يعطي لكل واحد ممن جاءه حِمْلَ بعير لكل سنة، وكان يأخذ بدلًا من ذلك ما يناسب حالهم من ثياب أو طعام مُخْتلف أو نقود، وكان عليه الصلاة والسلام لا يَشْبع هو والملك وعِلْية القوم، ولا يتجاوزون الأَكْلة الواحدة في النهار كما ذكر أهل التفسير.

وكان ممن ورد على بلاد مصر إخوة يوسف، وهم الذين كانوا يسكنون أرض فلسطين التي كانت تعرف بأرض كنعان، جاؤوا بأمرٍ من أبيهم بعد أن بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام ويبيعه بثمن يناسبهم.

أرسل نبي الله يعقوب عليه السلام جميع أبنائه في هذه الرحلة ما عدا أصغرهم، وهو بنيامين كما أشرنا من قبل، وذلك ليحصلَ كلٌّ واحد منهم على حِمْل بعير كامل، فيرجعوا بمؤنة كثيرة وطعام يكفيهم وأهليهم.

جاء الإخوة إلى يوسف عليه السلام ومعهم البضاعة التي سيشترون بها الطعام، ودخلوا عليه وهو جالس في رياسته وأُبَّهَته وفخامته، فعرفهم عليه الصلاة والسلام وأدرك أن الذين وصلوا إليه هم إخوته دون أن يعرفوه أو يشُكُّوا في صلته بهم، بل كانوا مُنْكرين له كما في ختام الآية.

يا الله، كيف تظنون حاله عليه الصلاة والسلام مع دخولهم عليه، بعد أن كادوا له وفارقوه صغيرًا، ولم يظنوا ولو للحظة ان يبلغ أخاهم ما بلغ، وأن يصير إلى ما صار إليه، ولست أدري هل اجتمعت مشاعر الرغبة في الانتقام مع مشاعر الشوق والحنين، أم كان الشوق لأبيه وأخيه، ثم علاقة الدم بينه وبين إخوته أكبرَ من كل شيء، وهو ما ستُظهره الآيات الكريمات الآتيات.

والعجيب أن هؤلاء جاؤوا ليأخذوا نصيبهم من الطعام فوجدوا وزير المالية يباشر التوزيع ويراقبه بنفسه، ويشرف على تفاصيله عن قُرب، ولم يكتف بإصدار الأوامر جالسًا على كرسيه وعرشه، وهذا له دلالات متعددة لا تخفى على أفهامكم.

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ظاهر الحال أنهم لما دخلوا على يوسف عليه السلام وعرفهم، جعل يسألهم عن أحوالهم، وعن أرضهم والأسرة التي ينتمون إليها، ولا يفوتكم أنه عرف أخبار أبيه وأخيه منهم عن طريق الحوار وما ظاهره التعارف، حتى توقف مع قصة أخيهم وطلب منهم أن يحضروه معهم في المرة القادمة.

وقد أخبرت الآية أنه طلب منهم إحضار أخيه بعد أن جهزهم بجهازهم، أي: أعطاهم ما يحتاجونه، ووفَّى لكل واحد منهم حمل بعير، ولعله في ختام حواره معهم طلب أخاه متظاهرًا أنه يريد تصديقهم فيما أخبروه عن عائلتهم، ولعلهم طلبوا زيادة حصتهم بسبب أبيهم وأخيهم فاشترط حضوره ليتحقق، أو أنه تظاهر بأنه حريص على أن يزدادوا حمل بعير آخر معهم، أو أنه يريد أن يتحقق أنهم ليسوا جواسيس جاؤوا لإلحاق الضرر بالبلاد والعباد، أقول: يفعل ذلك متحايلًا عليهم ليُحضروه.

وتأملوا كيف طلب منهم إحضار أخيهم من أبيهم وليس من أبيهم وأمهم، وهذا يعني أنهم وصلوا معه في الحديث إلى تفاصيل حياتهم الدقيقة، وكأنه أراد أن يَشْبع من أخبار أهله الذين اشتاقت عيناه لرؤيتهم، والذين غاب عنهم كثيرًا وتعرض فؤاده لما يتعرض له كل مغترب عن أهله وداره.

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ يقول ذلك ليرغبهم في الرجوع إليه، وليضمن رؤيته لأخيه الذي أحب، ولأخيه الذي اشتاق إليه، وليكون توطئة لاجتماعه بأبيه عليهما السلام.

يُرَغِّبُهم عن طريق تذكيرهم بأنه أوفى إليهم حاجتهم من الطعام ولم يظلمهم، ولم ينتقص شيئًا مما اتفقوا عليه، فهو خير المنزلين الذين يستقبلون الضيوف ويكرمونهم إكرامًا عظيمًا.

يرغبهم وهو متأكد أنهم سيرجعون إلى مصر مرة أخرى لعدم كفاية ما حصلوا عليه، فالبلاء الذي نزل كان ممتدًا، وعددهم كثير وليس قليلًا، كما دل على ذلك قولهم لأبيهم لما طلبوا أخاهم منه، قالوا: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [سُورَة يُوسُف: ٦٥].

﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾

إصرار منه على إحضار أخيه، وإلحاح منه على وجوده في قادم الصفقات، وتهديد لهم بمنعهم من حاجتهم إذا لم يأتوا به ليكون معهم، يقول لهم: ليس لكم طعام عندي أكيله فلا ترجعوا إلى هذه الأرض بدونه، هو يريد أن يدبر الأمر ليجتمع بأهله جميعًا.

﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

يخبرونه أن أباهم متعلق به، وربما لا يأمنهم عليه في سفر كهذا، ويخبرونه أنهم سيبذلون قُصارى جُهْدهم وكلَّ حيلة مستطاعة في سبيل مجيئه ليعلم صدقهم فيما قالوه.

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

خشي يوسف عليه السلام من عدم رجوعهم إليه، وخشي أن تكون الأثمان والبضاعة أو الدراهم التي اشتروا بها الطعام هي آخرَ ما يملكون، ثم لا يجدون شيئًا يشترون به في قادم الأيام، فطلب عليه السلام من غلمانه وخَدَمه ومساعديه أن يعيدوا الأثمان التي أحضروها من بلادهم في المرة الأولى إلى رحالهم التي توضع على البعير، وأن يجعلوها في أمتعتهم من حيث لا يشعرون. فعل ذلك ليكون رجوعهم أسهلَ عليهم، وليرفع الحرج والضيق الذي لحقهم بما طلبه منهم من إحضار أخيه وأخيهم.

ومن أهل العلم من رأى أن إعادة البضاعة إليهم كانت لأنه وجد حرجًا من أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمن ما يحتاجون فهذا من واجباته ومما يلزمه، ومنهم من ذهب إلى أنه أراد أن يوسع عليهم، ومنهم من ذهب إلى أن أراد ان يوقعهم في الحرج ويوصلهم إلى الاستحياء منه فيرجعون إليه مرة أخرى.

وقوله: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ ﴾ أي: لعلهم يعرفون أنها نقودُهم الخاصة ببلادهم، أو يعرفون أنها ذات البضاعة التي اشتروا بها الطعام من عزيز مصر، أو يعرفون أنها عطيةٌ وهديةٌ منه لهم.

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

رجع إخوة يوسف إلى أبيهم عليه السلام، وأخبروه بما حصل بالتفصيل، ثم صارحوه بما طلبه عزيز مصر منهم، وقالوا له: لن يعطينا عزيز مصر ما نحتاجه مرة أخرى، ولن يكيل لنا الطعام إلا إذا أحضرنا أخانا معنا، وطلبوا أن يأخذوه، وتعهدوا له وأعطوه المواثيق بأن يحفظوه من كل مكروه، وأن يرجعوه معهم وهو على خير حال.

﴿ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُۖ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤ ﴾

يستذكر الوالد عليه السلام كلام أولاده له لما جاؤوا ليأخذوا يوسف عليه السلام معهم في رحلتهم، فقد قالوا له: ﴿أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سُورَة يُوسُف: ١٢]، ولكنهم رجعوا بدونه، وخانوا العهد والوعد وزعموا أن الذئب أكله، فأخذ أبوهم بظاهر قولهم وَوَكَلَ سرائرهم وحقيقة ما جرى معهم إلى الله، وأخبرهم حينها أن قلبه لا يصدق روايتهم، وأنهم ظلموا أخاهم ظلمًا عظيمًا.

يقول لهم بعد أن راودوه هذه المرة عن أصغر أبنائه الذي هو من ريحة يوسف عليه السلام: كيف سيطمئن قلبي بوعدكم وقد أَحْدَثْتم فيه جرحًا عميقًا بما حصل مع أخيه يوسف عليه السلام من قبل؟ وماذا ستصنعون به في هذه المرة؟ وهل سَتُغَيِّبونه عني وتحولون بيني وبينه ليزدادَ أَلَمِي وَحُزْني وهَمِّي؟

ولكم أن تعيشوا في ظلال خطابه لأبنائه، فخطابه هذا متوقع أن يكون بهذا الشكل من الحرص والعتاب، ولعله بكلماته هذه أتعبهم بذِكر قصة يوسف التي لا أظنها غابت عنهم يومًا، ثم هم يطلبون طلبًا صعبًا عليهم وعليه ويتربصون بما سيقوله لهم، مع أنهم صادقون هذه المرة في كلامهم ووعدهم، ولا ينوون نية سوء كما فعلوا من قبل.

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ هذه كلمات تدل على عظم اليقين الذي يحمله نبي الله يعقوب عليه السلام في قلبه، وتشير إلى الرِّضا بقَدَرِ الله الذي كان خيرَ معين له على بَلْواه، وتُذَكِّر قارئها بأن رحمة الله تعالى قريبة منه، وأن الفرج سيأتي ولو بعد حين، وأن ثمة مواقف في حياة المرء لا ينفع معها إلا هذه الكلمات.

كثيرة هي المواقف التي نتعرض لها في حياتنا وتكون صعبة علينا، وقد نشعر بالعجز أحيانًا أمامها، أو قد نحتاج لاتخاذ قرار صعب على قلوبنا، وهنا تظهر قيمة الإيمان بالله العظيم، ويظهر حسنُ التوكل عليه والثقةِ بقَدَرِه، وهنا تتمايز العقول والقلوب.

أطلب هنا من السادة القراء أن يدركوا تمامًا أن تفاصيل قصة نبي الله يوسف عليه السلام نعيشها نحن كل يوم، ولكنها قد تأتي بصور أخرى وأشكال متعددة، والعاقل من انتفع بفوائدها وكنوزها ليحسن إدارة حياته، ويسعدَ في الدارَيْن.

يدرك نبي الله عليه السلام حاجتهم إلى الطعام، ويعلم أن رجوعهم إلى مصر لإحضاره أمرٌ لا مناص منه ولا هرب، ويعطي أولاده مفتاح قبوله بذهاب أخيهم معهم، ويقول لهم: لو قَبِلْتُ إرساله معكم فأنا أعلم أن حفظ الله تعالى لولدي فوق كل شيء، وأنه إذا أراد به خيرًا فلا رادَّ لفضله، ولا مُعقب لحكمه.

وكلامه يدل على أنه لا يرفض فكرة ذهابه معهم، ولا يريد أن يستعجل في إرساله، وأنه يحتاج إلى شيء ما يعينه في التيسير عليهم وعليه.

واستحضاره لرحمة الله تعالى في هذا المقام له أبعاد ثلاثة:

أولها: أن رحمة الله بولدي أعظم من رحمتي به، وأن حفظ الله له خيرٌ من حفظي وإن كنتُ والدًا، وخيرٌ من حرص إخوانه وحفظهم وإن زعموا ما زعموا وأعطوا العهود والمواثيق، وأن ما سيصيبه في ذهابه معهم من خير أو شرٍّ إنما هو من رحمة الله، فإنه لا يُقَدِّر للعبد إلا الخيرَ سبحانه.

وثانيها: أنه يسأل الله تعالى ألا يفجعه بولده الثاني، وأن يحفظه بحفظه ويرده إليه سالمًا إذا أخرجه معهم.

وآخرها: أنه يتوسل إلى الله برحمته ليُرْجِع له ولده يوسف عليه السلام، ويرجوه بلسان صادق أن يرحم ضعفه وكِبَرَ سِنِّه، وأن يجمع شمله بمن فقده وهو صغير، وكأن قلبه يعلم أن الذئب لم يأكل ولده، وأنه حَيٌّ يُرزق.

﴿ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ٦٥ ﴾

هذه الآية فيها دليل على أن أبناء سيدنا يعقوب عليه السلام بادروا بإخباره بتفاصيل ما حصل معهم، وبما طلبه عزيز مصر منهم قبل أن يفتحوا متاعهم ويُفتشوا في رحالهم وأغراضهم.

أخبرت الآيات السابقة أن يوسف عليه السلام أمَرَ فتيانه أن يُرجعوا مع إخوانه أثمان الطعام وما أحضروه معهم، فلما فتحوا الرحال وجدوا أن الأثمان الأولى لا زالت معهم، ففرحوا بكرم أهل مصر ووجدوها لفتة كريمة من عزيز مصر تعينهم في الرجوع إليه وإحضار مزيد مما يحتاجونه لقيام حياتهم ومعاشهم، ووجدوا فيها دعوة لهم ليرجعوا سريعًا ويحصلوا على ما يسعدهم.

خاطبوا أباهم لما وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم، وقصدوا بذلك تطييب نفسه والتخفيف عنها، وقصدوا كذلك ترغيبه بإرسال أخيهم معهم، وقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ﴾ أي: يا أبانا، ماذا نريد أكثرمن ذلك؟ وماذا نطلب أكثر من مودة عزيز مصر لنا وحرصه على رجوعنا ورؤيتنا؟ ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ﴾ أعطانا عزيز مصر حاجتنا من الطعام كما وعدنا، وأرجع إلينا البضاعة التي أخذناها لندفعها ثمنًا لما نريده، ولسنا بحاجة إلى مال جديد لنشتري به مزيدًا من حاجاتنا.

﴿وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا﴾ يعني: إذا أرسلت معنا أخانا الصغير فإن عزيز مصر سيعطينا المِيْرَة التي يحتاجها نساؤنا وأبناؤنا، والميرة هي الطعام.

﴿وَنَحۡفَظُ أَخَانَا﴾ يقولون لأبيهم: لا تخف، سنعتني به جيدًا، وسنحفظه، وسيرجع إليك وهو على خير حال، يريدون بذلك أن يزيدوه طمأنينة ليرتاح، وكأنهم يرجون منه أن يجربهم مرة أخرى ليُرجعوا إليه شيئًا من ثقته بهم.

﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ﴾ يحاول أبناؤه بهذا الخطاب أن يُغْروه باتخاذ قرار إرسل أصغر أبنائه معهم، وذَلك عن طريق الزيادة التي ستأتيهم بسببه، فإن يوسف عليه السلام كما تقدم يعطي حِمْل بعير لكل واحد يأتيه، ولا يزيد، وهذا أَدْعى لأن يحرصوا على سلامته ورعايته.

﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ لفظة ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجع إلى ما سيفعلونه ليأتوا بالطعام مرة أخرى، ومقصودهم: سنحصل على مزيد طعام بذهاب أخينا معنا وهو أمر يسير، وسنحصل على حمل أحد عشر بعيرًا من الطعام بالمجان، وبدون ثمنٍ لأن الثمن الأول أُعيد إلينا، فكانت رحلتنا هذه يسيرة ولا ينالنا فيه ضرر.

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

يعيش نبي الله يعقوب عليه السلام مرحلة صعبة في اتخاذ قرار يحسم طلبهم بأخذ أخيهم، والظاهر أنه يعيش صراعًا داخليا بين حاجتهم للطعام وبين ضعف ثقته بأولاده وخشيته على أخيهم الصغير.

كان آخر ما قاله لهم: سأرسله معكم إذا أعطيتم العهود والمواثيق على أن تحفظوه بإخلاص وصدق، وإذا جعلتم الله شاهدًا على وعدكم بأن تُرجعوه معكم ﴿ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي: إلا إذا حصل معكم بلاءٌ تعجزون عن دفعه، كأن يحيط بكم عدوٌ فيأسرَكم، أو تهلكون بسبب ما، أو غيرُ ذلك من أنواع البلاء الذي تعجزون معه عن تخليص أخيكم منه.

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ أعطوه العهود والمواثيق التي طلبها، وكانوا صادقين معه فيما وعدوه، فاحتاط لوعدهم بأن جعل الله وكيلًا على ما اتفقوا عليه.

يذكرهم برقابة الله على ما وقع بينه وبينهم، ويُشهد الله تعالى على أَيمانهم التي حلفوها ليؤكد لهم عظم الأمر، ولئلا ينزغ الشيطان أمرًا ما في قلوبهم فيمتنعوا عن الوفاء.

اطمأن يعقوب عليه السلام لعهودهم هذه المرة، وغلب على ظنه أن الأمر مختلف عن سابقه، ورضي بإرساله معهم، وأوصاهم وصية تأتيكم في قول الله تعالى:

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ليس سهلًا أن يدخلَ أحدَ عشرَ أخًا من أبٍ واحدٍ دفعة واحدة على مكان ما، فهذا يثير بعض ضعاف النفوس ممن يحرص على مراقبة الناس، وممن يتأثر في قرارة نفسه من هذا المشهد، وممن يحمل خُبثًا في نفسه وطَبْعه، وقد يصدر منه الحسد بالعين، وهو أشد أنواع الحسد وأكثرها ضررًا كما تقدم، وفيه تتوجه هذه النفس بإرادة السوء بهؤلاء الإخوة فيؤذيهم بعينه فيُمرضهم، أو يقتلُ أحدًا منهم، أو غيرُ ذلك.

يأمر يعقوب عليه السلام أولاده وقْتَ انطلاقهم للرحيل أن يدخلوا متفرقين إلى أرض مصر لئلا يلحقهم أذى أهل العين والشر، وهذا قول جمهور المفسرين. قال بعض أهل التفسير: وكانوا ذوي جمال وهيئة حسنة، ومنظر وبهاء.

ومقصود دخولهم متفرقين أن يدخل كل اثنين منهم أو ثلاثة من طريق يختلف عن طريق الآخرين، وألا يكونوا جماعة واحدة، وأن يلتقوا في مكان قريب من لقائهم بعزيز مصر.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يأمرهم بذلك في المرة الأولى وقد كانوا عشرة؟ والجواب أن الواحد منا قد يبدو له أمر في وقت ما، ولا يستحضره في وقت آخر، أو أن نبي الله يعقوب عليه السلام خشي أن يكون تكرار ذهابهم مدعاة لحصول الحسد، وهذا معلوم بين الناس فإن وقوع الشر في قلوبهم يكون غالبًا بعد أن تتكرر رؤيتهم لما يُتْعبهم.

ومن أهل العلم من قال: إن سبب هذه الوصية هو خوفه عليهم من عدو محتمل في داخل المدينة، أو أنه خشي أن يلفتوا النظر إليهم فيشكَّ الحراس والقائمون على حماية المدينة بأمرهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مبتغاهم.

﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ يعلمهم أنه بطلبه هذا إنما يأخذ بالأسباب، وأنَّ قَدَر الله تعالى فيهم لا يَرُدُّه شيء، وأنه لا يملك لهم إلا أن يدعو لهم بالحفظ، وأن ينصحهم بما ينفعهم كما فعل هنا.

نستفيد من كلام هذا النبي العظيم أن الأخذ بالأسباب في تحصيل المنافع ودفع المضارِّ مطلوب ومأمور به، وأنه يجب علينا أفرادًا وأمة أن نتتبع هذه الأسباب للوصول إلى تحقيق عبوديتنا واستخلافنا، ولكن اعتمادنا في الوصول إلى ما نرجو لا يكون على هذه الأسباب وإنما يكون على الله مدبرِ الأمر وخالقِ الأسبابِ وموجِدِها، ويكون بالرضا بما يقدره بعد الأخذ بالأسباب فهو العليم بما هو أنفع لنا، وهو الحكيم في قَدَره وشَرْعه سبحانه.

﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ هذه العقيدة حاضرة بتفاصيلها في جميع مشاهد القصة، وهي ظاهرة في كلام نبي الله يعقوب ونبي الله يوسف عليهما السلام، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنها أعظم مُعِين على البلاء، وأعظم حافظ للقلب والعقل إذا أشتد الأمر وعَظُم.

يُذَكرهم عليه السلام بأن التصرف والتقدير والأمر كله لله وحده لا شريك له، وأنه لا يكون في هذا الكون وفي هذه الخليقة إلا ما أراده جل وعلا، وأن العبد الموفق لا يتعاظم في نفسه، ولا ينازع الله تعالى في أمره وشرعه وقدره.

ويُذكرهم بتوكله على الله في ثقته بهم وإرساله ولده معهم، وفي إرسالهم جميعًا مرة أخرى، وفي أمره لهم بالدخول من أبواب متفرقة، ويبين لهم أن التوكل الصحيح المعتبر هو الذي يَصْدق فيه العبد، ويكون على المنهج الذي أراده الله وأمر به، ويدعوهم إلى أن يتمثلوا ذلك.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦٨ ﴾

تأكيد على أن أباهم أراد أن يدفع السوء والأخطار عنهم بما طلبه منهم، وأن يكون قد أَعْذر باستفراغه وسعه بتمام النصح، فهذه الحاجة التي كتمها في قلبه ولم يصارحهم بها لئلا يُدخل الخوف والحزن على قلوبهم.

وصل أبناؤه إلى مصر، ودخلوها كما أمرهم، وكانوا حريصين على وصيته لتتحقق الحاجة التي في صدره، فسلموا مما كان يخافه عليهم، وسلامتهم كانت بسبب أخذهم بالأسباب مع تمام التوكل على الله، ولو أراد سبحانه خلاف ذلك لكان فإنه سبحانه لا يغالب ولا ينازع، والمُلك مُلكه.

ومن أهل العلم من قال: طلب منهم أن يدخلوا متفرقين لحاجة في صدره يريد أن يقضيها، وهي رجاؤه بأن يلقى أحدهم يوسف عليه السلام في طريق من طرق مصر، يوسف الذي لا زال قلبه يشعر بأنه سيلتقي به في يومٍ ما.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ ﴾ هذا نبي مضى من عمره كثير، ولقد عَلَّمَه الله من عِلْمه، وأعطاه الحكمة والفهم وحسن التدبير.

﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أكثر الناس يجهلون قيمة هذا النبي، وقيمة الوصايا التي أطلقها ونادى بها، وقيمة الاعتماد على الله، وقيمة الأخذ بالأسباب، ويجهلون فقه توظيف هذه العقائد في تفاصيل الحياة فيتعبون ويشقون.

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَآ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٦٩ ﴾

وصلوا إلى أرض مصر ودخلوا كما أمرهم أبوهم، وكان معهم أخوهم الذي اشترط سيدنا يوسف عليه السلام عليهم إحضاره ليبيعهم الطعام، فاستقبلهم استقبالًا طيبًا، وأنزلهم في ضيافته، وأحسن إليهم بأنواع من الإحسان حتى استطاع ان يختليَ بأخيه بنيامين، ويُؤْيه ويقترب منه، ويتكلم معه سِرًّا.

يلتقي الأخ مع أخيه بعد سنوات طويلة من الفراق الصعب، والذي يغلب على الظن أن هذا المشهد كان يعني الكثير لنبي الله يوسف عليه السلام، وأنه مع رؤيته لأخيه بدأت ثمار صبره تُقطف بطريقة أخرى، وكذلك الأمر بالنسبة لأخيه الذي كان من أمه وأبيه، فإنه برؤيته ليوسف يكون قد ملأ النقص الذي عاشه، وأرجع إليه قلبَه بعد أن انكسر.

أخبر يوسف عليه السلام بنيامين بأنه أخوه الذي ظن أن الذئب أكله، وأَطْلعه على ما حصل معه، وأوصاه بألا يبتئس بما صنع إخوته، يعني: لا يأسف ولا يحزن ولا يتأثر كثيرًا بسبب طباعهم وفِعالهم.ثم أمره بكتمان ذلك عنهم، وأخبره أنه يريد استبقاءه عنده معزَّزًا مكرمًا، وأنه سيحتال لذلك لعل لقاءه بوالده الحبيب يقترب.

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ٧٠ ﴾

بَدَأت خطة نبي الله يوسف عليه السلام في استبقاء أخيه عنده، وكانت تقوم على حصول سرقة قام بها أخوه ليحكم عليه بالبقاء في مصر، والغالب أنه لم يُطلع بنيامين على تفاصيل حيلته.

أعطى يوسف عليه السلام إخوته حاجتهم من الطعام، ووفَّى إليهم كيلهم كما وعدهم، ثم أمَرَ فتيانَه بوضع السقاية في رحل أخيه، أي: أمرهم بوضع إناءٍ في البضاعة المحمولة على الإبل الخاص بأخيه الصغير، وهذا الإناء كان للملك، وكان يستعمله للشرب ولكيل الطعام، وكان مصنوعًا من الذهب أو من الفضة كما ذكر ذلك عدد من المفسرين.

وضعوا الإناء في متاع بِنْيَامِينَ دون أن يشعر أحد بذلك، ثم تركهم يوسف عليه السلام ينطلقون ويسيرون زمنًا ومسافةً، ثم ألحقهم جنده وحرسه، ثم نادى مُنادٍ من أعوانه ورفع صوته قائلًا: لقد فقدنا صواع الملك وسقايته، ويغلب على ظننا أنه موجود معكم أيتها العير، والعير لفظة تُطلق على الإبل المُحَملة بشيء ما، والمقصود بها الذين يقودونها، وهم إخوة يوسف عليه السلام الذين قدموا عليها من أرض الشام.

ولقائل أن يقول: كيف يتهم يوسف عليه السلام إخوته بسرقة لم يرتكبوها؟ أليس هذا من الافتراء عليهم؟ وهل الغاية تبرر الوسيلة لو فرضنا أن غايته صحيحة؟

والجواب يقع في الآتي:

١- لا يجوز الغش في ديننا لتحقيق النجاح، ولا يجوز التعامل بالربا لجني المال، مع أن المقصد في كلا المسألتين مقبول ومطلوب، ولكن الوسائل محرمة.

قال أهل العلم: الغاية لا تبرر الوسيلة، ولا بُدَّ أن تكون الغاية مشروعة وكذلك الوسيلة ليكون الأمرُ على مراد الشرع، والأصل أن المَقْصد إذا كان سيئًا فلا يجوز أن نفعل الشيء وإن كانت الوسيلة مقبولةً شرعًا، أما إذا كان المقصد صحيحًا وجائزًا فلا يجوز أن نصل إليه إلا بوسيلة صحيحة لا تخالف نصوص الشرع.

٢- التحايل للوصول إلى الحق ودفع الظلم مما لا حرج فيه، ما دام منضبطًا بضوابط الشرع، ولذلك أرشد النبي صلى الله عليه وسلم هِنْدًا إلى الأخذ من مال زوجها أبي سفيان رضي الله عنهما، ما يكفيها وولدها دون علم الزوج، مع أن ظاهر المسألة أنه سرقة، ولكنه حيلة للوصول إلى حقها في النفقة.

وكذلك أرشد الخضر عليه السلام في سورة الكهف أصحاب السفينة إلى أن يخرقوها، مع أنه إيذاء لها ولأصحابها، ولكِنْ لأنه خشي من الملك الظالم أن يستولي عليها.

وقد تحايل يوسف عليه السلام هنا لدَفْع ظلم إخوانه من أبيه عن أخيه الشقيق، ورَفْعِ إساءاتهم وتضييقهم عنه، وهو الذي فهمناه من كلامه لما قال له: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ **[يوسف: ٦٩]**.

ثم إنه أراد بتحايله أن يصل إلى حقِّه في رؤية أبيه والاجتماع بأسرته كما هو حال الناس في هذه الدنيا، ثم إن حيلته كانت مما أذن الله به وأراده كما سيأتي معنا، وقد قال بعض أهل العلم: إنها كانت بوحي من الله لأنه نبي.

٣- أورد غير واحد من أهل التفسير والمتون الحديثية بأسانيدهم إلى ابن عباس رضي الله عنهما، ما يدل على أنها كانت خطيئةً لنبي الله يوسف عليه السلام، وأنه عوقب على اتهامه هنا لإخوته بأنهم سارقون، وكانت عقوبته ما قالوه له من سرقة أخ له من قبل، يعنون بذلك يوسف عليه السلام، فآذوه بمقولتهم وأتْعَبوا قلبه، فكان ذلك كفارةً له.

وجاء في قول ابن عباس ما يدل على أن نبي الله يوسفَ عوقب ثلاث مرات: هذه واحدة، وعوقب قبلها بالحبس على هَمِّه بامرأة العزيز، ثم عوقب بطول إقامته بالسجن، ونسيان الساقي لذكره عند الملك، لما اعتمد يوسف على الساقي ولم يذكر الله تعالى بقوله: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ **[يوسف: ٤٢]**.

٤- ومن أهل العلم من قال: إن تهمة السرقة هنا كانت على سبيل التورية، والمقصود بها أنهم سرقوا يوسف من أبيه لما كان صغيرًا وألقوه في البئر، وهذه سرقة بالمعنى العام القائم على الخيانة والكذب.

﴿قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ۝٧١﴾

سأل أبناء نبيِّ الله المناديَ ومن معه عن الشيء الذي فقدوه، وقد اهتموا كثيرًا بالتهمة التي وُجهت إليهم، ولذلك اقبلوا على المنادي وسألوا عن التفاصيل.

﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾

أجابوهم بأن المفقود هو صواع الملك، أي: السقاية التي كان الملك يكيل الطعام فيها بالصيعان، وربما يشرب الملك فيها الماء وغيره.

ثم أعلنوا عن هدية وجُعَالة وجائزة لمن وجده، وكانت الجائزة أن يعطوه حِمْل بعير من الطعام، وهذه الجائزة منهم إنما كانت لنفي التهمة ودفع الشكوك.

ثم قال المسؤول عن الحرس والشرطة: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ أي: أنا كفيل وضامن لمن وجده ودلَّنا عليه بأن أعطيه ما وَعَدْنا.

وانتبهوا هنا إلى أن يوسف عليه السلام كان عزيزَ مصرَ المسؤولَ عن مالية الدولة، ولم يكن هو الملك، فالصاع ليس له في ظاهر كلامهم، وقد أخذوه من أغراض الملك ليكون الأمر جَلَلًا وعظيمًا ومستحِقًّا لما بعده من قرارات.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾

هذا ردُّهم على التهمة الصعبة التي تفاجؤوا بها، قالوا لأعوان يوسف عليه السلام: أنتم تقابلتم معنا أكثر من مرة، وقد رأيتم طيب خلقنا، وعلمتم أننا جئناكم من عند رجل صالح تربينا على يديه، وما كان لنا أن نسرق أو أن تمتد أيدينا إلى ما ليس لنا، فنحن نعلم تمام العلم بأن هذا من الفساد في الأرض، والفساد حرام في شريعتنا، فكيف لو كانت هذه الأرضُ أرضَ مصر التي أَكْرَمَنا أهلوها وعاملونا بأكثر مما نستحق.

أقسم إخوة يوسف بالله العظيم أنهم ما فعلوا ذلك، وأنه ما كان ينبغي لهم أن يكونوا من أهل الإفساد، وهذا يدلنا على خصال حميدة فيهم مع كل ما صدر عنهم، ويدلنا على أنهم تأثروا كثيرًا بالكلام الذي يحمل اتهامًا لهم.

﴿قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾﴾

قال الفتيان لإخوة يوسف: ماذا تقترحون أن تكون العقوبة إذا فتَّشنا في أمتعتكم ووجدنا صواع الملك وسقايته؟ وماذا لو علمنا أن السارق منكم وكان بالتواطئ معكم؟ وسؤال الجند للإخوة هنا من باب تحكيم المرء في ذنبه، فنقول له: ما الجزاء الذي تراه مناسبًا لما فعلت؟

﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

أجاب إخوة يوسف على سؤالهم، وطلبوا أن تكون العقوبة خاصة بمن سرق وليس على جميع الرَّكْب، وطلبوا كذلك أن تُطبق أحكامهم في أرضهم التي يعيشون فيها.

وقد كانت عقوبة السرقة فيها صعبة، وكانت تقوم على أن يصبح السارق عبدًا عند المسروق منه يتحكم فيه كما يريد، وهذا ما فهمناه من قول الله تعالى: ﴿فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ﴾ يعني: نُسلِّمُه ليصبح في ملك المسروق منه يبيعه ويتصرف به كما يشاء، ونجعل ذاته عوضًا عن هذه الجريمة، ولعلهم قالوا ذلك استبعادًا منهم أن يكون الصواع في رحال أحدهم، فضْلًا عن أن يكون في رحل أخيهم الصغير.

والظاهر أن هذا كان حُكمًا مشهورًا بين الأمم في ذلك الزمن وإن لم يكن معمولًا به في مصر كما سيأتي، والظاهر كذلك أنه موجود في شريعة يعقوب عليه السلام فإنه نبيٌّ يوحَى إليه من الله، والشرائع بين الأنبياء فيها بعض اختلاف وإن كان دينهم واحدًا، ولذلك قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: هذه عقوبة من ظلم نفسه ومجتمعه بالسرقة في شريعتنا.

ثم أظهروا ثقتهم ببراءتهم، وصدقهم في عدم سرقتهم بنسبة الظلم إلى من فعل ذلك واستحقاقه للعقوبة كما في ختام الآية، وكأنهم يقولون للجند: الذي أخذ الصواع ظالم مستحق للعقوبة، ونحن نطلب أن يُحْكَم عليه بما في شريعتنا التي تعلمناها من أبينا، ولن ندافع عنه ولن نقف في صف الظلم في مواجهة الحق والصواب.

وقولهم هذا وحُكمهم هو ما أراده يوسف عليه السلام من تدبيره ليبقى أخوه عنده، ثم يستجلبَ أباه، وقد كان عليمًا بشريعتهم وبما فيها.

﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾

هذا من تمام الحيلة لاجتناب الشك فيما يجري، فقد بدأ المُوَكَّلُ بالتفتيش برحال الإخوة قبل أصغرهم لينجح في التورية واجتناب ظنونِ الإخوة وشكوكِهم، وهو ما حصل بعد أن وجدوا الصواع في رَحْل بنيامين وأمتعته المحمولة على الإبل الخاصة به.

أخذ يوسف عليه السلام أخاه وضمه إليه وأبقاه عنده، وألزم إخوته بما ألزموا هم به أنفسهم لما قالوا: ﴿قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾.

لم يتكلم بنيامين في هذه الحادثة بشيء، مع أنه هو المتهم بالسرقة، ولعله سكت لأنه يعلم أن يوسف عليه السلام هو أخوه، وكأنه فهم أنه يريد أن يستبقيه عنده، ثم إن إخوته صالوا وجالوا بالكلام ولم يقصروا.

ما أصعبها على الإخوة الذين رأوا في فِعلة أخيهم سببًا لفضيحتهم بين أهل مصر، فَضْلًا عن تفكيرهم بما سيحصل لأبيهم الذي ينتظر رجوع أصغر أبنائه سالمًا غانمًا.

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ كل ما حصل في قصة الصواع من حيلة يوسف، وما تحَمَّله الإخوة من عقوبة نطقوا بها، إنما هو من تدبير الله عز وجل، سواء كان ذلك عن طريق الوحي إليه، أو الإلهام، أو كان عن طريق إكرام الله تعالى ليوسف بالحكمة والعلم والفهم.

ولفظة الكيد هنا تدل على أنه كيدٌ محبوب، وأنه مما يرضاه الله سبحانه، وأن فيه حكمةً ومصلحةً مَطْلوبةً ومَرْجُوَّة، وأنه جاء في مقابل كيد الإخوة بنبي الله يوسف عليه السلام من قبل ليُبْعدوه عن أبيه وأخيه الشقيق، وفي مقابل معاملتهم لأخيهم الصغير وما يحملونه في قلوبهم اتجاهه.

والكيد في اللغة يُطلق على مطلق التدبير، فكلُّ من دبَّرَ أمرًا نقول: إنه يكيد فيه وله، سواء كان هذا الأمرُ خيرًا أو كان شَرًّا كما مرَّ معنا في الحديث عن كيد النساء، وقد دلت النصوص الشرعية على أن الله تعالى يكيد للظالمين كما يكيدون هم للمؤمنين والدين، وهذا من تمام العدل والحكمة. قال الله تعالى: ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق: ١٥-١٧].

فَرِح يوسف عليه السلام بضم أخيه إليه، وفرحُه هذا كان في حَلَقة صراع عاشها في حياته، وكان البلاء فيها صعبًا، وهذا أمر يعيشه كثير من الناس في حياتهم، وتجدون فرحهم بتفريج الغموم والهموم قد يأتي سريعًا، وقد يتأخر قليلًا أو كثيرًا، وقد لا يأتي.

وهنا توجيه لا يفوتكم في التعامل مع البلاء في حياتنا، أقول فيه: العاقل من علم أن أمره بيد خالقه، وأنه سبحانه لا يَقْدُرُ لعباده إلا الخير، والعاقل من استحضر على الدوام أنَّ ما ينتظر الصابرين عند ربهم خيرٌ لهم من الدنيا وما فيها، وأنَّ غَمْسة واحدة في جنة الله تُنْسيهم بُؤْسهم وشقاءهم وإن طالَ وصعُبَ، بل يكفيهم أن الله تعالى يوفِّي الصابرين أجرهم بغير حساب.

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ لا يستطيع يوسف عليه السلام أن يأخذ أخاه وفقًا للأنظمة المعمول بها في مصر، فقدَّر الله له أن يلتزم إخوته بحكم شريعتهم فيمن سرق، فكان ما أراد.

وتأملوا في عبارة: ﴿فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾، والتي تعني أحكامه وقوانينه، ولا أدري إن كنت محتاجًا للعيش معكم في ظلال تسمية قوانينهم دينًا، ويكفيني أن أقول: إن إطلاق لفظة الدين هنا على الأحكام المعمول بها في دولتهم يدل على أن الدين هو الذي لا ينبغي التحول عنه في قوانين البلاد والعباد، وكفى.

﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ يمدح الله تعالى نبيه يوسف عليه السلام بما عنده من علم وحكمة وحسن تدبير، وهذا الثناء يَعُمُّ كُلَّ من أقبل على العلم ونهل منه، وأصبحت الحكمة على لسانه بعد أن صدقت نيته وصفت سريرته. قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١]، اللهم اجعلنا جميعًا منهم.

رفع الله درجة نبيِّه يوسف بما صبر، وجعل ذِكْره في العالمين إلى أيامنا، وجعل حكاياته منارة تنير للحائرين دروبهم، وهذا الرفعة ليست له فقط، بل هي لمن يشاء كما في نص الآية، وهذا فيه تأنيس لنا معاشر الدعاة والقابضين على دينهم، فإن غاية ما نرجوه أن يرضى الله عنا، ويرفع قدرنا عنده، ويستر علينا.

وتأملوا كيف جاء رفع الدرجات في الآية مقرونًا بالعلم كما في تمام الآية، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على حاجتنا للعلم كما نحتاج إلى الهواء والماء، وأنه سبيلنا للثبات وإقامة دين الله تعالى في أنفسنا وأهلينا والأرض جميعًا.

﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ سبحان ربي الذي يبلغ منتهى العلمِ إليه، والذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، والذي لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء.

يختلف الناس في قدرتهم على الفهم، وفي استعدادهم لتقبل العلم، ولذلك كان من سنة الله في الخلق أن كل صاحب علم في هذه الدنيا سيجد من هو أعلم منه في فنٍّ ما، أمَّا مردَّ العلم كله فهو إلى مَن كَتَب مقادير الخلق قبل أن يخلقهم بخمسين ألف سنة، سبحانه.

﴿ ۞قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

هذا من غرائب حالهم، ومن دلائل السوء الذي يظهر في مواقف من سيرتهم، مع أنهم أبناء نبي، وتربوا في بيت نبي، وكان غالبُ حالهم الصلاحَ والتقوى.

أحضر الحراس إخوة يوسف عليه السلام إلى مجلسه ليحاكمَهم وَيُنَفِّذَ فيهم العقوبة التي التزموا بها بكامل اختيارهم، فاعتذروا منه وممن حضر معه في مجلس حُكْمه، زاعمين بأن خَصْلة السرقة ليست معروفة فيهم إلا في إخوانهم من زوجة أبيهم الثانية، وأنَّ المعرَّة التي لحقتهم بهذا الفعل لا ذنب لهم بها.

يتبرأ الإخوة من فعلة أخيهم، ويعتذرون عنها بأن هذا الأمر لم يصدر في أسرتهم إلا منه ومن أخ له من أبيه أمه، يعنون بذلك يوسف عليه السلام الذي يخاطبونه ولا يعلمون أنه هو.

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ ﴾ كانت كلماتهم هذه صعبة عليه جدًا، وتأثر لمَّا سمعها لأنه أدرك أن إخوانه لا زالوا يذمونه إذا احتاجوا بعد أن فعلوا به ما فعلوا.

تحمَّل نبي الله يوسف عليه السلام أذيَّتَهم من جديد، ولم يُظهر غضبًا أو رغبةً في الانتقام السريع منهم، ولم يعاقبهم على ما قالوه مع علمه بأنه مَحضُ افتراء وكذب، وهذا ما أسَرَّه في نفسه عليه السلام.

كان نبي الله يوسف عليه السلام قويًّا قادرًا على أذيَّتهم حين قالوا عبارتهم المؤلمة، وكان ذا منصب عالٍ، وكانت كلمته نافذة على الجميع، ولكنه آثر طريقًا نحتاج أن نقفَ معه ولا نتجاوَزَه دون أن نتعلم منه، وهو طريق الصبر الذي يصعب على كثير من النفوس مع أن ثمرته عظيمة وكبيرة، فبالصبر يندفع كثيرٌ من الشرور، وينال صاحبُه الدرجاتِ العلا عند الله، بل يجد لذته وثمرته الطيبة ولو بعد حين.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ».

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه بسند حسن، عن معاذِ بنِ أَنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ كَظَمَ غَيظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ».

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ أي: قال لهم بعد أن كظم غَيْظه: كلامكم هذا علامة على بقية شَرٍّ تحملونه في نفوسكم وطويَّتكم، وهذا سببٌ من أسباب انتقاص قدركم، وعلامةٌ من علامات انتصار الشر في نفوسكم على الخير حتى أصبحتم في أسوء مكانة وأدناها.

وقال كذلك: والله أعلم بما تَذْكرون، وما تدَّعون من وجود أخ له يسرق مثله، وأن الله تعالى سيجزيكم على ما قلتم إن كنتم كاذبين.

﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾

صدر الحكم بأَخْذِ الأخ وإبقائه في أرض عزيز مصر، واستشعر الإخوة الخطورة الحقيقية على أبيهم فيما لو بلغه الأمر وعلم به، واستحضروا في هذه اللحظات تلكم الوعود التي أطلقوها لسيدنا يعقوب عليه السلام بإرجاع أخيهم معهم، واستعدادهم للتضحية من أجل حفظه وحمايته.

صحيح أن سيدنا يوسف أدخل مزيدًا من الحزن على قلب أبيه بحبس أخيه عنده، ولكنه حُزْنٌ بين يدي فرح عظيم اقترب باجتماع الأسرة من جديد، وبالتقاء الأب الحاني بأحب ولده إليه، وبالتسامح وتصفية القلوب الذي ينتظر الجميع.

يخاطبون يوسف عليه السلام بلقب الفخامة والمكانة العالية متوددين إليه ليسمعَ منهم ويستجيبَ إليهم، ويُقدمون بين يدي طلبهم ما يَصْلح أن يكون سببًا لاستعطاف عزيز مصر، ويخبرونه بأن أباه ينتظره، وأنه شيخ كبير في السن يحب ولده كثيرًا، وليس سهلًا عليه أن يفقد ولده الثاني بهذه الطريقة، ويرجونه بأن يأخذ أيَّ واحد من الإخوة العشرة بدلًا منه، متوسلين إليه بإحسانه وفضله الذي هو سابق عليهم، ومتوسلين إليه بعدله وإنصافه والخير العظيم الذي يحب أن يبذله، قالوا له: إنا نراك من المحسنين وقد شتموه قبل قليل بنسبة السرقة إليه.

واستعدادهم بأن يجعلوا أحد إخوانه مكانه محطُّ تقدير للأمانة، وعلامة على بداية التحول المرجو منهم.

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٧٩ ﴾

يقول لهم: كيف أعاقب بريئًا من التهمة، وأجعل من وجدنا الصُّواع عنده حُرًّا طليقًا؟ وكيف آخذ من لا حقَّ لي في أخذه؟ هذا من الظلم الذي لا يرضاه أحد، ولا أرتضيه لنفسي، فالأصل أن يُعاقَبَ المجرم ويحاسَبَ، والأصل أنَّ كل إنسان مسؤول عن خطيئته.

يستعيذ يوسف عليه السلام بالله تعالى من أن يستجيب لطلبهم، وذلك ليُعلمهم أن هذا الأمر غير قابل للنقاش ولا لتبادل الآراء، وأن أخاهم الصغير سيبقى عندهم ويصبحُ ملكًا لهم.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يكشف يوسف عن نفسه من أول الأمر، ويطلب من إخوته إحضار أبيهم وانتهى الأمر؟ والجواب هو أنه خشيَ إن كشف حاله أن يذهبوا ويخفوا الأمر عن أبيهم ولا يرجعوا، وأن يكيدوا لأخيه في طريق رجوعهم كما كادوا له من قبل.

﴿ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ﴾

حاولوا مع عزيز مصر مرةً بعد مرة، وبذلوا ما يستطيعون في سبيل تخليص أخيهم من العقوبة، ولكنَّ القرار صدر وكان نهائيًا، فلمَّا رأوا شدة العزيز في تطبيق الحكم أصابهم اليأس من الوصول إلى ما يريدون.

خَلَصَ إخوة يوسف بعد ذلك نجيًّا، أي: انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم، ويقولون كلامًا لا يسمعه غيرهم، ويتحاورون في أبعاد رجوعهم إلى أبيهم بدون أخيهم.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ يبدأ أخوهم الكبير بالكلام في اجتماعهم، وهو ما اعتاده عموم الناس في حياتهم، وكأنهم ينتظرون منه رأيًا حكيمًا يُهوِّن عليهم ما هم فيه، ويُذْهِب عن قلوبهم الغم والهم.

استحضر أخوهم الكبير قصة يوسف لما فرَّطوا فيه وتخلصوا منه، ثم رجعوا إلى أبيهم وكذبوا عليه، وأورثوا قلبه حُزنًا يعيشونه كل يوم في حياتهم، وكذلك استحضر العهد الذي قطعوه على أنفسهم بألا يخونوا، ولا يغدروا، ولا يُضَيعوا أخاهم بنيامين، وكيف أنهم أرادوا أن يعيدوا الثقة إلى قلب أبيهم ويسعدوه بوفائهم بالعهد والوعد.

يخاطبهم وفي قلبه الألم والغُصة: كيف سيصدق والدنا ما حصل معنا؟ وكيف سننقل الرواية إليه؟ وكيف سيكون حاله بعد فقد اثنين من أبنائه هما أغلى ما عنده؟

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾
ذكر مقدمته التي تدل على صعوبة الحال التي وصل إليها، وهي الحال التي يغلب على الظن أن جميع الإخوة عاشوها وإن كانت بدرجات مختلفة، ثم بعد هذه المقدمة أعطى قراره الذي يخصُّه، والذي يعتبر فيه نفسه المسؤول الأول عن فقدان الأخ وذهابه من بين أيديهم بلا رجعة.

أخبر الأخ الكبير إخوته أنه سيبقى في مصر ولن يغادرها، وأنه يصعب عليه أن يقابل أباه وينظر في عينيه بعد ما كان سببًا في فجيعته مرتين، وأنه لن يتراجع عن قراره إلا في إحدى حالتين:

الأولى: أن يرضى عني أبي ويسمحَ لي بالرجوع.

الثانية: أن يأذن الله بالفرج من عنده بأن يُيسِّرَ لي أخذ أخي، أو أخرج إلى جهة أخرى أعيش فيها هروبًا من صعوبة العيش والمواجهة.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ يستسلم لأمر الله، ويعلن عن رضاه بما قدَّر، ويخبر إخوته بأن حِكْمة الله لا جَورَ فيها ولا ظلم، وأنها فوقَ كلِّ تدبير، وفوقَ كلِّ سبب، وهذه واحدة من العبارات التي تدل على صلاح الإخوة وحُسن اعتقادهم كما ذكرنا.

﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ٨١ ﴾

يأمر إخوته بالرجوع إلى أبيهم والاعتذار منه، وإخباره بتفاصيل ما حصل، يقول لهم: قولوا له بأن صغيره سرق، وأننا شهدنا على السارق بالحكم ونطقنا به بحسب ما عَلَّمْتنا وَرَبَّيْتنا.

أخْبِروه أننا رأينا الصواع وقد أخرجوه من وعاء أخينا الصغير، وأننا بذلنا جهدنا ليسامحه عزيز مصر، وأننا عرضنا واحدًا منا ليأخذوه عوضًا عنه.

﴿ وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴾ وقولوا له: ولم نكن نعلم أن هذا الحكم سينال بنيامين الذي نَفْديه بأنفسنا لنَصْدُقك فيما وعدناك، ولم نكن نعلم أنه سيسرق ولو علمنا لما أخذناه.

﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٨٢ ﴾

رجع تِسْعتهم إلى أبيهم دون أصغر إخوانهم ودون أكبرهم كذلك، ودخلوا عليه وأخبروه بما حصل، ثم استفرغوا وسعهم في استحضار أدلة صدقهم وأمانتهم على أخيهم وحراستهم له، فطلبوا منه أن يتحقق من ذلك عن طريقين:

الأول: أن يُرسلَ من يريد ممن يثق به ليسأل أهل مصر عما حصل، أو يُراسلهم في ذلك، أو يَذهبَ بنفسه، فقد عَلِموا ما علمنا وشهدوا ما شهدنا.

واستعمل القرآن هنا في حق بلاد مصر لفظ ﴿ ٱلۡقَرۡيَةَ ﴾؛ لأنها في أصل اللغة تدل على المكان الذي يجتمع فيه الناس، و«المدينة» و «القرية» بهذا المعنى متشابهتان ومترادفتان، وإن كانت لفظة القرية في عرفنا تُطْلق على التجمعات الصغيرة، بخلاف لفظة «المدينة».

ولم يقتصر استعمال لفظة ﴿ القرية ﴾ على أرض مصر، ولكنه جاء في كتاب الله مع غيرها من الحضارات والمدن، كما في قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٨]، وقول الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣].

والثاني: أن يسأل رفقاءهم في سفرهم ممن ذهب على العير ليأتي بالطعام كما فعلوا هم، والظاهر أن ذهابهم كان في قافلة تضم عددًا من أبناء أرض كنعان.

﴿ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ لم نكذب عليك فيما أخبرناك ولم نغير ولم نبدل، ولقد صَدَقْناك في أن أخانا بنيامين سرق، وأن عزيز مصر والقائمين على الأمر هناك أخذوه بسرقته.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

لم يكن وَقْعُ كلامهم على قلبه سهلًا، وهو الذي حدَّثته نفسه بألا يرسله معهم لئلا يفعلوا به كما فعلوا بيوسف من قبل، وهو الذي سيمضي عمره بعيدًا عن أبنائه الذين تربعوا في قلبه، وابتُلي بفقدهم بلاء عظيمًا لا يفقهه إلا من رُزق ابنًا أو بنتًا وأحَبَّهم.

كرَّر نبي الله يعقوب عليه السلام ما قاله لهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب، واتَّهمهم في روايتهم وقدح فيها، وظن أنهم غرَّروا به وبأخيهم وتخلصوا منه، وهو الذي يعلم أن ولده لا يسرق فكيف يرضى بظاهر روايتهم؟

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ هذه اللغة التي لا ينفع غيرُها عند اشتداد البلاء، وهي اللغة التي أريد منكم أن تفقهوها جيِّدًا في جميع أوقاتكم وأعماركم، فالواحد منا لا يدري متى يأتيه البلاء، وفيمَ يكون وكيفَ، ولا يدري كيف يكون حاله معه، ولذلك كان العيش مع صبر نبي الله يعقوب عليه السلام هنا مفتاحًا للرضا بقدر الله وإن كان صعبًا.

وتأملوا كيف صبر عند الصدمة الأولى أول سماعه للخبر، وهو الصبر في أعلى مراتبه وأرقى طرائقه، وليس كحال صنف من الناس يُشرِّق ويُغرِّب في كلامه وانفعالاته عند سماع الخبر الصعب، ثم بعد أيام يزعم أنه صابر محتسب. وقد تقدم معنا حديث «إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى».

لجأ نبي الله يعقوب إلى الصبر مع اشتداد البلاء، وكان صبره جميلًا بلا تسخط أو جزع أو شكوى للخلق، وكان صبرًا جميلًا بلا اشتراط على الله بأن يحقق له ما يريد مقابل صبره، وكان صبره جميلًا صادرًا من قلب علم أن أمره بيد خالقه، وأنه لا يضيِّعه.

ولا أريد أن أترك تفسير هذا الجزء من الآية قبل أن أتأمل معكم ثباته وصبره مع تكرر البلاء وطوله، فقد كانت مصيبته في غياب ولده يوسف عليه السلام فقط، والآن أصبحت بغياب ولده الكبير وولده الصغير ويوسف عليه السلام، ومع ذلك لم يتغير كلامه مع أن معالم شخصيته عليه السلام تدل على أنه كان رقيقَ القلب، مرهفًا في المشاعر، غزيرًا في العواطف. قال الله تعالى مخاطبًا أمة محمد ﷺ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ﴾ يرجو من الله تعالى أن يرد عليه أولاده الثلاثة، وهم يوسف عليه السلام، وأخوه الصغير، والأخ الكبير الذي امتنع عن لقاء والده وبقي في مصر ينتظر أمر الله فيه، أو يأذن له أبوه بالرجوع.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ ما أجمله من ختام للآية يناسب المقام، فالعبد الذي يعجز في كثير من أحواله عن فهم الحكمة مما يجري، ولماذا كان البلاء في أحبِّ الأشياء إليه، ليس له إلا أن يسلم أمره لمن يعلم ما كان وما سيكون، ويعلم ما ينفع العبد مما لا ينفعه، وهو الحكيم في أفعاله وقضائه وقدره، ولا يكون قدره سبحانه إلا لخير، لا إله إلا هو.

إن هذا المعنى الذي يبثه ختام الآية في الآفاق هو سِرُّ السعادة التي نراها على وجوه كثير من أهل البلاء، وهو مفتاح البشاشة التي يلاقون فيها غيرهم مع أن الحالَ صعب، والبلاءَ شديد، ولكنهم سَلَّموا أمرهم للعليم الحكيم ثم رضوا بقدره وتمثلوا ما أخرجه مسلم عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رضي الله عنه، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا.

يختم يعقوب عليه السلام كلامه الذي وجهه إليهم باستحضار صفتي العلم والحكمة للرب العظيم، وكأنه يقول: يا رب، أنت العليم بمكان وجودهم الآن فاحفظهم، وأنت العليم بحالي واحتياجي إلى فرج من عندك يكون قريبًا، وأنت العليم بصدق أبنائي فيما يقولون، وأنت الحكيم فيما تُقَدِّره من اجتماعي بهم من جديد أو لا، وأنت الحكيم في تيسير أسباب ذلك، سبحانك.

﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾

فاضت مشاعره عليه الصلاة والسلام بعد أن أخبروه الخبر، وتذكَّرَ جرحه الدفين بسبب فَقْده لولده يوسف عليه السلام، فأعرض عن بنيه واعتزلهم وانفرد عنهم انفراد حزن وغضب، وقال كلماتٍ تقطر ألمًا وحُرْقة ومرارة، قال: هذا وقتُ حضور أسفي وأوانُه، والأسَفُ هو الحزن الشديد والندم.

ولقائل أن يقول: ولم اقتصر إظهار أسفه على يوسف ولم يذكر بنيامين وولده الأكبر، والجواب أن بلاءه بسيدنا يوسف عليه السلام هو مبدأ البلاء، وقاعدة مصيباته التي ترتبت عليها رزاياه من بعد، ولأن أسفه عليه كان ممتدًّا من زمن طويل لم ينقطع، ومعلوم لديكم أن الحزن الجديد يقوي الحزن القديم، ثم إنه كان يتسلى برؤية الصغير عن رؤية يوسف فلما فَقَدَه فقد استذكار الأصل.

﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ وَصْفان لازَمَا نبيَّ الله يعقوب عليه السلام بعد ذلك بسبب الفراق الصعب وغياب أولاده عنه:

الأول: ابيضت عيناه من الحزن، وهذا يعني أن بكاءه كان موجودًا ومتتابعًا، وأن عيناه أصابهما بياضٌ علا السواد الذي فيهما وغطَّاه، وأنه بسبب ذلك ضعف بصره. ومن أهل العلم من قال: إنه عميَ بصره وذهب.

الثاني: أنه كظيم، أي: يكتم حزنه الكبير ويكظمه في قلبه، ولا يجهر به أمام أحد ولا يُظْهره، ولا يتكلم إلا خيرًا، والظاهر أنه جفَّ دمعه وقلَّ بكاؤه بعد ذلك.

ولقائل أن يقول: وهل يجوز الحزن وكثرة البكاء على فقد الأحبة؟ وهل يصدر ذلك من نبي؟ وأين صبرهم على البلاء؟

والجواب أن البكاءَ بسبب الحزن أمْر جِبِلِّيٌّ لم يمْنَعْه الشرع، ولم يَذُمَّ صاحبَه، والبكاء بالجملة لا ينافي الصبر، بل هو رحمة جعلها الله تعالى في قلب عباده، كما دل على ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى أَبِي سَيْفٍ القَيْنِ، وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ (يعني: هو زوج مرضعته)، فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ، فَقَبَّلَهُ، وَشَمَّهُ، ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَذْرِفَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ»، ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ».

أما المذموم من الحزن والبكاء فهو الذي يكون فيه تسخط على القدر، أو قد يصاحبه شق للجيوب والثياب، أو لطم على الوجه ورفع للصوت بسبب المصيبة، أو حلق للشعر كما كان يفعل أهل الجاهلية.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أشفق الأولاد على أبيهم، ونظروا في حاله فخافوا عليه، وقالوا له على سبيل الرفق به والحرص عليه: أنت دومًا تذكر يوسف، ولا تفتر عن تَذَكّره، ولا يفارقك خياله حتى أصبحت: ﴿حَرَضًا﴾ أي: ضعيف الجسم والقوة والعقل، ونخشى عليك إن استمر بك هذا الحال أن: ﴿تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ﴾ أي: من الذي يموتون بسبب شدة حزنهم.

يحلفون بالله متعجبين من دوام هذا الحال معه، ويريدون من أبيهم أن يكون أقوى من ذلك، وأن ينسى ما حصل ويلتفت إلى القادم، وألا يتكلم عن يوسف كثيرًا ليسهل عليه نسيان الماضي، وأن يعذرهم عما جرى مع أنهم لم يقصروا.

صحيح أن نبي الله يوسف أدخل الحزن على والده، وأنه باستبقاء بنيامين عنده يكون قد عصف بقلبه، ولكن هذا الألم والغم إنما هو طريقٌ لزوال الهم الكبير، وطريق للشفاء التام وعودة الروح والسعادة إلى القلب، وهذا ما نحتاجه أحيانًا في تعاملنا مع من نحب، نوجعهم قليلًا ليسعدوا كثيرًا.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾

قال كلمات نسمعها كثيرًا ممن ذاقوا حلاوتها، وممن عاشوا ظلالها، قال لهم: أنا لا أشكو إليكم شيئًا ولا لغيركم من البشر، ولكني أشكو بثي، وهو همِّي الشديد إلى الله تعالى، وأفزع إلى من بيده النفع والضر، والموت والحياة، فأخبره بما حصل معي سائلًا إياه أن يفرج غمي وهمي، وشكواي له دعاء يحبه الله وهو أصل العبادة وفصلها.

يقول لهم: مالكم ومالي، إنما أنتم في وادٍ وأنا في واد آخر، فاللهم أكرمني بما أنت أهله.

وهذا الموضع من الآية هو الذي كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يبكي معه ويشتد في بكائه إذا وصله، كما دل على ذلك ما ذكره الإمام البخاري في صحيحه، قال: وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَدَّادٍ: «سَمِعْتُ نَشِيجَ عُمَرَ، وَأَنَا فِي آخِرِ الصُّفُوفِ يَقْرَأُ: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾».

وقد عَلَّمنا نبينا صلى الله عليه وسلم كيف نشكو إلى الله همومنا وغمومنا، وما الكلمات التي يُحبُّ ربنا أن يسمعها منا، وإن كانت غيرُها من الكلمات تنفع ولا حرج، ففي حق المغموم الذي وقع في مصيبة وهو مكروب بسببها، جاء الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ: «لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ».

وتأملوا كيف كان دعاء المكروب والمغموم قائمًا على ذكر الله تعالى وتعظيمه، وهو الأمر الذي يحتاجه المكروب، فهو يحتاج إلى تعظيم الله لتهون عليه مصيبته وتصغر، ويحتاج إلى استحضار هذه العظمة ليزول كل خوف وحزن من قلبه.

أما إذا كان مهمومًا، أي: يخاف من شيء في المستقبل أو يرجوه، فقد جاء الحديث الذي أخرجه أحمد والبَزَّار وأبو يعلى عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ: اللهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، ابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا «، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: « أَجَلْ، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ ».

وتأملوا في كلمات هذا الدعاء التي تدعو صاحبها أن يريح تفكيره الذي محله الناصية، وتدعو صاحبها لأن يهون على نفسه فإن حكم الله فيه ماض، وهو عدل عرف أم لم يعرف، ثم ليقبل على سِرِّ راحة القلوب وأنيسها في وحشتها، وهو القرآن العظيم، جعله الله منارة لنا، وحبَّبه إلينا زيادة وزيادة.

﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وكأنه استحضر هنا رؤيا يوسف عليه السلام لما كان صغيرًا، تلك الرؤيا التي رأى فيها أحد عشر كوكبًا يسجدون له مع الشمس والقمر، فكان استحضاره لهذه الرؤيا بردًا على قلبه، واستبشارًا بالخير القادم فهو نبي يعلم أنه إذا اشتدَّ البلاء فقد اقترب الفرج.

يعيش نبي الله يعقوب عليه السلام في هذه اللحظات أجواء الأمل بأن يوسف لا زال على قيد الحياة، وأن الذئب لم يأكله، وأن اجتماعه به بات قريبًا، وكما قال أهل العلم: إن نبي الله يعقوب لم ينزل به بلاءٌ قط إلا أتى حُسْنُ ظنّه بالله من ورائه.

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

أذِنَ الله تعالى بانكشاف البلوى وانتهائها، وقدَّر لها من الأسباب ما يجعل المِحْنة مِنْحة، وما يجعل الصعب سهلًا، فنادى يعقوب عليه السلام على بنيه، وطلب منهم أن يرجعوا إلى مصر ليبحثوا عن أخيهم الصغير ويُحْضروه، وتَلطَّفَ بهم وَتَحبَّبَ إليهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيَّ﴾ ليمتثلوا سريعًا.

والعجيب أنه طلب منهم أن يتتبعوا أخبار يوسف عليه السلام، وهو الذي فقده من سنين طويلة، وهو الذي أكله الذئب بحسب رواية إخوته لما رجعوا بدونه، ولكنه بعد كلِّ هذا لا زال أمله بالله معقودًا، وثقته بكرم الله موفورةً وحاضرةً دومًا، ولعل طلبه هذا من العلم الذي أعطاه الله إياه كما أخبرَ أبناءَه في الآية السابقة، وهو علمٌ يدل على كذب أبنائه فيما ادَّعَوه من موت يوسف عليه السلام.

وانظروا إلى جمال كلمة ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ فإنها لفظة تُستعمل في الخير غالبًا بخلاف لفظة «التجسس»، وإنها لفظة تُستعمل في طلب الشيء جهرًا وسرًّا بخلاف التجسس فإنه يكون في الخفاء والسرِّ، كما أنها لفظة تدل على أنه طلب منهم أن يبحثوا عنه بما أمكن من حواسهم، فكأنه يقول لهم: اطلبوه بأعينكم لعلكم ترونه، وبأسماعكم وألسنتكم لعلكم تسمعون عنه شيئًا، وبالروائح لعلكم تشمون ريحه.

﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يأمرهم بأن يجعلوا ثقتهم بالله عظيمة، وأن يستحضروا أنه على كل شيء قدير، وهذا الأمر منه يحمل في ثناياه بشرى لهم بأن يوسف عليه السلام لم يمت، ويحمل استنهاضًا لهِمَمِهم ليجدوه، ويطلبوا عفوه، ويكفروا عن خطيئتهم العظيمة في حقه.

يا أبنائي: لا تقطعوا رجاءكم بالله، ولا ينقطع أملكم وسعيكم، ولا تتشبهوا بأهل الكفر الذين قنطوا من رحمة الله وعفوه، والذين انكبوا على الشرك وكبائر الذنوب وامتنعوا من الإسلام والتوبة بعد أن ظنوا بالله السوء. يملأ نفوسهم بالإيمان بألا ييأسوا، أي: حاولوا مرة بعد مرة، واجتهدوا واسْعَوا ولا تتباطؤوا ولا تتثاقلوا.

ولكم أن تتأملوا في نعمة الأمل التي أعطاه الله إياها، وتتأملوا في حاجتنا إليها وإلى أهلها، أعني أولئك الذين يمدونك بالأمل ويفتحون لك آفاق إحسان الظن بالخالق العظيم، ولا يقودونك إلى مسالك اليأس والقنوط والإحباط.

والغريب أنهم سكتوا أمام طلب أبيهم ولم يعترضوا عليه مثلًا بأن يوسف مات، وأنه يعيش الأوهام، وهذا يدل على أن زمن التدليس والكذب ذهب وولَّى، وأن الأيام القادمة هي أيام صدق ورحمة وتآلف، وهكذا حبال الكذب لا تدوم، ولا يَخْرجُ صاحبها إلا بالخسران والآثام.

ولا تكونوا من الكافرين الذين يتعاملون مع الأسباب المادية فقط، ويقتصرون في إيمانهم على الأمور الغالبة، ولا يؤمنون بقدرة الله وعظمته، ولا يؤمنون أن الله يختص من يشاء من عباده بما يشاء، وأن التوكل عليه واليقين به هما سِرُّ حفظ الله وتوفيقه مع الأخذ بالأسباب.

وهنا مسألتان متعلقتان بألفاظ الآية الكريمة أذكرهما:

١- عبارة ﴿رَوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ تشير إلى الفرج الذي يكرم الله تعالى به صاحب الصبر الجميل، فالرَّوح في اللغة هو النَّفَس، وهو الذي يطلقه صاحبه بعد زوال الغم وضيق الصدر.

واعلموا أن الروح خلق من خلق الله وأمْرِه، وأضيفت إلى الله تعالى في بعض النصوص إضافة ملك وتشريف، كقولنا عن الكعبة «بيت الله» وقولنا «ناقة الله»، فالله هو خالق الروح ومالكها، يقبضها متى شاء، ويرسلها متى شاء، كما في الآية هنا وكما في قول الله تعالى عن نبينا آدم عليه السلام: ﴿إِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، وقد تُطلق لفظة «الروح» على جبريل عليه السلام كما في قول الله تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾ [مريم: ١٧].

٢- يقوم حسن الظن بالله تعالى على قوة اليقين بإجابته سبحانه للدعاء وتفريجه للكربات، وبما وعد من قبول الأعمال الصالحة، وغفران الذنوب للمقبلين عليه، وإدخالهم الجنات، والعبد كلما قوي ظنه بالرب العظيم سارع إليه، وأقبل عليه، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته ليقبله ويرضى عنه ويُرضيه. قال الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً».

ومن حسن الظن بالله ألا يستأخر الواحد منا إجابة دعائه، ولا يظن بالله ظن السوء إذا حصل ذلك، ولكن يلح على الله بالدعاء، ويتحرى فيما يمنع الاستجابة ويصلح أمره، ويستحضر أن الله تعالى لا يقدر له إلا الخير وإن كان في تأخير ما يرجوه عنه، أو مَنْعه منه، أو صَرْف السوء عنه مقابل دعوته، أو ادخاره له إلى يوم القيامة. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي.

وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، والبخاري في الأدب المفرد واللفظ له عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو، لَيْسَ بِإِثْمٍ وَلَا بِقَطِيعَةِ رَحِمٍ إِلَّا أَعْطَاهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا». قَالَ: إِذًا نُكْثِرُ! قَالَ: «الله أكثر».

ولا تظنوا أن حسن الظن يعني ترك العمل، فثمة صنف من الناس لا يصلي ولا يذكر الله تعالى إلا قليلًا، ولا يحرص على الصدق وأداء الأمانة وما أوجبه الشرع عليه، ثم نراه يزعم أنه من أهل الفردوس الأعلى وأنه ممن رضي الله عنه، فهذا من الغرور والأماني، ومن الخلل العظيم في الفهم وفي التطبيق، وكما قال أهل العلم: أحسن الناس ظنًّا بربهم أطوعهم له، يعني: أكثرهم طاعة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾﴾

استجاب الأبناء لطلب أبيهم، ورجعوا إلى مصر حاملين في قلوبهم أملًا عظيمًا، وسارعوا إلى عزيز مصر الذي يملك لهم الكثير ولا زالت كلمات سيدنا يعقوب عليه السلام حاضرة أمامهم.

دخلوا على أخيهم دون أن يعلموا أنه أخوهم، وخاطبوه بلسان المسكنة وطلب الرحمة، فقالوا: يا عزيز مصر، يا من عرفناه كريمًا حليمًا، وما رأينا منه إلا كل خير: أصابنا الضر وأهلينا، والضر هنا هو القحط والجدب وقلة الطعام، ثم طلبوا منه أن يكيل لهم الطعام كما عوَّدهم مقابل أن يعطوه البضاعة المزجاة التي معهم، والبضاعة المزجاة هي البضاعة الرديئة التي يكون ثمنها قليلًا أو تكون كاسدة ولا رغبة فيها.

وقولهم: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ أي: لا تُنقصنا من حمل البعير بسبب هذا الثمن الرديء، واجعل قبولك له مقابل الطعام صَدَقة منك يأجرك الله عليها في الدنيا والآخرة.

ومن أهل العلم من قال: إنهم ألمحوا بهذه العبارة إلى ردِّ أخيهم إليهم ليرجعوا به إلى أبيهم، ولعلهم لم يصرحوا بطلب أخيهم لئلا يثيروا سخطه فيمنعهم الطعام، ويخرجهم من الديار التي جاؤوا يتحسسون فيها أخبار إخوتهم.

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾

يَظهر من كلام إخوته وطلبهم الطعام منه أنه قد أجهدهم البلاء واشتدَّ عليهم، وأن الضيق والشقاء قد حلَّ بهم من جميع الجهات، وأنهم وصلوا إلى مرحلة الندم على ما فات، والحرص على إرضاء أبيهم وأهليهم بأيِّ شكل من الأشكال، فرقَّ قلب يوسف عليه السلام لهم، وتذكر أباه والحال التي وصل إليها، وثارت عنده عاطفة الأخوة والقرابة التي لا ينفك منها أحد وإن كان بينه وبين قرابته ما كان.

تهيأت جميع الظروف المناسبة لإحضار أبويه واجتماعه بأهله وعشيرته في أرض مصر، وتهيأت النفوس للمصارحة والمكاشفة بعد كل هذه المراحل من التربية والتمحيص، وبدأت معالم الفرج تَحِل على هذه العائلة، وبدأت خيوط السعادة تحيط بها، واقترب موعد اللقاء.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشَّرْح: ٥، ٦].

يُطلق نبي الله عليه السلام سؤالًا يحمل توبيخًا لهم على ما فعلوا، ويُزيل عن أفهامهم وأذهانهم ما كان مستورًا، ويُقرِّب إليهم ما كان بعيدًا، ويفتح لهم باب الأمل على حقيقته، يقول لهم: هل تذكرون تفاصيل معاملتكم الذميمة لإخوانكم من أبيكم؟ وهل تستحضرون سعيكم في قتل يوسف؟ وهل تعلمون أنكم فرَّقتم بين الأب وولده وبين الأخ وأخيه؟ وهل تُدْركون جهلكم الذي أحاط بعقولكم فجعلكم تحسدون وتقتلون وتكذبون؟ والجهل المذكور في ختام الآية لا يعني عدم علمهم بالصواب من الخطأ، ولكنه جهل بعظم ما يفعلون وبعاقبته، وجهل يدل على أن صدورهم قد ملأتها الأمراض وخفَّ بسببها دينهم وعلمهم.

ما أصعبه من موقف وما أحلاه؛ ما أصعبه لأنه غلب على ظنهم أن المتكلم معهم هو من أرادوا التخلص منه وظنوا أنهم قتلوه، وما أحلاه لأن وجودَه على قيد الحياة بالنسبة إليهم ووصولَه إلى هذا المنصب سيحُلُّ لهم كثيرًا من مشكلاتهم، وسيقضي على أسباب شقائهم، وما أحلاه بالنسبة ليوسف عليه السلام كذلك لأنه يقرب المسافة بينه وبين أبيه، ويعينه على التئام الجرح العميق في قلبه.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠ ﴾

لم يبق أمامهم بعد كل هذه المقدمات والإرهاصات إلا أن يواجهوه بالسؤال، ويطلبوا منه كشف الحقيقة، فقالوا له: هل أنت يوسف الذي سألتنا عما فعلناه به فإنه لا يعلم ذلك إلا هو؟

﴿ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ ﴾ أجابهم بالحقيقة التي أخفاها عنهم لمدة طويلة، واستحضر نعمة الله عليه وعلى أخيه من أبيه وأمه كيف جمع بينهما بعد التفرقة الصعبة، وكيف حفظهما في كل هذا البلاء، وكيف رزقهما الصبر والعبودية مع صعوبة الحال والبؤس الذي طال زمنه وصَعُب وَصْفه.

وقوله: ﴿ وَهَٰذَآ أَخِيۖ ﴾ يحمل عتابًا ولومًا، وكأنه يقول لهم: هذا أخي وأنا أخوكم، ولقد تحملنا الكثير من المتاعب والصعاب بسببكم، وهذا أخي الذي لا يليق بي إلا أن أحسن إليه، وأحيطه بالرحمة والصلة، فهذا أبسط حقوق القرابة لو كنتم تعقلون.

﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ولا تستغربوا من وجودي على قيد الحياة، ومن وصولي إلى ما أنا فيه، ومن هذا التمكين الذي رزقنيه ربي، فإن تقوى الله تعالى مع الصبر على البلاء مفتاح الإحسان في العبودية، ومفتاح كرم الله وحفظه وتوفيقه.

هنا قاعدة عظيمة من قواعد الحياة، وهي قاعدة دارت حولها جُلُّ آيات هذه السورة، فتأملوها: إنه من يتق الله ويجعل بينه وبين الحرام سدًّا وحاجزًا، ومن يتقيه بفعل المأمورات واجتناب المنهيات، ومن يتقيه بعبادته على علم ونور يرجو رحمته ويخشى عذابه، ثم يصبر على الطاعة ولا يتركها، ويصبر عن المعصية ولا يفعلها، ويصبر على البلاء ولا يجحد، ويصبر على النعم ويشكر، ويصبر على الدعوة إلى دين الله وإظهار الحق وبيانه، ويصبر على وقاحة أهل الباطل والفسق والفجور ولا يتأثر، أقول: إنه من يفعل ذلك فقد نال منزلة المحسن الذي أرادته الآية، وهو الذي يعبد الله تعالى كأنه يراه، اللهم اجعلنا منهم.

قال الله تعالى عن فضيلة الجمع بين التقوى والصبر في جهاد الأعداء والوقوف أمام كيدهم ومكرهم:

﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

أراد يوسف أن يستثمر الحدث ليعلم إخوته كيف يتعرضون لإنعام الله ورحمته وسعة فضله، وكيف يتجاوزون أمراض نفوسهم ويعالجونها، وكيف ينتقلون من ضيق التفكير بالدنيا إلى سعة التفكير بالآخرة.

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ٩١﴾

هذه أول مرة يعترفون فيها بخطئهم في حق أخيهم، وهذه أول مرة يُظهرون فيها ندمًا كبيرًا على ما اقترفته أيديهم، وهنا اعتراف بالحقيقة التي تعامَوا عنها زمانًا طويلًا، ويظهر أنهم من شدة تعجبهم من خصالهم وفعالهم السيئة مع أخيهم قد أقسموا بالله بصيغة «تالله»، وهي التي يستخدمها أهل اللغة حال تعجبهم، ولا يستخدمون «والله» أو «بالله».

يقسم الإخوة بالله العظيم أن الله تعالى قد اصطفى يوسف عليه السلام عليهم، اصطفاه بجمال الباطن وجمال الظاهر، واصطفاه بالنبوة والحكمة والعلم، واصطفاه بالمُلك وسعة العطاء، واصطفاه بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيَم.

﴿ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢ ﴾

يصعب على المرء أن يقابل إساءة الغير بالإحسان وأن يتنازل عن حقِّه، ويصعب عليه أن يقهر نفسه التي تأمره بالانتقام والتشفي وإظهار الغيظ والحنق، فكيف لو كان سبب الإساءة هو الحسد والغيرة؟ وكيف لو حصلت الإساءة عن طريق القتل والإبعاد عن الأهل والوطن، وكيف لو دخل المظلوم بسببها السجن ومكث فيه لسنوات، وتعرَّض للمراودة عن نفسه، وللافتراء عليه، وعانى ما عانى في الليالي والأيام؟ وكيف لو كان مصدرُ كلِّ تلك الإساءات إخوانه الذين هم أقرب قرابته.

أطلق نبي الله يوسف عليه السلام كلمات تدل على أنه يحمل قلبًا كبيرًا، فقال لإخوانه: ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ ﴾ أي: لا تأنيب، ولا عَتَب، ولا لَوم، ولا ذِكر لذنبكم بعد اليوم، ولن أنتقم منكم بشيء، إنما هو العفو والصفح والتجاوز والوئام والحب، مع أنه في موقع القوة وهم في موقع الضعف.

﴿ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ لم يقتصر على مسامحتهم، وعلى عدم تعييرهم بالذنب السابق، ولكنه تجاوز ذلك ودعا لهم بالمغفرة والسِّتر والرحمة، وتوسل لهم بسعة رحمة الله من أجل ذلك، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يَتَأَتَّى إلا من خواصِّ الخلق وخِيارِ المصطفين، أيُّ قلب يحمله عليه الصلاة والسلام؟

يدعوهم للتوبة وطلب الرحمة من أرحم الراحمين، وذلك بعد أن ظهر منهم الندم، وبعد أن اعترفوا بذنبهم، وبعد أن ظهرت أمارات استقامتهم على التمام، وظهر عزمهم على مفارقة ذنوب القلوب، فهذه شروط صحة التوبة التي نحرص عليها ونفهمها ونقصدها.

﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٣﴾

طلب منهم أن يأخذوا قميصه ويلقوه على وجه أبيهم الذي أصابه ضعفٌ في البصر أو أصابه العمى، طلب منهم أن يلقوه علامة على صدقهم في أن حبيبه يوسف لا زال حيًّا، ويخبرهم أنهم إذا فعلوا ذلك رجع بصره إليه، وهذا يقوله عليه السلام بوحي من الله فإنه نبي.

قال أهل العلم: كل داء يداوى بضده، ومقصودهم بذلك هنا أن إخوة يوسف لما زعموا لأبيهم أن الذئب أكل يوسف عليه السلام، جاؤوا على قميصه بدم، فكان هذا القميص بالنسبة للوالد علامة شؤم وتعب ونكد، فلما أراد يوسف عليه السلام بوحي من الله تعالى أن يُفرح قلب أبيه أرسل إليه واحدًا من قمصانه ليكون القميص علامة خير وراحة وسعادة وهناء، والغريب أن الذين حملوا قميص البشرى هنا هم الذين حملوا قميص الشؤم الملطخ بدم الذئب قديمًا.

ولا يخفى عليكم أثر الأمور المعنوية على البدن والنفس، ولا يخفى عليكم أن المفرحات لها تأثير عظيم في قوة البدن، وحصول العافية، وسعادة الروح. يطلب منهم بعد ذلك أن يأتوا إلى مصر جميعًا، هم وأبوهم وأولادهم ونساؤهم، وأن ينتقلوا للعيش هنا في مكانة رفيعة ومنزلة عالية، وفي كرامة ورعاية وحفظ واهتمام.

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾

فصلت العير، أي: بدأت القافلة التي جاؤوا فيها بالتحرك من مصر. ولفظة ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ أي: تُسَفِّهونني، وتسخرون مني، وتتهمونني بالكِبَر والتخليط في الكلام.

سارع الأبناء بالتحرك إلى أرض كنعان وارتحلوا ليزفوا البشرى إلى والدهم، وليخبروه بأن جميع أولاده بخير، وأن حبيبه وقرة عينه يوسف بيده خزائن مصر والتصرفُ فيها.

يتحرك قلب الوالد يعقوبَ عليه السلام أول ما فصلت العير من مصر وتحركت، ويخبر الجالسين حوله أنه يشمُّ الرائحة التي ينتظرها كل هذا العمر، يشمُّ رائحة يوسف التي لا يشمها إلا الأحباب، ويخبرهم أنه متيقن من حياته، ويكاد يجزم، ولكنه يخشى أن ينسبوه إلى الخرف والكبر في السن واختلاط العقل والهذيان.

﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ٩٥ ﴾

القائلون هنا هم أهله من أزواج أبنائه وأولادهم، ومن أهل العلم من قال: إنه قد بقي عنده عدد من أولاده ولم يخرجوا إلى مصر في رحلتهم الأخيرة، وقد تحرك ما في نفوسهم، وتعجبوا من دوام ذِكره ليوسف وانتظار لقائه، فقالوا له: لا زلت في خطئك القديم من تعلقك به، وحُبِّك واستحضارك له في كل المشاهد، حتى بلغ منك المبلغ العظيم، وخرجت عن حدود الاعتدال والاتزان.

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦ ﴾

ما أجملها كلمة ﴿ٱلۡبَشِيرُ﴾ هنا، لأنها تدل على أن القادم يحمل البشرى التي تبعث الروح في صاحبها من جديد، والتي يطير معها القلب فرحًا، والتي تُنسي الواحد سنين البؤس والشقاء.

أقول هذا وأنا أستحضر منهج شريعتنا في الدعوة والبيان، والذي يقوم على ما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَعَثَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ فِي بَعْضِ أَمْرِهِ، قَالَ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا، وَيَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»، وهذا منهج متفق مع نهي الشريعة عن التشاؤم وعن الكسل، ومتفق كذلك مع حب النبي صلى الله عليه وسلم للتفاؤل الذي يدفعه للإتقان والعمل.

وصل الأبناء إلى أرض فلسطين، وبادروا إلى أبيهم فأخبروه الخبر الذي أدخل السرور إلى قلبه، ثم جاء أحد أبناء يعقوب عليه السلام وألقى القميص على وجهه فرجع بصره، وعادت إليه عافية عينيه كأن لم يمسَّهما سوءٌ من قبل.

أكرم الله نبيه يعقوب ونبيه يوسف عليهما السلام بهذه المعجزة كرامة منه لهما، ولتتناقلها الأجيال إلى أيامنا هذه.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال عليه السلام لأبنائه فرحًا مستحضرًا نعمة الله عليه: لقد كنت أرجو أن يزول الهم والغم وألقى ولدي يوسف، ولقد كنت أعلم أن الله تعالى سيكرمني ويرد إليَّ ولدي، ولقد رأى في صغره رؤيا لا زالت حاضرة أمامي، ولقد شممت ريحه كما أخبرتكم من قبل، وذلك بعد أن طلبتت منكم أن تتحسسوا أخباره وتتفقدوه لعل الله يحدث أمرًا.

﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾

أجمعت كلمتهم في هذه اللحظات على أن يعترفوا بجريمتهم وخطئهم، وأن يطلبوا من أبيهم الدعاء، لعل الله يستر عليهم، ويتجاوز عنهم ويرضى، وذلك بعد أن أدرك الجميع تفاصيل ما حدث من قبل.

يعلم إخوة يوسف عليه السلام أن عفو الأب والأخ لا ينفع إذا كان الله ساخطًا عليهم، فطلبوا ما ينجيهم من سقطاتهم بأن يدعو الله لهم بالمغفرة والرحمة والعفو والستر.

إن ذنب القتل الذي كادوا أن يتلبسوا به بإلقاء يوسف عليه السلام في البئر ذنبٌ عظيم، وإن الحسد الذي استرسلوا معه وكاد أن يصرفهم عن طريق الهدى ذنبٌ عظيم كذلك، وإن الكذب والتدليس والخداع الذي مارسوه طوال هذه السنين ذنب عظيم كذلك، وهكذا أمر الذنوب إذا فُتح بابُها وتساهل العبد فيها، وهكذا كبائر الذنوب التي قد يفعلها الواحد ليرتاح، ويقبل عليها ليهنأ، ولكنه يتفاجأ أنه فتح أبواب جهنم على نفسه من حيث أراد إسعادها، وأنه فقد لذة الحياة والطمأنينةَ فيها، وأن الذنوب على الغالب جاءت بذنوب أخرى، وأنه استوحش من البشر ومن المكان والزمان.

إن باب التوبة الذي امتنَّ الله به على عباده جنةٌ من جنان الله تعالى في أرضه، فهو باب مفتوح ما دامت الروح تسري في البدن، وهو باب يحبه الله تعالى ويرضى بسببه عن صاحبه، ويُكرمه بتبديل سيئاته إلى حسنات، ويُرجع إليه قلبه وسكينته وأُنسه بمن حوله.

﴿ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨ ﴾

تحرك قلب الأب نحو جميع أبنائه ولم يطاوعه على ردِّ طلبهم، فاستجاب لهم ووعدهم بأن يسأل الله تعالى أن يغفر لهم ويتقبل توبتهم، وسارع إلى مسامحتهم بعد أن لمس صدقهم في كلامهم.

وعبارة ﴿ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ ﴾ تدل على أنه سيدعو الله لهم في الحال، وسيبقى يدعو الله لهم في قادم الأيام لعل الله يتوب عليهم، ومن أهل العلم من قال: إن تسويفه يدل على أنه أخَّر الدعاء لهم إلى وقت الإجابة، وهو وقت السَّحر.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ هنا موعظة تكررت في كتاب الله كثيرًا، تحوي كلماتٍ قليلةً، ولكنها في المعنى عظيمةً، وقد أطلقها نبي الله يعقوب عليه السلام لعلمه بحاجة أبنائه إلى سماعها وفهمها واستحضار أبعادها، فهؤلاء اقترفوا ذنوبًا لا يُستهان بها، وهم يحتاجون إلى إعمال الرجاء، والتعلق برحمة الكريم، والعيش في ظلال مغفرته وإكرامه، ولذلك أخبرهم بأن الله هو الذي يستر الذنوب ويقبل أصحابها الذين صدقوا في توبتهم منها، ويرضى عنهم ويرضيهم.

يا أهل الذنوب: دونكم باب التوبة فهو قريب، وهذه أنفاسكم لا زالت تجري، وهذا ربكم يناديكم ويقول لكم: ﴿ ۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ **[الزمر: ٥٣]**، وهذا ربكم يفرح بتوبتكم فرحًا عظيمًا كما دل على ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم عَنِ عَبْدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ، فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».

﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩ ﴾

ينتقل سيدنا يعقوب عليه السلام وأولاده وأهلوهم أجمعون إلى مصر ليجتمعوا بعزيزها وصاحب الأمر والنهي فيها، وهو حبيبهم الذي غاب عنهم بدنًا ولم يغب روحًا واشتياقًا، وهو الذي مرت أوقات فراقه بطيئة وثقيلة فأتعبت الجميع.

يصل سيدنا يعقوب إلى أرض مصر، ويدخل على سيدنا يوسف عليه السلام وهو في أُبَّهته، ويستقبله الولد المشتاق استقبال الأكابر والأكارم، ويأويه إلى أرض مصر ليقيم فيها، ويخاطبه ويخاطب إخوته وأزواجهم وأولادهم قائلًا: امكثوا هنا في هذه الأرض آمنين مِمَّا كنتم فيه من الجَهد والقحط والبلاء والخوف.

ذكر بعض أهل التفسير أن الملك والحاشية جميعًا خرجوا مع يوسف عليه السلام في استقبال النبي العظيم على أبواب مصر، وساروا معهم في موكب مهيب حتى وصلوا إلى مكان إقامة نبي الله يوسف عليه السلام.

والمقصود بأبويه في قول الله تعالى: ﴿ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ ﴾ هما سيدنا يعقوب وزوجته الثانية التي هي في مقام أم سيدنا يوسف التي ماتت وهو صغير كما ذكرنا، ويُقال إنها أخت والدته، أي: خالته، وهذا قول أكثر أهل العلم.

ومن أهل العلم من ذهب إلى أن أمه لم تمت، وأنها مقصودة في الآية هنا استدلالًا بأن القرآن لم يذكر موتها، ولو كان لَذَكره.

وقوله: ﴿ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ هو من باب التأدب مع الله تعالى، وأنه لا يستطيع تحصيل الأمن والسكينة والغنى لهم إلا بإذن الله تعالى وإرادته.

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾

أكرم نبي الله يوسف عليه السلام أبويه إكرامًا يليق بهما،حتى أجلسهما على عرش مُلكه، وهو السرير الذي يجلس عليه للحكم والقضاء.

﴿ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ ﴾ السجود هو وضع الجبهة على الأرض تعظيمًا للغير،وقد كان هذا السجود مشروعًا في الأمم من قبلنا، وكان تحية الملوك، وكان واحدهم إذا سلم على كبير في العمر أو في القَدْر ربما يسجد له مزيدًا في الاحترام والتقدير والتوقير، ولذلك سجد نبي الله يعقوب عليه السلام وزوجه وعياله ومن جاء معهم بين يدي يوسف لمَّا دخلوا عليه.

ولا يقولن قائل: أليس من العقوق أن يجعل والده يسجد له؟ لأن هذا السجود كان معروفًا بينهم على أنه علامة من علامات الاحترام وتبادل المشاعر الطيبة والأخلاق الحميدة، فهو عادة لهم وليس عبادة، ولم يكن أحد يأنف منها أو يعتبرها علامة سوء.

أما في شريعتنا، فالسجود مختص بالرب العظيم، ولا يحل لغيره من البشر والحجر والشجر، وإن كان لمجرد الاحترام والتقدير، وإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نحبه ونوَقِّره ونَنْصره بدمائنا وأولادنا وأموالنا.

أخرج أحمد وابن ماجه والترمذي وأبو داود، واللفظ لابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟» قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لِأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ، فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ ﷺ: «فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا، وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ لَمْ تَمْنَعْهُ». والقَتَب هو ما يوضع على الجَمَل للركوب عليه، والمقصود من الحديث الحث على طاعة الزوج.

﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ يقصد سيدنا يوسف برؤياه هنا ما قصَّه على أبيه لما كان صغيرًا، وهي الرؤيا التي جاءت في أول السورة في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

والمقصود بتأويلها هو أنها تحققت، وأنها لم تكن أضغاثَ أحلام، وأن تفسيرها ظهر بسجود أبويه وإخوته له، فالشمس والقمر هما أبواه، والكواكب هي إخوانه الذين اجتمعوا في هذا المشهد المهيب، وكان عددهم أحد عشر أخًا.

﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ لعلكم ترون صنفًا من الناس ممن حولكم ينسى نعم الله عليه إذا انغمس فيها، وترونهم ينسبون الفضل الذي جاءهم من عند الله إلى أنفسهم، ويظنون أنهم يستحقون هذه النعم، وأنها جاءت بمكرهم وحيلهم ودهائهم.

يستحضر النبي الكريم هنا فضل الله عليه، ويعدُّ نعمه الواحدة تلو الأخرى، ويختار منها أكثرها تأثيرًا على قلبه الذي طار فرحًا بلقاء الأحبة والغوالي، وهذه واحدة منها، وهي نعمة إخراجه من السجن وتدبير الأمر له ليخرج بريئًا، ويكون صاحب مكانة في العالمين.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ يقول عليه السلام: ومن نعم الله علي التي لا أعرف كيف أشكره عليها، أنه جمعني بكم، ويسر أسباب حضوركم من بادية فلسطين لتعيشوا معي في بلد الزراعة والرفاهية.

ويذكر عليه الصلاة والسلام وهو في محضر من إخوانه سببًا عظيمًا من أسباب ما حصل بينه وبين إخوته، وهو نَزْغ الشيطان وإفسادُه الذي قام على إدخال الحسد في قلوب إخوته، وجَعْلهم يفكرون بالقتل والكذب والرغبة في الانتقام، وقد لحقني من الأذى بسبب ذلك الكثير، ولكن الله بلطفه وعلمه وحكمته قَلَب العداوة إلى محبة، ورزق القلوب الصفح والعفو، وأعاننا على أنفسنا ووقانا مزيدًا من شرورها، وجعلنا هداة مهتدين.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفُۢ لِّمَا يَشَآءُۚ﴾ سبحانه، كيف يبتلي، وكيف يجعل لطفه في البلاء، وهو أمر يعلمه أهل الإيمان جيدًا، ويعلمون كيف يعطي الله أولياءه الصبر على شدة البلاء، وكيف يهون عليهم بما يفتحه لهم من فتوحات في الفهم والعلم والبركة، وكيف يقذف في قلوبهم شكره، والمسارعةَ في طاعته، والمبادرةَ إلى التوبة، وكيف يرضيهم ويعوضهم خيرًا ولو بعد حين.

وألطاف الله سبحانه وتعالى هي التي يتنسَّمها الصالحون، ولا يكون لطفه سبحانه إلا لمن شاء من عباده، ويكون بما يشاء من عطائه وقضائه.

وألطاف الله بيوسف عليه السلام لا تخفى على كل من عاش مع تفاصيل قصته، ابتداء من إلقائه في البئر وكيف وجده السيارة وباعوه للقصر، ومرورًا بما حصل معه مع صاحبة القصر ورجالاته، وانتهاء باجتماعه مع أهله، ولولا لطف الله في ذلك لاختلف الحال والمقال.

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ يغلب على ظني أن عظمة الله تعالى تجلَّت في قلب يوسف عليه السلام هنا في أبهى صورها وأعلا منازلها، وأن الاستسلام لأمره وقدره هو العنوان الذي يعيشه بجوانحه وجوارحه، فإن الله تعالى هو العليم الحكيم في أفعاله وأقواله، وفي قضائه وقدره، وفيما يختاره ويريده، وهو الذي أتقن خلقه وأحاط علمه بكل شيء، لا إله إلا هو.

ويجتهد أهل التفسير في ختام قصة نبي الله يوسف مع أهله هنا في معرفة عدد السنين التي غاب فيها عنهم، فمنهم من يذكر أنها ثمانون سنة، ومنهم من يجعلها أربعين، ومن من يرى غير ذلك، ولا دليل على ما قالوه.

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

أطلق نبيُّ الله عليه السلام دعاءً طيبًا مباركًا في هذه الآية، دعاءً يعيشه أهل التقوى بقلوبهم، ويتفيئون ظلاله في إقبالهم على الطاعة واجتنابهم للمعصية.

يدعو عليه السلام ربَّه ويناجيه بدعاء نابع من قلبه بعد أن التمَّ شمله بالأحباب، وقرَّتْ عينه برؤيتهم، وبعد أن مكَّن الله له في الأرض، وآتاه من واسع رحمته وكرمه.

وقد بلغ هذا الدعاء مع قلة كلماته الحدَّ الكامل في الحُسن والرقيِّ، فصاحِبُه بدأ باستحضار نعمتين من نعم الله عليه، ثم أطلق لسانه بعبارتين من عبارات التعظيم والإجلال للرَّبِّ العظيم، ثم دعا بدعائه الذي عمَّر فؤاده في حِلِّه وترحاله، وفي سجنه وبلائه، ووقت نزول النعم وحصول الفرج.

يقول نبي الله يوسف عليه السلام: اللهم ربنا وخالقنا ومالكنا ومدبرَ أمرنا: أعطيتني الملك واصطفيتني له كما أعطيتني النبوة واصطفيتني لها، ثم أكرمتني في الدنيا بالقدرة على تفسير الرؤى وفَهْمها وتعبيرها لتكون مُعينًا لي في حياتي.

اللهم ربنا خالقنا ورازقنا ومن بيده حياتنا ومماتنا: أنت من خلق السموات والأرض من العدم، وأنت من أتولاه في الدنيا ليحفظني وينصرني ويصرف عني شرور الإنس والجن، وأنت من أتولاه في الآخرة ليرحمني ويسترني، يومَ يتبرأ أولياء الظلمة والشياطين من أوليائهم وتكون العداوة بينهم.

يا رب: كما أنعمت عليّ بكل هذه النعم في الدنيا أدعوك أن تختم لي بالصالحات، وأن تثبتني على ديني حتى ألقاك وأنت راض عني، واجعل يا رب خير أيامي آخرها، وتوفني على فراش الموت على لا إله إلا الله.

يا رب: ألحقني بالصالحين من الأنبياء والشهداء والصديقين الذين جعلت مراتبهم في الفردوس الأعلى، واجمعني بهم في دار كرامتك على سرر متقابلين.

وأريد منكم أن تعيشوا مع دعائه بأن يتوفاه الله على الإسلام، فهذا يعني أنه الدين الحق الذي لا ينفع غيره، ويعني أنه دين الأنبياء والرسل جميعًا، وهو الدين القائم على الإيمانِ بالله وحده لا شريك له، والإيمانِ بالملائكة جميعًا، وبالكتب السماوية جميعًا، وبالرسل جميعًا، والإيمانِ باليوم الآخر كما أثْبَتته نصوص الشريعة وفَصَّلت فيه، ثم الإيمانِ بالقدر خيره وشره. قال الله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ **[آل عمران: ١٠٢]**.

ولقائل أن يقول: هل اشتاق يوسف عليه السلام إلى لقاء ربه وإلى لقاء إخوانه وأجداده من الأنبياء والصالحين فتمنى الموت هنا؟ والجواب أن دعاءه يحتمل ذلك، ويحتمل أنه أراد حسن الختام وكفى.

ومعلوم لديكم أن الواحد منا لا يجوز له أن يتمنى الموت إذا أصابه البلاء. أخرج البخاري ومسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيْرًا لِي».

وقد ذكر أهل العلم أن سبب المنع من تمني الموت هو أن طول عمر الإنسان مع صلاح عمله علامة خير، فمن طال عمره كثرت أعماله الصالحة، واستفاد من لذة العبادة، واستدرك ما فات وكان من التوابين. أخرج أحمد والترمذي واللفظ لأحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكَرَةَ، عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ «، قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: «مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ».

وأخرج أحمد بسند حسن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: كَانَ رَجُلَانِ مِنْ بَلِيٍّ حَيٌّ مِنْ قُضَاعَةَ (أي: هذا فخذ من قبيلة قضاعة يسكنون مكانًا اسمه بَلِيٌّ) أَسْلَمَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاسْتُشْهِدَ أَحَدُهُمَا، وَأُخِّرَ الْآخَرُ سَنَةً، قَالَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللهِ: فَأُرِيتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ الْمُؤَخَّرَ مِنْهُمَا، أُدْخِلَ قَبْلَ الشَّهِيدِ، فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَأَصْبَحْتُ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلَيْسَ قَدْ صَامَ بَعْدَهُ رَمَضَانَ، وَصَلَّى سِتَّةَ آلَافِ رَكْعَةٍ، أَوْ كَذَا وَكَذَا رَكْعَةً صَلَاةَ السَّنَةِ؟».

ويُستثنى من ذلك ما لو خشي الفتنة في دينه والضلال، فيجوز له الدعاء بالموت كما ثبت ذلك عن عدد من الصحابة والتابعين، وكما أشار الحديث الذي أخرجه أحمد عَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: الْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ».

انتهت القصة هنا بدعاء يوسف عليه السلام كما بدأت برؤياه، فعيشوا معها واستمتعوا بجمالها، وأعيدوا قراءتها مرة بعد مرة فكنوزها لا تنقضي وَرَبِّي.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

يخاطب الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم ويقول له: إن قصة أخيك يوسف عليه السلام وغيرها من قصص الأمم السابقة إنما هي من أنباء الغيب التي لا يعلمها قومك الذين تعيش بينهم، ولم تكن تعلمها من قبل، ولم تضبط تفاصيلها على النحو الذي جاءك في كلام الله هنا، فاحرص على أخذ العبرة والموعظة منها، واجعلها أنيسك في دعوتك وصبرك على أذى قومك ومن حولك من أعداء الملة، واعلم أن تبليغها للناس هو المطلوب الأعظم في حياتك لتنتفع البشرية كلها من هذه القصة، ومن هذه الدعوة الربانية النقية الصافية.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ﴾ أنت لم تكن مع إخوة يوسف لما مكروا بأخيهم، واتفقوا على إلقائه في الجُبِّ، ويوم أجمعت النسوة على المكر به، ويوم أجمع رجالات القصر على إدخاله السجن، ولكن الله تعالى أطلعك على علوم الغيب الماضية، ولن يضيعك في كل ما تحتاجه في رسالتك العظيمة. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ﴾ [يُوسُف: ١٥].

يا أيها الصالحون المصلحون: وأنتم كذلك لن يضيعكم ربكم، ولن يخذلكم، وسيفتح عليكم فتوحات العارفين إذا ما اتقيتموه وجعلتم رضاه نَصْب أعينكم.

يا أيها الكافرون المشركون: أما آن لكم أن تؤمنوا بهذا النبي الذي جاءكم بقصص الأمم من قبلكم، مما لا يعلمه أحد، ومما لا يكون إلا بوحي. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾ [القصص: ٤٤]، وتأملوا يرحمكم الله قول سبحانه وتعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾

بدأ التعقيب القرآني على قصة يوسف التي وصفها القرآن العظيم بأنها أحسن القصص، وبدأت معالم المواعظ والفوائد تظهر بشكل مستقل، وجاءت في الآية هنا قاعدة عظيمة تعيننا في فهم ما يجري حولنا، وتعطينا مفتاح تقييم الأقوال والأفعال، وتقول لنا: ليست العبرة في معرفة الحق من الباطل بالكثرة، ولكن العبرة بموافقة الشرع واتباع هدي محمد ﷺ وأصحابه ومن سار على نهجهم، مع الإخلاص في الأقوال والأعمال والأحوال. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦].

أكثر الناس تحب سماع الحرام والنظر إليه، وتأنس بمجالسة أصحابه وتطمئن إليهم، وتتبع المال والقوة على حساب الحق الأبلج الواضح البيِّن، ولذلك خاطبت الآية نبينا عليه الصلاة والسلام لئلا يحزنَ على حال أكثر الناس من قومه ومن الأمم، ولِيَصْبِرَ على مرحلته الصعبة التي يعيشها فإن فرج الله قادم، ولِيَقْصِدَ الصراط المستقيم وإن كان السالكون فيه قليلًا، وأظن أن الرسالة وصلت إليكم أنتم أيضًا أيها القابضون على دينهم في زمن الغربة.

جاءت هذه الآية في هذا السياق لتربط على قلب نبينا صلى الله عليه وسلم وتُسلِّيَه بسبب إصرار أهل مكة على معاداته والتكذيب بما جاء به، مع شدة حرصه على إيمانهم، وذلك بعد هذه القصة التي لا يسعهم أمامها إلا الدخول في دين الله، ولكنهم يجحدون وفي ضلالاتهم يسيرون، وهذا غالب حال الأمم والناس جميعًا، والحمد لله الذي هدانا وثبَّتنا.

﴿ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

الخطاب هنا لنبينا عليه الصلاة والسلام، وهو خطاب يلخص دعوتنا، ويعطينا غاية من غاياتها، وهي السعيُ في هدايةِ الناس وإخراجِهم من الظلمات إلى النور، وتذكيرِهم بما ينفعهم ليفعلوه، وبما يضرهم ليتركوه.

يا محمد صلى الله عليه وسلم: أنت في تبليغك الوحي لقومك، وفي دعوتك لأهل الكفر لا تسألهم أُجْرةً ومتاعًا من متاع الدنيا الفانية، وإنما تريد أن تنصحَ الخلقَ، وتدُلَّهم على طريق الهداية، وتُذَكِّرَهم بمستقبلهم الحقيقيِّ الذي يبدأ بعد الموت.

وأنتم أيها الدعاة: امضوا في دعوتكم واجعلوها خالصة لله، وإن أدارت الدنيا ظهرها لكم، فوالله ما أردنا من أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، وبذل النصح والإرشاد، والخروج بمشاريع دعويةٍ هادفة إلا أن يرضى الله عنا ويتقبلَ منا، ويكتبنا في ديوان المقبولين.

واعلموا أن علامة إخلاصكم وسيركم على طريق محمد صلى الله عليه وسلم في دعوته، هي استواءُ ظواهركم وبواطنكم، واستواءُ مدحِ الناس أو ذَمِّهم لكم، ثُمَّ ثباتُكُم على الطريق وإن كَثُر الساقطون الهالكون.

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

يعيش أهل الكفر والشرك في غفلة يصعب وصفها، فآيات الله ودلائل توحيده وعظمته في السماوات والأرض ظاهرة لكل ذي قلب وعقل، وهي مما لا يخفى، ولكنهم يرونها ويمرون بها ولا يعتبرون ولا ينتفعون، كما لم ينتفعوا بالقرآن العظيم الذي يعلمون صِدْقه.

انظروا إلى الكواكب والنجوم وقيام السماء بلا عمد، وانظروا إلى خيرات الأرض وجبالها وبحارها ودوابها وتقلب الليل والنهار فيها، وانظروا إلى أنفسكم وخَلْقكم، فالعظمة فيها تملأ الآفاق جملة وتفصيلًا لو كانوا يعقلون، وهي شاهدة على وحدانية الله سبحانه وتعالى.

صحيح أن الآية جاءت في معرض الحديث عن أهل الكفر، ولكن الوصف الذي جاءت به يصلح موعظة كذلك لأصحاب القلوب الغافلة من أبناء المسلمين، الذي تركوا كثيرًا من الفرائض، وانغمسوا في الحرام، وابتعدوا كثيرًا.

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

يزعم كثير من الناس أنهم مؤمنون، وأنهم أصحاب الحق الذي ينجو صاحبه من سخط الله وعقابه، ولكن الآية هنا تبين أن ثمة أصنافًا ضلَّت الطريق وأخطأت الصواب وإن زعمت ما زعمت، فهذه طوائف أدخلت الشرك في إيمانها، وابتدعت في دين الله بحسب أهوائها، فكانت من الخاسرين الذين لم ينفعهم إيمانهم، ولم يدخلوا في دائرة الإسلام الحق الذي ارتضاه ربنا للناس دينًا، والذي يكرم صاحبه بالفوز بالجنات والخلود فيها.

واختلاط الإيمان بالشرك له صور قد حصلت عند أصناف من العالمين، هي حصيلة كلام أهل العلم والتفسير في هذه الآية:

١- الصنف الأول الذي أراده السياق القرآني هنا هم المشركون الذين كانوا يعبدون الأصنام، فهؤلاء يومنون بأن هذا الكون له خالق، ويؤمنون أنه الرازق والمعطي والمانع، ولكنهم يعتقدون مع ذلك أن الأصنام تنفع وتضر، وأنها واسطة بينهم وبين الله الذي في السماء، وأن الأصنام التي صنعوها إنما هي بنات الله على هيئة الملائكة، تعالى الله عما يقولون علوًّا عظيمًا، فكان إيمانهم إيمانًا مزعومًا ومردودًا عليهم، وهو إيمان حوى شركًا ولم يكن خالصًا لله وحده.

جاءت الآية هنا لإبطال لما يزعمونه من الإيمان، فإن توحيد الله إنما يكون كما أراد وأمر، وليس كما أرادت أهواؤهم ورغباتهم.

المشركون لو سألتهم: من خلق السماوات والأرض؟ ومن سخر الشمس والقمر؟ ومن بيده النفع والضر؟ ليقولن الله الذي في السماء، كما دل على ذلك قولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٨٨].

وقولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولكنهم ظلموا أنفسهم بإشراكهم مع الله غيره، واتخاذِهم الأنداد والنظراء، حتى إنهم من شدة تعظيمهم لأصنامهم كانوا يعدونها شريكًا لله في تلبيتهم وهو يطوفون حول الكعبة، كما دل على ذلك ما أخرجه مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ، قَالَ: فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَيْلَكُمْ، قَدْ قَدْ» (يعني: لا تزيدوا على ذلك) فَيَقُولُونَ: إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ، يَقُولُونَ هَذَا وَهُمْ يَطُوفُونَ بِالْبَيْتِ».

ليس سهلًا أن يعيش العبد في الدنيا وقد اتخذ طرائق أهل الشرك سبيلًا، فهذا هو الخسران المبين الذي ليس بعده خسران، وهو أعظمُ الظلم وأفْحَشُه. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لُقْمَانَ: ١٣]، وأخرج البخاري ومسلم عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، أنه سأل النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ».

٢- أشرك اليهود والنصارى بالله مع أنهم يؤمنون به، وهذا هو الصنف الثاني الذي اختلط إيمانه بالشرك فلم ينفعه، فالنصارى تعددت الآلهة عندهم، وزعموا أنه لله ابنًا هو عيسى وهو كذلك إله، وأنه خلق بالكلمة التي هي روح القدس وهي كذلك إله، ثم كان اللهُ والروحُ القدس وعيسى إلهًا واحدًا، وهذه فلسفة غريبة تعجز العقول عن أن تفهمها فضلًا عن أن تؤمن بها.

واليهود زعمت بعض طوائفهم أن لله ابنًا اسمه عزير، ولم يؤمنوا بعيسى ولا بمحمد عليهما الصلاة والسلام، بل قتلوا أنبياء وكفروا بآخرين.

٣- الرياء من صور الإشراك بالله، وهو شعار لأهل النفاق، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النِّسَاءِ: ١٤٢]، فالمنافق يُظْهر الصلاة، ولكنه لا يفعلها من أجل الله، بل من أجل الناس لنيل مدحهم، ومشاركة المسلمين في الغنائم والأموال، وحفظ نفسه من القتل إذا انتصر أهل الإسلام.

هذا النفاق يُسمى عند أهل العلم: نفاق الاعتقاد، وهو يقوم على إظهار الإسلام والإيمان وإبطان الكفر والحقد على الدين وأهله. أخرج مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ».

ولذلك كان من علامات أهل الإيمان الصادق أنهم يراقبون أنفسهم ويحاسبونها ويخالفونها، ويقبلون على طاعة الرب في السر كما يقبلون عليها في العلانية، ويقبلون على الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سواء نالوا حظًّا من حظوظ الدنيا أم لم ينالوا، وإذا وجد الواحد منهم اختلاطًا في نيته فزع إلى مولاه ودعاه بلسان صادق بأن يعينه على نفسه، وأن يسدده في القول والعمل والنية، ويمتثل للتوجيه النبوي الذي أخرجه البخاري في الأدب المفرد، عن معقل بن يسار رضي الله عنه، قال: انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَلشِّرْكُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلِ الشِّرْكُ إِلَّا مَنْ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر؟ قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلشِّرْكُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ إِذَا قُلْتَهُ ذَهَبَ عَنْكَ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ؟ قَالَ: قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ وَأَسْتَغْفِرُكَ لما لا أعلم».

٤- ومن الأصناف التي يدخل الشرك إليها مع أن ظاهر حال أهلها الإيمان، صنف من أبناء هذه الأمة جاءت نصوص الشريعة لتُحَذِّره من سلوك طريق الشرك بالله، وهو طريق يقوم على اعتقاد أن النفع والضر من عند غير الله، وأن له أسبابًا لم يجعلها الشرع معتبرة في جلب منفعة او دفع مضرَة، وذلك كالتطير، وكالتعامل بالسحر، وكالرُّقْية التي لا تتوافر فيه الشروط الشرعية، وأكتفي ببيان ما ذكرت وقيسوا عليها غيرها.

أما التطير فهو التشاؤم بمسموع كصوت الغراب، أو بمعلوم كشهر مخصوص أو يوم مخصوص، أو التشاؤم بمرئي كأن يرى شخصًا فيتشاءم، أي: يظن أن صوت الغراب أو رؤية فلان سبب من أسباب الضر وقلة الرزق وغير ذلك. أخرج أحمد وابن ماجه وغيرهما عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ»، قال ابن مسعود: «وَمَا مِنَّا إِلَّا وبه، وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ». وأما التعامل بالسحر فأكثره يكون فيه استعانة بالجن بطرائق تقوم على الشرك بالله العظيم، وفيه جاء الحديث الذي أخرجه أحمد وابن ماجه وأبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». والتولة نوع من السحر يجلب المرأة إلى زوجها ويحببها إلى قلبه بزعمهم.

وأما الرقى فالمقصود بها الرقية التي لا تكون شرعية بأن تكون بكلام غير مفهوم فيه استعانة بالشياطين والأصنام، وتقوم على طرائق غريبة، بخلاف الرقية الشرعية الصحيحة التي تتوافر فيها ثلاثة شروط هي: أن يعتقد الراقي والمرقي أن الشفاء بيد الله، وأن تكون بالقرآن وبالأذكار، وأن تكون بكلام مفهوم.

والحديث جاءت فيه لفظة التمائم، وهي جمع تميمة، وهي الخرزة الزرقاء التي توضع على الصدر لدفع الحسد بزعمهم، فهذه الخرزة لم يجعلها الشرع سببًا لدفع الضر، ومثلها التلطيخ بالدم ونحو ذلك.

أخرج البخاري ومسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ، قَالَ: «أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا».

ومن المظاهر التي حذَّرت منها الشريعة كذلك أن يحلف المرء بغير الله، فقد أخرج غير واحد من أصحاب السنن، عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَيْدَةَ، قَالَ: سَمِعَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما رَجُلًا يَحْلِفُ: لَا وَالْكَعْبَةِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ».

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٠٧﴾

يظن أهل الشرك أن الله تعالى راضٍ عنهم لأنه يرزقهم، ويمدهم بالنعيم، ويطيل في أعمارهم مع أنهم مقيمون على الكفر به، ولكن هذا الظن مردود عليهم جملة وتفصيلًا، فإنعام الله على العبد الكافر قد يكون استدراجًا له، حتى إذا اطمأن واستمر في شركه وكفره جاءه عذاب الله أو جاءه يوم القيامة بغتة قبل أن يتوب ويؤمن، فكان من أهل النار الخالدين فيها.

يا من كذَّبتم برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من أهل مكة وما حولها: احذروا من دوام إقامتكم على الشرك وعبادة الأصنام، واعلموا أن إيمانكم مردود عليكم ولا يقبل الله معه شيئًا، فآمنوا بالله حقًّا، وأَخْلصوا لله في توحيدكم وعبوديتكم، واحذروا أن تأتيكم غاشية من العذاب، وهي العقوبة التي تغشاكم من كل مكان وتحيط بكم وتقضي عليكم، واحذروا قيام الساعة فإنها تأتي بغتة، أي: فجأة لا تدرون أنها قادمة فتستعدون.

قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]، وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٤٥ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٤٦ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٤٧﴾ [النحل: ٤٥-٤٧].

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾

قل يا محمد صلى الله عليه وسلم لمن أُرْسِلت إليهم من الإنس والجن، وأخبر الناس جميعًا أن الدعوة إلى التوحيد وإلى شهادة أن لا إله إلا الله، هي الطريق الذي أثق به، وأعلم صدقه، ولن أتخلى عنه أو أَحِيد.

أخْبِرْهم أنك تدعو إلى الله تعالى على بصيرة، أي: على علم وحجة واضحة، وعلى هداية ونور من الله، وتدعو على يقين وبرهان بأن دعوة الإسلام هي الدعوة التي اصطفى لأجلها جميع الأنبياء والرسل، وهي التي قام بقائمتها العلماء والدعاة والعُبَّاد عبر التاريخ، وهي التي قدَّم المخلصون من أجلها الأنفس والأموال والأولاد والأوقات.

وقولوا أنتم يا مفاتيح الخير في الأرض: شريعتنا سبيلنا إلى عمارة أرضنا، وسنبذل من أجلها الليالي والأيام في طلب العلم وتحصيله والتسلح به، وسنبذل الغالي والنفيس لتصل هذه الدعوة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وسنمتثل لأمر الله تعالى لما نادانا: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولقد جاء في فضل العلم الذي يكون تحصيل البصيرة به، آياتٌ وأحاديثُ وأقوالٌ يصعب حصرها، أختار منها ما أخرجه مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ».

ويستدل عدد من العلماء بهذه الآية على خطورة أن يدعو الإنسان إلى الله تعالى على جهل، فيقفَ أمام الناس ويعلمَهم أمور دينهم قبل أن يضبطها، أو يستعجلَ في التَّصَدُّر لمجالس العلم والوعظ والفتوى وتفسير القرآن والسنة قبل أن يمتلأ، أو يخوض في المسائل الكبرى في الشريعة كعدد من مسائل الاعتقاد والردِّ على الملحدين وأحكام الجهاد، وغير ذلك قبل أن يكون أهلًا لذلك.

أخرج البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ قل لهم: إن دعوتي تقوم على تعظيم الله وإفراده بالألوهية، وتقوم على تنزيهه عن الولد والصاحبة والشريك والنقائص وجميع ما لا يليق بجلاله وعظمته ووحدانيته، ولست من الذين يشركون معه غيره، بل أعبده سبحانه مخلصًا له الدين.

ولا يفوتني قبل إنهاء تفسير الآية الوعظي أن أشير إلى حال قوم من الناس، تربَّى في بيئة الدين والإيمان، ثم خالط أهل الكفر لما احتاجهم في علم أو عمل، ثم استطاعوا أن يدخلوا الشك إلى قلبه، ويصرفوه عن أصول دينه وفروعه ليعيش بعد ذلك مرحلة الحَيْرة والضياع، ويغرقَ في بحر الشهوات والشبهات، ومثل هذا الصنف من الناس يجعلنا ندرك ضرورة التسلح بالعلم، والثقة بالطريق، والثبات على العقيدة والمبادئ، والسعي في التأثير في الغير عن بصيرة قبل أن يُشغلوه بباطلهم، نسأل الله السلامة والعافية.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَواْۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾

يخبر الله تعالى عن رسله الذين أرسلهم إلى العالمين قبل محمد ﷺ، وقد كانوا جميعًا من الرجال الذين يعرفهم أقوامهم، وممن نشؤوا بينهم ويعرفون سيرتهم وخصالهم، وقد أوحى الله تعالى إليهم عن طريق جبريل بالرسالة أو بالنبوة، فلماذا يكفر بك قومك يا محمد ﷺ وقد حصل معهم مثلما حصل مع الأقوام السابقة التي يعرفونها تمام المعرفة.

أرسل الله رسلًا إلى أقوامهم من جنس البشر، ولم يكونوا من الملائكة أو من الجن، فهذه الرسل تأكل وتشرب وتنام، وتمرض وتغضب وتضحك، ويجري عليها جميع ما يجري مع البشر، كما قال ربنا: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقد جاؤوا بالمعجزات الباهرات من عند رب الأرض والسماوات ليهتديَ أقوامهم، فكان إرسالهم سنة إلهية قديمة منذ نزل آدم على هذه الأرض، ولقد كان كفار مكة وغيرُهم يؤمنون بأنبياء جاؤوا من قبل، وكانوا يتحدثون بقصصهم ويرون آثار أقوامهم، فلماذا أنكروا نبوة محمد ﷺ على وجه الخصوص، وكانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤]، فمالهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا.

وقد استدل كثير من أهل العلم بهذه الآية على أن جميع الرسل كانوا من الرجال، ولم يرسل الله امرأة إلى قومها، وذهب جمهور أهل العلم كذلك إلى أنه ليس بين الأنبياء امرأةٌ، وقد تلمسوا الحكمة في ذلك، وذكروا أن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة، ومقابلة الناس في السر والعلن، والتنقل في فجاج الأرض، ومواجهة المكذبين ومخاصمتهم، وإعداد الجيوش وقيادتها، وهذا مما لا يناسب إلا الرجال، وذكروا كذلك حكمًا وفوائد أخرى تدرس في مظانها.

ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى لم يصطفِ نساء ويرسل إليهن ملائكة، ولا يعني أن عددًا من النساء أكرمهن ربي بما لم يكرم به كثيرًا من الرجال، واستعملهن في طاعته ودعوته بما يناسبهن، بل وأنزل سورًا في ذكرهن وبأسمائهن.

قال الله تعالى في بيان خطاب الملائكة لأمنا مريم عليها السلام التي نزلت سورة كاملة باسمها: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عِمْرَانَ:٤٢-٤٣]، وجاء ذكرها كذلك بأجمل الأوصاف في قول الله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ﴾ [الْمَائِدَة: ٧٥]، وجاء في بشرى الملائكة لأمِّنا سارَّة عليها السلام: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وانظروا في قول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ [الْقَصَص: ٧]، وغير ذلك.

ومعلوم لديكم أنه ليس كل من كلَّمته الملائكة يكون نبيًّا، فقد خاطبت الملائكة غير النبيين كما في قصة جبريل عليه السلام لما تمثَّل رجلًا وخاطب النبي صلى الله عليه وسلم أمام الصحابة وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان، وكما في قصة الملَك الذي جعله الله تعالى على طريق من زار أخًا له في الله، وأخْبَره أن الله يحبه، وكما في قصة الأقرع والأعمى والأبرص الذين أرسل الله إليه ملائكة على هيئة بشر.

﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ﴾ المقصود أن رسل الله جميعًا كانوا من أهل مدنهم وقراهم التي يعرفون ولا ينكرون.

ومن أهل العلم من قال: إن الآية فيها دليل على أن جميع الأنبياء والرسل كانوا من أهل المدن ولم يكن واحد منهم من أهل البادية الذين يغلب عليهم العيش في الصحراء والتنقل، وقالوا: ولعل الحكمة من إرسال الرسل والأنبياء من أهل القرى هو أنهم يغلب عليهم التلطف والرقة في الطباع، وكذلك يغلب فيهم العلم والحِلْم، ولكن عددًا من أهل العلم ناقشوا ذلك، وأشاروا إلى أن نبي الله يعقوب عليه السلام جاء إلى مصر من البَدْو كما أخبرت السورة هنا، فالأمر لم يكن محصورًا على أهل القرى.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تَعْلم قريش أن عادًا وثمود وغيرَهم كانوا ممن كذبوا الرسل، وكانوا ممن أنزل الله بهم بَأْسَه وعقوبتَه، وكانت قراهم التي خسف الله بها في طريق أهل مكة إلى الشام وإلى اليمن، ولكنهم لم يأخذوا العبرة مما حلَّ بمن سبقهم، وكفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم، ونصبوا العداء له ولمن معه، وحاربوه وقاتلوه.

يا أهل الكفر: أفلم ترتحلوا في هذه الأرض إلى بقاع مختلفة فتروا فيها آثار قوم ضلوا عن سبيل الله فأذاقهم بأسه، فأين قلوبكم من الخشية للرب العظيم؟ وأين إيمانكم الذي يدل على انتفاعكم بنعم الله عليكم؟ قال الله تعالى:
﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحَجّ: ٤٦].

يُحَذِّرهم ربنا من الإصرار على ذلك، وينكر عليهم طريقتهم في التفكير، ويُنَزِّل علينا نحن آياته ليَحْذَرَ أناسٌ يعيشون بيننا من مثل هذه الضلالات والانحرافات، وليهتدوا قبل فوات الأوان.

﴿وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ كما أن الله تعالى نجَّى المؤمنين من بأس الظالمين في الدنيا، كذلك سينجيهم في الآخرة ويسعدُهم ويرضى عنهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافِر: ٥١-٥٢].

يأخذ المؤمنون هذا الجزء من الآية على محمله الذي يليق به كما هو حالهم مع جميع القرآن، وتغدو هذه العقيدة التي جاءت بها الآية نورًا يضيء لهم طريقهم في حياتهم كلما أظلم عليهم، فلقد نَجَّى الله عزَّ وجل كثيرًا من الرسل والمؤمنين في الدينا، وأعدَّ لهم دار كرمته غدًا في الجنة بعد بلاء طويل وعجيب عاشوه، وهذا حال كُلِّ مَنْ آمن بالله العظيم، وصبر على بلائه في الدنيا، وصبر على دعوته وتبليغ الحق الذي يحمله.

يا أهل الإيمان: إذا نادت عليكم الدنيا فتذكروا أن دار الآخرة خيرٌ لكم إن اتقيتم الله وجعلتم بينكم وبين الحرام سدودًا وحواجز، وإن أقبلتم على الطاعات وعشتم في ظلالها حتى الممات، وإن بقيت الثقة في الطريق موفورة في قلوبكم، وكتب الله على أيديكم نصرة هذا الدين وأهله.

يا أهل الإيمان: نعيم الدنيا موجود في حياتكم ولكنه نعيم منقوص ومنقطع، ولا يخلو من النكد والكبد، بخلاف نعيم الآخرة فإنه موفور وممتد بلا نصب ولا تعب ولا نكد ولا تنغيص، وفيه من اللذائذ ما الله به عليم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه عادة القرآن في خطابه للناس، فهو لا يريد منهم أن يغمضوا أعينهم وينعقوا بما ينعق به أهل الكفر الذي عطَّلوا عقولهم عن آيات الهدى، ولا يريد منهم أن يكونوا بَبَّغاوات تُكرر كل ما تسمعه، وليَعْلموا جميعًا أن ديننا دينُ مبادئ لا دينَ تقاليد، وأننا عِشْناه بأرواحنا وعقولنا فلم نر فيه ما يَضِيرنا، وأننا أدركنا فيه قيمة العقل والرشد والهداية، والحمد لله رب العالمين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾

يبتلي الله تعالى عباده الذين عاهدوه على الجهاد والدعوة إلى دينه في الأرض، ويُضَيِّق عليهم في رزقهم وعَدَدِهم وعُدَّتهم، وقد يُقدِّر هزيمتهم وخسارتهم في زمن من الأزمان، وذلك ليبلوَهُم: أيصبرون أم يفِرُّون؟ أيشكرون أم يكفرون؟ أيمضون في دعوتهم أم يخافون بأس أهل الكفر ويأنسون إلى الدنيا ولذائذها ومتعها؟ فإذا كانوا من أهل الصدق معه، والصبر على ما ابتلاهم به، عوَّضهم خيرًا، وآتاهم ما يرجون، وأمَّنهم مما يخافون.

تُخبر الآية عن سنة من سنن الله تعالى في خلقه، تكون مع مدافعة المؤمنين للكافرين كما حصل مع نبينا عليه الصلاة والسلام في مدافعته لأهل مكة والأمم من حوله، وكما حصل مع الصحابة بعده، وكما حصل مع المرابطين على حصون هذه الأمة عبر التاريخ، وهذه السنة تكون بالتضييق أول الأمر على أصحاب الدعوة الربانية، حتى إذا بدأ اليأس يدخل إلى قلوبهم جاء فرج الله عليهم، ونَصرهم على عدو الله وعدوهم.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

تحوي الآية تسلية عجيبة لكل غيور على دينه مستعجل لنصر الله تعالى لأمته ودينه، وتبين له طريق الأنبياء والرسل ومن اصطفاهم ربنا ليكونوا في عليين، وتعطي معالم الاستقامة والدعوة لأولئك الذين أحبوا ربهم ولقاءه، وتعيد البناء العقائدي والعلمي لمن ضل أو زاغ عن دين الله تعالى، وتدعو للأخذ بأسباب النصر وسننه في الأرض مع التوكل على الله تعالى، والثقة واليقين بوعده للمؤمنين.

أخرج البخاري عن أمِّنَا عائشة رضي الله عنها أنها قالت في تفسير هذه الآية: هُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، الَّذِينَ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَصَدَّقُوهُمْ، وَطَالَ عَلَيْهِمُ البَلَاءُ، وَاسْتَأْخَرَ عَنْهُمُ النَّصْرُ، حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَتْ مِمَّنْ كَذَّبَهُمْ مِنْ قَوْمِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ أَتْبَاعَهُمْ كَذَّبُوهُمْ، جَاءَهُمْ نَصْرُ اللَّهِ.

أرى في هذه الآية نداءً لأمة محمد صلى الله عليه وسلم: هل تظنون أن سلعة الله رخيصة، وأنها مضمونة لكم بحسب ما تشتهون؟ والجواب: لا تغتروا بالثناء عليكم واعلموا أن الجنة غالية، وأنكم لن تدخلوها حتى تُبتَلُوا وَتُخْتَبَرُوا وَتُمْتَحَنُوا، كَمَا كانت السنة والطريقة مع من اهتدى واستقام ودعا إلى الله من الْأُمَمِ السابقة، فقد مستهم بأساءُ الفقر والشدة، وضراءُ المرض وفقْدِ الولد والجراحات والقتل، وزلزلةُ الخوف من بطش أعداء الدين في حروبهم وقتالهم وجهادهم في سبيل الله، حتى دعا الرسول ومن معه من المؤمنين بالفرج والنصر.

ليس سهلًا أن يصل الرسل إلى حالة اليأس المذكور هنا، وهو يأسٌ من اهتداء قومهم وإيمانهم، ويأسٌ بسبب شدة تكذيبهم وسخريتهم وإصرارهم، ويأسٌ من تحصيل طريقة النصر عليهم والتمكين للمؤمنين المستضعفين، ولكن قدرة الله تعالى أكبر من كل شيء، فإذا وصل الرسل إلى هذه الحال جاءهم نصر الله وفرجه، ونجَّى الله دينه ومن يشاء من أوليائه بفضله وكرمه، ولم يقدر أحد أن يمنع بأسه وعقوبته عن المجرمين المكذبين، كما قال سبحانه في ختام الآية:

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ يطمئن أهل الإيمان بوعد الله لهم بالتمكين وإن تأخر، ويعلمون حق العلم أن أهل الإجرام لن تقرَّ لهم عين، ولن يهدأ لهم بال ما داموا يمكرون الليل والنهار بالإسلام والمسلمين. سيأتي بأس الله وانتقامه ممن آذوا أولياءه وصدوا عن شريعته في الأرض، وممن عملوا على تلبيس الدين على الناس، وحرفوا وغيروا وبدلوا، ونسبوا للشريعة ما ليس فيها افتراءً وبهتانًا.

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾

نعيش مع آخر آية من سورة يوسف بقلب حزين على ختامها، وهي التي حملت كل آية منها مواعظَ ومبادئَ ومعالمَ لا نستغني عنها كما هو حال القرآن كلِّه.

جاءت الآية هنا لتبين أن الله تعالى ذكر لنا أحوال الأمم من قبلنا، وأخبرنا عن قَصص المرسلين والنبيين مع أقوامهم، لنأخذ العبرة والفائدة التي تعيننا في فهم ما ينتظر المؤمنين من نصر وتأييد في الدنيا، ثم الفلاحِ والنجاةِ في الدار الآخرة.

وجاءت كذلك لتبين لنا ما ينتظر الصادِّين عن دين الله من الهلاك والعذاب والمعيشة الضَّنْك في الدنيا، وما ينتظرهم من عقوبة الله لهم في الآخرة.

إن قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم مليئة بالعبر والعظات، ولا تكاد تطرق بابًا من أبواب الحياة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية إلا وحصَّلت دُررًا من هذه القصة تضبط لك البوصلة في التفكير والعمل، ولكن هذه الدُّرر والفوائد والمُلَح لا يهتدي إليها إلا أولو الألباب الذي أعملوا عقولهم، وعرفوا أن هذا الدين لا يمكن أن يكون من عند غير الله، والذين لم يستسلموا لأهوائهم ولم يَتَّبِعوا شياطين الإنس والجن.

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ القرآن العظيم وقَصصه وآياته ليست حديثًا مفترى، وليست كذبًا وادعاءً، ولكنه كلام الله الذي تنطق كل آية فيه بالعظمة والرفعة والعلم والحكمة.

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ نزل القرآن العظيم لتصديق الكتب السماوية السابقة، ولبيان أن مشكاتها واحدة، وأنها نزلت جميعًا من عند الله بدين واحد ورسالة واحدة، وهي رسالة التوحيد والإيمان.

جاءت الكتب السماوية السابقة بأصول الشرائع، وقامت على الدعوة إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية، وجاءت تدعو للإيمان بالملائكة والكتب والرسل جميعًا، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ، والإيمان بالقدر، وأمرت بالصلاة والصيام والصدقات وغيرها من الطاعات، ونهت عن الفحشاء والمنكرات وسوء الأخلاق، والقرآن جاء بمثل ما جاءت به في ذلك.

ولقد وصف الله في كتابه أن القرآن العظيم جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، وجاء مهيمنًا عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، فالقرآن كتاب تكفَّلَ الله بحفظه بنفسه، وجعله آخرَ كتبه، وارتضاه منهاجًا للعالمين جميعًا لا لأمة بعينها.

والقرآن أمينٌ على ما في الكتب السابقة، وشاهد على أنها أنزلت من عند ربنا، وهو حاكم عليها ويُثبت الحق الذي جاءت به، ويُبطلُ التحريف الذي نالها من لعب الكهان والرهبان والنساخ، ويُبين ما فيها من تحريف وغلو في العقائد والأخبار.

والقرآن هيمن على الكتب من قبله بما حواه من أنظمة جعلته مُصلحَ الزمان والمكان الأوحد، ففيه من الهداية إلى العقيدة الصحيحة الكثيرُ الكثيرُ، وفيه من أحكام سياسات الأمم ومن معالم نظام الأمة المالي ما فيه، بل فصَّل فيما نحتاجه من أمر معاملاتنا وأحكام بيوتنا تفصيلًا لم نجده في كتاب من قبله، ولن نجدَه.

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والقرآن فيه تفصيل كل شيء مما يحتاجه الإنسان في عمارته للأرض، من أركان العقيدة والإيمان ومعرفة الله عز وجل وأسمائه وصفاته، ومن شرائع الإسلام وقواعده، ومما نحتاجه من الأخلاق والآداب الشرعية، ومن تحليل وتحريم، ومن أخبار بدء الخليقة، ومن أخبار الأمم والعوالم، ومن أخبار مراحل حياة الإنسان، ومما ينتظره من أحوال وأهوال ومراحل حتى يخلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ما أجملها من كلمات تختصر العلاقة بين أهل الإيمان وبين القرآن، فهو ينقلهم من طريق الغيِّ والضلالة إلى طريق السداد والرشاد، وهو رحمة لهم في الدينا بالهداية، ومفتاح نجاتهم في الآخرة.

إن قصص الأنبياء والصالحين في القرآن تحوي علمًا وهدايات لا تنتهي، وتحوي رحمات وثوابًا لا ينقضي، ولا يعيش معها ولا ينهل من خيراتها إلا أهل الإيمان كما في ختام الآية، فاللهم حبِّب إلينا ما تحبه، وأسعدنا بروعة كلامك، واشرح صدورنا لما تحب وترضى وكفى.

انتهيت بفضل الله ومنه وكرمه من تفسير سورة يوسف صباح يوم الأربعاء الموافق للثاني عشر من شهر رجب من العام الهجري الثاني والأربعين بعد الألف وأربعمائة، الموافق للرابع والعشرين من شهر شباط من العام الميلادي الواحد والعشرين بعد الألفين، ولا يسعني إلا أن أذِلَّ أمام هذه النعمة العظيمة، وأن أسأل الله تعالى أن يُلْهمني رُشْدي، ويقيَني شر نفسي، ويجعلني ممن استعمله في طاعته، وممن تقبل منه وقبله وكتب له الرضوان. وصلِّ اللهم على سيدنا وحبيبنا وقدوتنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.